
أساطير من الغرب

الطبعـة الأولى

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

بيروت · ص . ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣'

فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

سليمان مظهر

أساطير من الغرب

دار الشروق

حقيقة الخرافة فى الأساطير

هل يستطيع المرء أن يقدم كتابا عن الأساطير دون أن يخلط بينها وبين شقيقيها فى علم دراسة « التقاليد »، وهما : « الفولكلور» و«الحكايات القديمة»؟

لاشك أن هناك فارقا كبيرا بين كل من هذه الألوان الثلاثة .

فالأسطورة عادة هى قصة الأعمال التى يقوم بها أحد الآلهة ـ فى العقائد القديمة ـ أو إحدى الخوارق الطبيعية من الأبطال . . . تبدو فيها محاولات الإنسان لتفسير علاقاته بالكون والعالم، أو تفسير وجود بعض العادات والنظم الاجتماعية أو الخصائص المميزة للبيئة التى يعيش فيها خالق الأساطير نفسه . وهى فى هذه الحالة تنطوى على فهم دينى معين بالنسبة للشعب الذى رواها .

والفولكلور ، أو القصص الشعبى، يروى تراث البشرية فى أطوارها الأولى من عادات وعقائد، وقصص، وفن . . . فى حكايات بدائية لها أصلها الأسطورى دون شك، ولها أيضا قيمها الفنية والجمالية الخالصة . أما الحكايات القديمة، فهى قصص وقعت أحداثها فى أماكن حقيقية، وتتعلق فى الغالب ـ وإن لم يكن دائما ــ بأشخاص حقيقيين .

العقائد والعادات

هذه هى فى الواقع الفروق بين الأسطورة وغيرها من الحكايات . . وهى فروق يمكن تلخيصها بأن الأسطورة دراسة للصور البدائية الأولى للدين، وبأن غيرها من الحكايات الشعبية القديمة دراسة للعقائد والعادات البدائية التى مازالت تمارس حتى اليوم .

وفضل هذه الألوان مجتمعة أنها تقدم لنا صورا من التفكير القديم فيما يتصل بالدين أو بالعقيدة أو بالتقاليد أو بالبطولة والخيال . وقد قدمت من قبل لقراء « دار الشروق» مزيجا من هذه الألوان فى «أساطير من الشرق» . وأقدم اليوم مزيجا آخر منها فى « أساطير من الغرب» . وكانت الطبعة الأولى قد صدرت من قبل عن « كتاب الشعب» أ فقد صدرت عن « الدار القومية» .

الأساطير والدين

وأحب أن أناقش هنا ما أثاره البعض عن الخرافات فى أساطير القدماء . ومناقشة هذه الخرافات تجعلنا نتساءل أولا : ما حقيقة العلاقة بين الأساطير والدين؟

الواقع أن علوم الأساطير والأديان المقارنة ، تنطوى على ألوان كثيرة من الدراسات . والأديان المقارنة فرع من العلوم الدينية أو الفلسفة ، فى حين أن علم الأساطير يبحث فى الأساطير وحدها ، وبخاصة الأساطير المقارنة ، أى أنه يقارن بين الأساطير الخاصة بالأجناس المختلفة . وفى الأساطير أيضا نسمع عن مولد الآلهة وطبيعتها ، وخلق الأرض ، والأسباب البدائية التى دعت لإقامة الطقوس الدينية . ومن هنا نستطيع أن نقول : إن الأساطير جزء من العلوم الدينية .

وهذا قول يقودنا إلى التساؤل : ماهو الدين؟

إن الإجابة على هذا السؤال شائكة تثير القلق والحيرة ، وهو سؤال طالما حظى باهتمام الفلاسفة خلال أزمان طويلة ، ومازالت المحاولات العلمية لتعريفه والإجابة عليه عاجزة عن البت برأى قاطع فيه . . . لأن أصل الدين وطبيعته يجب أن يستدل عليهما من طريق علم النفس .

لقد عرف الدكتور ا . ب . تيلور الدين بأنه « الإيمان بكائنات روحية» . ولكن هذا التعريف لايتضمن طريقة إقامة الشعائر الدينية التى عدها روبرتسون سميث أهم مظهر للأديان البدائية ، ويليها فى الأهمية المذهب والأسطورة . أما السير فريزر فيقول إن الدين « عملية استرضاء أو استعطاف لقوى أعلى من الإنسان» . أما كراولى فيقرر أن كل ما له علاقة بالدين فهو مقدس . وهربرت سبنسر رد الدين إلى عبادة الموتى . وقال ماكس مويللر: « إن الدين يتضمن الإدراك الحسى اللانهائى بصورة من شأنها التأثير فى الشخصية الأخلاقية للإنسان » .

والحقيقة أن الذهن البشرى لم يستطع حتى اليوم أن يقدم تعريفا نهائيا لكلمة «الدين» .

الأفكار القديمة والحديثة

أما الأساطير بشكلها الحقيقى ـ والتى تعتمد أيضا على الأديان المقارنة ـ فهى تفسر الآلهة والبشر والكون والعادات ونظم المجتمع ، وكثير منها فى الواقع محاولات للتوفيق

بين قصص الآلهة والأبطال وبين الأفكار الدينية التى لها عند الناس قداسة خاصة .

ولم تستطع الأساطير ـ على الرغم من هذه المحاولات ـ أن تتجنب الأفكار المليئة بالخرافة التى توارثتها الأجيال البدائية جيلا بعد جيل ، ولم تعد تتناسب والأفكار الدينية التى ظهرت فيما بعد ، برغم محاولات الكهان والشعراء والأدباء شرحها وربطها بالأفكار الحديثة .

ومن هنا نجد أن اليونانيين كانوا يعدون القصص الخاصة بمعارك الآلهة « غير مناسبة» ، وإن راحوا يقدمونها باعتبارها تعبيرا رمزيا عن الصراع بين المبادئ . ويقول بلوتارخ : « إن المصريين كانوا فى غاية الحيرة لأن كثيرا من آلهتهم كانوا يرسمون فى صور حيوانات ، وكان يقال فى تفسير ذلك إن هؤلاء الآلهة يتجسدون فى هذه الصور فى حالة الخطر» .

وقد حاولت الشعوب ـ بعد أن تقدمت فى الحضارة ـ أن تطهر أساطيرها الوطنية أو القبلية من النغمة الخرافية التى كانت مسيطرة عليها .

ويبدو من المؤكد أن الأساطير الخاصة بالحضارات الأكثر رقيا قد مرت كلها ، قبل أن تصل إلينا ، بهذه المراحل من التهذيب والتنقيح ، وذلك على يد الشعراء أو الكهنة أو الفلاسفة الذين كانوا يتلهفون لتحرير أجناسهم من تاريخها القديم .

أجنون أم طفولة عقلية ؟

يقول ماكس مويللر إن العنصر الخرافى ، وغير المنطقى فى الأسطورة ، نشأ فى «فترة من فترات الجنون المؤقت ، كان يتحتم على العقل البشرى أن يمر بها» . وتساءل بعد ذلك : « هل كان هذا الجنون فى أمريكا مثلا ، يطابق تمام المطابقة الجنون نفسه الذى كان فى جنوب الهند وشمال أيسلندا؟» .

والواقع أن هذه الحالة الذهنية ، أو الموقف الذهنى ، كانت ومازال حالة مشتركة بين البدائيين فى كل مكان . أما الجنون ، فليست له أى علاقة بالتكوين الذهنى للإنسان البدائى بالرغم من أنه قد لايكون تام العقل . ويبدو أن الأمر اختلط على مويللر، فخلط بين الجنون من ناحية ، وبين استعداد البدائيين وقابليتهم اللذين يشبهان قابلية الأطفال للهوس والغرور والجهل واستعدادهم لتحريف الحقائق والتجارب . والحقيقة أن الخرافات وسذاجة الأفكار التى قد تبدو فى كثير من أساطير

البدائيين، تعـود إلى قلة رصيدهم مـن الأفكار المكتسبة، ونقص خبرتهم، مما جعلهم يسيئون استعمال القوى العقلية .

وإذا أردنا التحديد فإننا نقول : إن الإنسـان البدائى فسر حقائق الكون بخياله أكثر من تفسيره لها بعقله . وهو فى هذه الحالة التى يكـون الخيال فيها أقوى من العقل، يعد فى حالة طفولة عقلية . وهكذا تصور أن كل الأشياء المادية فى الطبيعة ـ شأنها شأنه ـ قد أعطيت موهبة الحديث والإرادة والتفكير. وهذا مايسمى « بالأنيمية » ، أى الاعتقاد بأن الأشيـاء كلهـا لها روح . وهـو طبقـا لهذا المذهـب يعتقـد أن الـريـاح والميـاه تتكلمان وتتحركان، وأن الأشجار تنطق فى وضوح، وينظـر للحيوانات السفلى على أنها متكافئة معه من حيث المستوى .

حيـاة كـل يـوم

إن الخوارق والمعجزات التى تتضمنها أساطير الإنسان البدائى ـ أو على الأقل الذى لم يتطور بعـد مع تطـورات الحضارة الحديثـة ـ ليست غـريبة بـالنسبة إليـه . . . بل إن أساليب الحياة البدائية ، والبيئة غير الحضاريـة التى نجدها فى الأساطير القديمة والتى تبدو بالنسبة لنا غريبة مليئة بالخرافة ، لاتعدو أن تكون بالنسبة للإنسان البدائى تجارب عادية فى حياة كل يوم .

إن هذه الأسـاطير عادية جـدا بالنسبـة له، وإن كانـت بالنسبة لـلأجيال التـالية ـ وخاصـة المتقدمة منهـا حضاريـا ـ غير مفهومـة، ولامستساغة . وقـد تعد مـا فى هذه الأساطير من أشياء غريبة كفرا وهراء وهى لاتدرى أن ثمة معانى أصيلة لها كلها .

الآلهـة والحيـوانات

إن قصـة مولـد الإله « زيـوس » فى الأساطير الإغـريقيـة، تعد مثـالا بارزا لانتشـار العنصر الخرافى بصورة واضحة فى القصص الأسطورية لشعب راق يمتاز بموهبة شعرية كشعب الإغريـق . ففى هذه الأسطورة بـالذات يبدو العنصر الخرافى واضحا للغـاية . وهناك عدد كبير مـن الأساطير فى جميع أنحاء العالم يظهر فيهـا ذلك العنصر واضحا . ولكن الحقيقـة أن حوادث كـل أسطورة وتفاصيلهـا هى التـى تصور أصلهـا البدائى . فالقصـص الخاصة بالآلهة الـذين يتنكرون فى صـور حيوانـات، يرجع أصلهـا إلى ذلك العصر الذى كان الناس يعبدون فيه آلهة على هيئة حيوانات .

وقد كان الإنسان البدائى ، لأنه يعيش فى صراع دائم مع قوى الطبيعة ، يتصور أن

آلهته أيضا يعيشون فى صراع دائم مع العمالقة والوحوش ، أو يتصارع بعضها مع بعض ، وكان يتصور أنهم ـ مثله تماما ـ يمكن أن يغتصبوا زوجات الآخرين ، وأن يكونوا بلا أخلاق فى بعض الأحيان ، وأن يتصفوا بالشراهة والجبن فى أحيان أخرى .

وإذا نظرنا إلى الشعوب الإغريقية مثلا ، وجدنا أنها كلها تقريبا كانت تعبد الأصنام فى أولى مراحل حياتها . ولهذا ظلت عقائدهم فيما بعد مشوبة بقدر من الخرافة . فهوميروس مثلا يتحدث عن الربة أثينا فيصفها بأنها « ذات عين كعين البومة» فهل معنى هذا أنها كانت فى وقت معين تعبد على أنها بومة؟ لقد كان الآلهة فى الإلياذة يشبهون البشر فى ميولهم ونزعاتهم . وكانت لديهم القدرة على التنكر فى صور حيوانات ، وهو نفس ماعكس به هوميروس أفكار الإغريق فى عصره .

التفكير العلمى البدائى

هذا هو التفسير الدينى للخرافة فى الأساطير. على أن الأساطير لاتفسر العنصر الدينى فحسب ، ولكنها تفسر أيضا ـ أو تحاول أن تفسر ـ الأفكار العلمية البدائية .

فالواقع أن الرغبة الفضولية فى معرفة أمور الحياة ، جعلت الإنسان متعطشا دائما إلى المعرفة ، وإلى تنشيط إدراكه العقلى .

يقول الدكتور تيلور فى كتابه « الحضارة البدائية» : «حين كان ذهن الإنسان فى المرحلة الأسطورية يعجز عن تفسير أية ظاهرة ، ولا يجد لها سببا مقنعا ، كان يخترع أية قصة لكى يبررها ويفسرها» .

ونجد مصداق هذا القول فى كل الأساطير البدائية . فمعظم هذه الأساطير ليس إلا محاولة لتفسير ظواهر معينة ، وللإجابة على أسئلة غامضة مثل : ماهو أصل هذه الظاهرة أو تلك ، وماهو سببها؟ . كيف خلق العالم والإنسان ، وكيف أصبح على ماهو عليه الآن؟ كيف تكونت هذه العادات والأوضاع والطقوس ؟ ماهو السبب فى تعدد ألوان الحياة؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة هى التى أدت إلى وجود الأساطير . . . بل إنها أدت إلى وجود العلوم . صحيح أنها كانت علوما بدائية ، إلا أنها على أية حال كانت علوما . ذلك أن من أهم وظائف العلم تنوير الإنسان ومساعدته على إدراك طبيعة الأشياء والقوى المحيطة به وأسبابها وآثارها . وهذا ماوضحته الأساطير، وإن لم تكن وسيلتها فى الإجابة عليه علمية ، بل اتخذت أسلوبا قصصيا فى كشف الستار عنه . ومع هذا

فمجرد وجـود هذه الإجـابات يعنـى ضمنا أن ثمـة أسئلة قـد أثيرت ، وأن محاولات قد بذلت للإجابة عليها . ومن البديهى أن الإجابات لايمكن أن توجد بدون أسئلة .

هذه هـى الحقيقة

هكذا نستطيـع أن نقول ، كما قـال الدكتـور لانج : « لقـد كان النـاس فى العصور القديمة يـؤلفون قصصهم تبعا لنظـرتهم الخاصة للأشياء ، وأسلـوبهم فى تفسير الأمور. وهذا وضع طبيعى ، لأنهم لم يكونوا يفكرون على أساس المبادئ التى يضعها الباحثون فى العصر الحديث أمامهم عند تفسيرهم لهذه الأمور » .

يقول الدكتور مويللر: « إن الإنسان البـدائى ، لم يكن يفكر كما نفكر نحن ، بل ولم يكن يفكر بالطريقة التى نتصور نحن الآن أنه كان يفكر بها أيضا» .

وهـذه هـى الحقيقة . . التـى يستطيـع القـارئ أن يكتشفهـا من خـلال الأسـاطير والحكايات الشعبية التى أقدمها فى هذا الكتاب .

سليمان مظهر

أسطورة إغريقية
أبوللـو رب الشـمس

قصة الآلهة كما تصورها اليونان القدماء هى أن أقدمهم اثنان : « أورانوس» السماء ، وزوجته «جى» الأرض وأكبر أبنـائهما «تيتان» ثـم « ساتـورن» ثـم «كرونـوس» ، وكانـت جـى تفضل ابنهـا الثانـى «ساتورن» على أخيه الأكبر « تيتـان» فأخذت تتملق « تيتان» ليرضى بالتنـازل عن العرش لأخيه . . ولكن تيتان اشترط لقبوله التنازل أن يتعهد « ساتورن» بأن يبتلع كل طفل ينجبه حتى لايكون له نسل . ووافق «ساتورن» ، وقبل أن يدفع الثمن غاليا مقابل أن يفوز بالعرش .

إلا أن « ريا» ، زوجـة ساتـورن ، هالها أن يقتـل زوجها أبنـاءها وهـم فى المهد ، ففكـرت فى حيلة تنقذهم ، وعندما جلس «ساتورن» على مائدة العشاء ، وهتف طالبا أبناءه الثلاثة : « زيوس» و«نبتون» و«بلوتو» ليبتلعهم . . أتت إليه بثلاث صخور كبيرة ملفوفة فابتلعها وهو يحسب أنه ابتلع أبناءه ، فى حين أرسلت هى الصغار الثلاثة إلى بعض أصدقائها لإخفائهم .

وعلم « تيتـان » بما كان ، فـأعلن الحرب على أخيـه «ساتـورن» وزوجته « ريـا» ، وطردهما إلا أن «زيوس» أكبر أبناء «سـاتورن» استطاع بعد ذلـك أن يحارب عمه تيتان ، وأبناءه العمالقـة ، ثم استولى على عرش أولمب ، وأصبح أقوى الآلهة . يحكـم السموات والأرض ، وجعـل أخاه « نبتـون» إلها على البحار ، و« بلوتو» ملكا على العالم السفلى .

فوق قمـة أولمب ، وعلى عرش رائع من ذهـب . . . جلس رب الأربـاب « زيوس» ـ أقـوى الآلهة ، وحـاكم الأرض والسماء ــ فى لحيتـه الـوقـور ، وبـإحدى يـديـه مـزراق الصاعقة ، وباليد الأخرى صولجان الملك الكبير.

وإلى جـوار رب الأرباب كـانت زوجـه « هيرا» ، تشـاركه الملـك العظيم ، وتفـرض سلطانها على الجميع لقربها من حاكم الأرض والسموات ، وتتدخل فى كل شىء .

من فوق هذا العـرش حكـم « زيوس» العالم كله ، بعدما قضـى على أعدائه من أبناء

عمه « تيتـان» الرهيب ، بـأن أرسل عليهم سهامـه المدمرة التى صنعهـا « السيكلوب» أمهر الحدادين العمالقـة ذوى العين الواحدة فى وسط الجبـاه . . . الذين كانـوا يوقدون النيران فى جوف الأرض ، ومن أفـرانهم تنطلق أعمدة رهيبة من النيران والدخـان تقذفها البراكين .

وكان « زيـوس» خليقا أن ينعم بتلك الحيـاة . . . إلا أن زوجه « هيرا» التى تشـاركه عرش الأولمب ، ملأت نفسه سـأما مريرا ، بطباعها السيئة وخلقهـا البغيض ، وعنادها الذى لم يكن يقف فى وجهه شىء .

ولم يجد « زيوس» العظيم ـ فرارا من حقد زوجته ، ومقتا لها ـ بدا من أن يحاول الهرب منها بين الحين والحين وفى كل مرة كان يعيش سرا مع حب جديد . وعندئذ لم يكن يهتم بأن تكون زوجته الجديدة من بين ربات السماء ، أو من بين نساء البشر.

وكانت « لاتـونا» واحدة من زوجات زيـوس العظيم ، وواحدة من الربـات اللاتى صبت عليهن « هيرا» جـام غضبها وحقدها ، بعد أن رأت فى جوفهـا جنينا خشيت أن يجتذب قلب أبيه العاشق إلى أمه ، فيجلسها معه على العرش بدلا منها .

وأخذت « هيرا» ، مندفعة بحقدها الـرهيب ، تثير غضب « زيوس» على « لاتونا» . ووقع رب الأرباب فى الشرك ، فطرد « لاتونـا» من فوق أولمب ، وأرسلها إلى الأرض شقية معذبة .

ومـع ذلك فقـد ظلـت لعنة « هيرا» تـلاحقها وهـى حـائرة على الأرض . وحاولـت المسكينة عبثا أن تجد مكـانا تختفى فيه من لعنة « هيرا» . ولما عجـزت عن الحصول على المخبأ الأمين . . ألقت بنفسها فى البحر.

وكان « بوسيدون» إله البحر يتبع بنظراته الزوجة الحزينة التائهة ، وأبت عليه الشفقة أن يدعها تغرق فى الماء ، فاستقبلها فى جزيرته « ديلوس» ، التى صنعها ليرفع منها أمواج البحر بضربات رمحه ذى الشعبتين . . .

وهناك ـ فى هـذه الجزيرة السحرية ـ وضعـت «لاتونا» أجمل توءمين مـن أبناء زيوس العظيم : ديانا ، وأبوللو!

ومع ذلك ، فقد ظلت «هيرا» تلاحق «لاتـونا» بحقدها ولعنتها . . . فى حين كانت الأم مشغولة بتربيـة ولديها ، اللذين وهبـا جمالا رائعا وذكاء نادرا أثـارا عليهما حقد أهل الجزيرة .

وراحت « هيرا» تملأ صدور النساء حقدا على لاتونا ، حتى أثارت عليها إحدى ملكات الجزيرة ، فاحتكت بالأم المسكينة . . . وكان نقاش وصدام ، ثم وجدت «لاتونا» نفسها ، وقد حكم عليها أن تعود مرة أخرى طريدة ، شقية هائمة .

غير أن « لاتونا» ــ قبل أن تمضى ـ ثارت على المعاملة السيئة التى لقيتها ، ومست الإهانة كبرياءها ، فسلحت « أبوللو» بالدروع ، وأعطت « ديانا» حرابا مسنونة ، وأمرتهما أن يقتلا أبناء الملكة فراحا يضربان بكل مافى شبابهما من قوة وغضب حتى قضيا على الجميع .

وعادت « لاتونا» تبكى من جديد . ومست دموعها قلب زيوس الذى كان لايزال يحمل لها فى أعماقه بقايا غرام . . . فعطف عليها ، ولم يجد وسيلة لإنقاذها من غضبة هيرا إلا أن يحيلها تمثالا رائعا من رخام . . ناصع الجمال!

وشب « أبوللو» و«ديانا» ، فكانا موضع إعجاب فى السماء والأرض ، وخفق قلب زيوس لولديه ، فأرسل يستدعيهما ليصبحا من الآلهة . . . وقدمت لهما «هينى» شراب الخلود ، لينقطع كل مايربطهما بالأرض . وأمر زيوس ابنته الصغيرة بأن تكون ربة للصيد ، فى حين جعل ابنه ربا للشمس ، وقائدا لمركبتها الذهبية الرائعة فى رحلتها كل يوم بين الشرق والغرب .

***

ولما كانت الآلهة تحب . . فقد أحب « أبوللو» فتاة من البشر تدعى « كليمينى» وتزوجها . وأنجب منها أولاده : « فايتون» ، و«كرونيس» ، و«أيسكلوبيس» .

وشب أبناء أبوللو، كما شب أبوهم من قبل ، بارعين فى كل ميدان نزلوا فيه . وبرع من بينهم «أيسكلوبيس» فى دراسة خواص النباتات والمعادن ، واستخلص منها أدوية تشفى جميع الأمراض . . . وأعلن « أيسكلوبيس» عن اكتشاف دواء يعيد الحياة إلى الموتى !

ووفد الناس أفواجا على « أيسكلوبيس» يطلبون منه أن يرد الحياة إلى موتاهم ، ويشفى مرضاهم . وهنا ثار « زيوس» . . . فما كان يعجبه أن يتحدى حفيده رغبات آلهة أولمب . وما كان يرضيه أن يترك الناس تقديم القرابين إلى محاولة استرضاء الفتى الطيب . . فأرسل صواعقه المدمرة ، فقضت على « أيسكلوبيس» بن « أبوللو» ، وأحرقت أدوات طبه ومكتشفاته .

وحزن « أبوللو» لما أصاب ولده، ولم يعرف كيف ينتقم لابنه القتيل من قاتله. وكان كل مايمكنه أن يفعل هو أن ينزل غضبه بصانعى الصواعق التى يستخدمها زيوس . . . فانطلق إلى براكين ليمنوس، وانحدر من فوهتها إلى حيث يعمل السيكلوب، وأهلكهم جميعا.

وانطفأت نيران البراكين، وانقطعت أصوات المطارق الهائلة . . . وانتبه «فولكانوس»، الإله الحداد، إلى السكون الغريب، فانطلق إلى مكان صناعه المهرة، فوجدهم جثثا هامدة على الأرض.

وانفجر « فولكانوس» غاضبا، وانطلق يحجل بساقه العرجاء صاعدا إلى السماء، حيث شكا لزيوس ماصنعه ولده أبوللو بعمالقته الحدادين، وقدم له السهام التى استخدمها فى القضاء عليهم.

وتأجج الغضب فى صدر زيوس، وارتعد جبل أولمب مع زفرات رب الأرباب وهو ينطق بحكمه الرهيب بنفى أبوللو إلى الأرض، ليرعى الأغنام تحت إمرة واحد من البشر.

وهبط « أبوللو » إلى أرض البشر. وعمل راعيا للأغنام عند أدمينوس ملك تساليا. وسرعان ما أدرك الملك أن الراعى الجديد من نوع لم ير مثله من قبل. فقد سحرت الأنغام السماوية التى تصدر من ناى « أبوللو» سكان المملكة جميعهم. وكانوا يتجمعون حول الراعى الغريب، وهو جالس على شاطئ نهر أمفريسوس، ليستمعوا إلى شدوه الساحر فى نشوة تبلغ حد الذهول . . . وكم حاول زملاؤه الرعاة أن يتعلموا منه هذا النغم الرائع فاستعصى عليهم الأمر، واكتفوا بالالتفاف حوله أينما ذهب ليتمتعوا بألحانه السماوية على الدوام . . لقد تحول أبوللو من قائد مركبة الشمس إلى رب الشعر والفن والموسيقى!

وأحب الملك راعى الغنم الجديد، وازداد له حبا عندما مكنه بموسيقاه من قلب «الكستيس» ابنة الملك « بيلاس» الذى قرر ألا يزوج ابنته الأميرة إلا لمن يحضر إلى قصره فى مركبة تجرها السباع.

لقد انطلق « أبوللو» يعزف على أوتار قيثاره السماوى، فهرعت إليه السباع من كل صوب، نشوانة باللحن السحرى . . وأسلست له قيادها، وامتثلت لأمره أليفة مستكينة، وهو يربطها إلى المركبة المذهبة التى انطلق بها الملك « أدمينوس» إلى قصر الملك بيلاس . . . !

ءآن لأبوللو أن يستريح . . فقد بلغ من تعلق الملك « أدمينوس» به أن اتخذه صفيا ولم يعد يرهقه بالعمل فى رعى أغنامه. وسارت به الحياة رخية ناعمة إلى أن مات ك . . . فلم يطق « أبوللو» البقاء فى المملكة بعد وفاته، وهام رب الموسيقى على به لايستقر فى مكان.

وفى ذلك الوقت كان « بوسيدون» قد طرد هو أيضا من السماء وكلف ببناء أسوار إدة . ولم يكن ذلك بالعمل السهل. وناء بوسيدون بحمله، وأوشك على الهلاك.

ثم التقى « أبوللو» ببوسيدون، وأشفق عليه، وقرر أن يساعده. . فأخرج نايه من بته، وانطلق يشدو بألحان تحركت لها الصخور ، واهتزت لها طربا، وصارت تقفز حيث يومئ لها أبوللو بمؤخرة نايه. . . واستمر فى العزف حتى تراصت الصخور فى ت، واستقرت مكونة سور طرواده العظيم!

* * *

ومضى « أبوللو» على ظهر الأرض يؤدى للبشر خدمات عظيمة لم يكونوا ليبلغوها ردهم. . . وبالرغم من ذلك، فإنه لم يكن موفقا فى صداقاته!

كان يلعب ذات يوم مع صديقه « هياكنتوس» ، ويتسليان بقذف القرص ومر بهما روس»، رب الريح الغربى، فلم يرقه لعب الصديقين، وامتلأ قلبه الحقود حسدا رة للمرح البادى عليهما، فقرر فى الحال أن يضع حدا له.

وانتظر « زفيروس» حتى قذف أبوللو القرص، فأرسل ريحا عاتية من الغرب غيرت ه سير القرص، وإذا به يصدم رأس « هياكنتوس» صدمة قوية قضت عليه عته. . . وصرخ أبوللو فى ألم وذهول، وألقى بنفسه على جسد حبيبه الميت يبكيه فى ـة وأسى. وأفاق من غمرة حزنه، وواري جثة صديقه التراب. . ثم تناول بعض هار البرية وغمسها فى بقايا دمه الأرجوانى، ثم غرسها فوق مثوى الصديق. . . ءرعت الزهور الجميلة، وسميت منذ ذلك اليوم « زهرة الهيكانتوس» .

ولم يكن هذا آخر حادث يصيب صديقا من أصدقاء « أبوللو». فقد حدث فى يوم ـ أن أخطأ « كيبارسوس» ـ وهو من أصدقاء أبوللو المقربين ـ ورمى غزالا جميلا يعتز ب الموسيقى فأرداه . . . وحزن أبوللو لفقد غزاله، فتألم « كيبارسوس» لأنه كان بب فى حزن صديقه، ولم يحتمل تأنيب ضميره، فقتل نفسه! وصرخ أبوللو ثانية . ولكنه لم يكن يملك أكثر من أن يحول جسد صديقه الميت إلى شجرة سرو. اعتاد

الناس من بعده أن يغرسوها فى المقابر رمزا للحزن والأسى على فقد أعزائهم .

* * *

حتى فى الحب . . . كان « أبوللو» شقيا . فحين كان يرعى الغنم على سفوح جبل أوسرا . . التقى بحورية حسناء اسمها « دافنى » - إحدى بنات رب النهر بنيوس - فأحس نحوها بميل شديد ، سرعان ما تحول إلى وجد مشبوب غمر حواسه كالفيضان . . . وكثيرا ما حاول « أبوللو» أن يجتذب إليه نظر حوريته الحسناء ، وأن يستميل قلبها إليه ، ولكن جهوده ذهبت كلها أدراج الرياح . . حتى أنغام قيثاره السحرى ما كانت لتؤثر فى « دافنى» فقد كانت دائما تفر من طريقه ، وتهرب من أى مكان يكون فيه .

وقرر « أبوللو» أن يلجأ إلى القوة ليجبر فتاته على التحدث إليه . وذات صباح انتظر عند منحنى على سفح الجبل ، ولم يكد يراها تمر حتى وقف فى طريقها ، وتدفقت من فمه عبارات الحب تفضح هواه المكبوت ، وتنبئ عن نار الشوق المستعرة فى صدره . وكاد قلب الفتاة يرق للواعج غرامه . . . إلا أن ذهول المفاجأة زال أثره سريعا ، وتمالكت نفسها ، وفرت فى رشاقة الظبى الشارد من طريقه .

واندفع « أبوللو» وراءها كالريح . . . فما عاد يتمالك وعيه ، بعد أن طغى الحب على وجدانه ، وأعمى بصره وبصيرته عن كل شىء ماعدا جمال حوريته . . . وتمكن من اللحاق بها . ولم يكد يمد يده إليها حتى صرخت مستغيثة بأبيها :

- النجدة يا أبى . . . أدركنى . . . أنقذنى .

وأسرع إليها رب النهر، ولكنه عجز عن اللحاق بها لبعدها عن شاطئه .

وعادت الفتاة إلى صراخها الموجع :

- حولنى يا أبت إلى أى صورة أخرى ، أو اجعلنى أغوص فى الأرض قبل أن تمسنى يداه!

مد « أبوللو» يده ، وقبضت أصابعه على شىء حسبه فى نشوته الغامرة ذراع الفتاة ، وتحسسه فى لذة . . . فإذا أصابعه تكاد تتهرأ . وفتح عينيه فإذا أمامه شجرة غار يانعة الفروع ، وإذا بيديه تقبضان على فرع منها . أما الحبيبة فلم يعد لها أثرا!

وانطلق « أبوللو» والأسف يغمر نفسه ، لأنه كان السبب فى أن صارت الفتاة الممتلئة حيوية شجرة جامدة صماء . ومد يده فجمع بعض أغصان الشجرة الخضراء ، وصنع

منها تاجا وضعه على جبينه ليكون ذكرى دائمة لفاتنته . . ومضى فى الطريق يعزف على قيثاره لحنا حزينا مؤثرا . . .

* * *

كل ذلك كان يحدث على الأرض ، فى حين كانت عربة الشمس تجرى وحدها بين الشرق والغرب ، بلا قائد ينظم سيرها ويقودها خلال منعرجات السماء .

وبالرغم من أن « زيوس» كان يوجه من عليائه جياد المركبة الذهبية بنفسه ، إلا أن سيرها اختل ، وبدت الجيادحائرة مضطربة . . . حتى الساعات الأثنتى عشرة التى تحيط بالمركبة ، وتدور حولها خلال رحلتها الأبدية ، اختل نظامها فما عادت تحس رقيبا أو حسيبا .

وأحس الآلهة جميعا بقيمة « أبوللو» وبراعته فى قيادة المركبة . . فانطلقوا إلى « زيوس» يكررون الرجاء ، ويلحون فى طلب العفو عن رب الشمس وإعادته إلى مكانه السماوى .

ولم تكن « هيرا» جالسة إلى جوار « زيوس» فى ذلك الوقت ، فأصدر أمره بالعفو عن ولده وإعادته إلى مكانه بين الخالدين . . قائدا لمركبة الشمس الحائرة ، ليعود إليها النظام الذى افتقدته طويلا .

وترك « أبوللو» قيثاره ونايه ، وصعد إلى السماء ليقيم فى قصر تيميش ، ولينطلق مع الفجر حين تفتح « أورورا» أبواب الشرق ، فيخترق بمركبته الفضاء ، ويظل سائرا فى طريقه المرسوم حتى يصل إلى الغرب حيث يستريح مع جياده الأربعة فى انتظار اليوم الجديد .

فى ذلك الوقت كان « فايتون» بن أبوللو يعيش مع أمه « كليمينى » فى أرض البشر . وبالرغم من أن الفتى الصغير كان عفيفا طيب الخلق . . . إلا أنه كان دائما يفاخر لداته بأنه من نسل الآلهة ، وأن أباه « أبوللو» رب الشمس ، وجده « زيوس» رب الأرباب .

ولم يكن أصحابه يصدقون دعواه قط . . بل طالما سخروا منه وهزءوا . فكان «فايتون» ينطلق إلى أمه صارخا باكيا ، طالبا منها البرهان على أنه ابن رب الشمس حقا . وكانت أمه تقسم له على صدق ماتقول ، فيصرخ فيها دائما : أين الدليل؟

وضاق صدر الفتى ذرعا ، ولم يعد يحتمل سخرية أصحابه . . . وعندما وقف أمام أمه كعادته يطالبها بالدليل على بنوته لرب الشمس ، صاحت قائلة :

ـ فايتون . . . إذا كان الشك يعذبك إلى هذا الحد ، فإن الجبل الذى تشرق منه الشمس غير بعيد . . . اذهب إليه بنفسك ، واسأل رب الشمس : أأنت ولده حقا ، أم إننى أغرر بك .

وارتاح الصغير لهذا الرأى ، وفرح فرحا شديدا ، ونهض من فوره ومضى فى طريقه إلى جبل المشرق . . فبلغه بعد عناء وجهد ، وصعد إلى القمة ، وقد أنهكه الإعياء والتعب ، وارتمى فوق صخوره ريثما يسترد أنفاسه المتقطعة .

وكان فجر جديد قد بزغ . . . وتفتحت عينا الفتى على ضياء بهره وأخذ بلبه ، وفغر فاه من روعة المنظر الذى بدا لناظريه : قصر الشمس . . . يتلألأ فى فيض من أشعتها الذهبية ، وقد انتصب القصر على عمد من ذهب يغطيه سقف من عاج ، وأبوابه من فضة خالصة .

ووقف الفتى مبهور الأنفاس ، ثم خطا إلى الأمام فى وجل ، ودلف من الباب الكبير إلى القاعة الكبرى للقصر . وهناك رأى « فايتون» منظرا عجبا . . . لقد كان « أبوللو» جالسا فى رداء أرجوانى زاه ، على عرش من الماس يخطف بريقه الأبصار، تغمره هالة من النور الساطع المتألق ، وحوله الساعات والأيام والأعوام فى صفوف منتظمة رائعة .

ولمح «أبوللو» ولده «فايتون» واقفا فى خشية ، وقد بهره الضوء ، فناداه فى وداعة ورفق :

ـ أى بنى . . . ما جاء بك هذه الساعة؟ اقترب ولاتخف .

وتقدم الفتى فى بطء ، تحدو خطواته الرهبة ، ويملأ نفسه الإعجاب . . . وقال :

ـ أبتاه . . . يانور كل نور إن صحبى يهزءون بى كلما أنبأتهم أننى ابن رب الشمس ، ولم أعد أحتمل إهاناتهم لى . ولقد جئتك ولى رجاء عندك : إن كنت ابنك حقا . . . فأعطنى الدليل!

ونهض « أبوللو» عن عرشه المهيب ، وأزاح عن نفسه هالة النور ، وأمسك بيد ولده ، واجتذبه إلى صدره ، وقبله فى حنان ، ثم خاطبه قائلا :

ـ بنى . . لك أن تطمئن إلى نسبك الرفيع . وإنى لأقسم لك بسيكس ، ربة العز والقوة ، أن أجيبك إلى ماتطلب كى تخرس ألسنة الهازئين بك ، وترفع رأسك تيها على كل أبناء البشر. . . سل يابنى ماتريد ، ولن أرفض لك طلبا .

وغمرت الصغير نوبة من الفرح الجارف ، وهتف بأبيه فى جذل :

ـ أحقا يا أبتاه؟ إذن فأقصى أملى أن تسمح لى بأن أقود مركبة الشمس بدلا منك يوما واحدا لن أزيد عليه!

وفوجئ « أبوللو» بطلب صغيره، واضطرب ميزانه . . . فقد أدرك أنه تسرع بالقسم العظيم الذى لاحنث فيه . وراح يحاول أن يثنى ولده عن هذه الأمنية الغريبة، ويعده أن ينفذ له أى مطلب عداه مهما يبلغ من العظم أو الغرابة . . إلا أن ابن « أبوللو» أبى إلا هذا المطلب، وصمم عليه وهو موقن أنه مجاب، فما كان لأبيه أن يحنث فى قسمه . وعاود « أبوللو» محاولته قائلا:

ـ إن فى إجابة طلبك خطرا عظيما يهددك . . . فإنك معدود من البشر، إلى جانب حداثة سنك . وهذان السببان لايسمحان لك بقيادة مركبة الشمس .

فهز الفتى رأسه . . . واستأنف أبوه قائلا:

ـ أى بنى . . إنه لايمكن لمخلوق مهما تكن قوته أن يسيطر على مركبة الشمس . . . فإن الطريق شديد الانحدار لاتصعده الخيل إلا بجهد يقصر عنه الوصف، كما أن نهاية الطريق لشدة وعورتها تكاد تسقط فيها المركبة منى أنا نفسى رغم حيطتى وتحكمى فى قيادتها . . . ناهيك بالوحوش الكاسرة والمهاوى السحيقة التى تعترض المركبة فى كل رحلة . والجياد يابنى جامحة تنفث من صدورها الحمم . وإنى أنصحك أن تعدل عن هذا المطلب الخطير، لأنك إن أبيت، فمعنى إبائك الهلاك لك وللعالم بسببك .

ولكن الفتى تشبث بطلبه، ولم يتزحزح قيد أنملة عما عقد عليه العزم . فما كان لأبيه ـ وقد تورط فى قسمه العظيم ـ إلا أن يذعن، فقاد ابنه من يده إلى حيث وقفت المركبة الذهبية المرصعة بالزبرجد والياقوت والألماس، وقد شدت إليها الخيول الأربعة، وأخذت تضرب بحوافرها الأجواء فى تحفز واضطراب، وتزفر الحمم من أنوفها استعدادا لرحلة اليوم .

ولم تمض لحظات حتى فتحت « أورورا» أبواب الشرق القرمزية . . وعندئذ أمر «أبوللو» ولده بأن يثبت نفسه فى مكانه من المركبة، ثم مسح وجهه بالدواء الواقى من الحرارة والوهج، ووضع على رأسه هالة الأشعة وهو يقول: « مازالت أمامك الفرصة ياولدى لتعدل عن رأيك فالأمر جد خطير» .

وكانت إجابة الفتى صرخة حمقاء أطلقها فى آذان الخيل وهو يهز أعنتها فى قوة، فانطلقت المركبة كالسهم المارق فى طريقها المرسوم .

وسارت الجياد، كما اعتادت أن تسير كل يوم، دون أن تحس أن فى الأمر أى تغيير. . . فقد كانت بداية الطريق مرحلة هينة لاتحتاج إلى حزم القائد وإرشاده . ولكن ما إن بدأت وعورة الطريق، وتلمست الخيل حكمة القائد حتى انقلب الحال إلى غير ما كان عليه. فقد أحست الجياد بخفة المركبة وعدم اتزان الزمام. . . وبدلا من أن يعمد الفتى إلى التقليل من سرعة الخيل، ترك لها العنان فاندفعت فى انطلاق مجنون لا حاكم له ولا رابط، وفقدت المركبة اتزانها فمضت تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، تندفع إلى أعلى، وفجأة تسقط إلى أسفل. وتأزم الموقف، وأفلت الزمام تماما من يدى «فايتون»، وامتلأ قلبه رهبة، وخانته شجاعته، فاكتفى بأن أحكم قبضته على سياج المركبة. . ولم يلبث أن راح فى غيبوبة من شدة الرعب وهول الفزع.

ومضت الجياد فى انطلاقها الجامح . . . وكلما أحست باضطراب المركبة خلفها، اندفعت فى سرعتها المجنونة. وبين ارتفاع المركبة وانخفاضها، وتمايلها يمينا وشمالا. . . كانت تصطدم بالجبال فتشتعل قممها نارا وهاجة، وتزلزل الهواء فجفت مياه السحب، وتهاوت النجوم شواظا محترقة، وهلك الزرع، واستحالت الأرض صحارى قفراء جرداء، وغاضت مياه البحار والأنهار، وتعالت فى الجو صرخات الاستغاثة يطلقها الإنسان والنبات والحيوان!

وامتلأ قلب ربة الأرض رعبا، فانطلقت على عجل إلى « زيوس» رب الأرباب تستحلفه وتتضرع إليه أن يرفع عنها هذا البلاء. وفزع « زيوس» وهو يرى من عليائه ذلك الفتى الأحمق يجرى بالمركبة على غير هدى فى فضاء اللانهاية. وخشى رب الأرباب أن يدمر طيش هذا المخلوق الصغير الكون، فدعا إليه الآلهة كلها، فهرعوا إليه ومن بينهم « أبوللو» رب الشمس الذى تخلى عن واجبه، وأخذوا جميعا يفكرون فى وسيلة لإنقاذ الكون.

وعجز الجميع عن التفكير، ولم يجد « زيوس» بدا من أن يطلق أحد سهامه الصاعقة نحو الطائش الصغير الذى تثير صرخاته ثائرة الخيل فتندفع فى انطلاقها.

واستقر سهم « زيوس» فى صدر « فايتون» ، فسقط صريعا على أرض المركبة، ولم يلبث أن سقط منها فى الفضاء إلى نهر بادوس.

أما « أبوللو» فما كان فى وسعه إلا الحزن على ولده، ثم انتظار وصول المركبة إلى قصر تيميش بعد أن تهدأ ثائرة الجياد. . ثم ليبدأ مع اليوم الجديد رحلته الجبارة الخالدة!

ومضت الحياة تسير . . .

أسطورة إغريقية

هـــرقـــل

لم تكن الربة « هيرا » زوجة رب الأرباب « زيوس »، على شيء من طيبة القلب وحسن الخلق. بل كانت عنيدة حقودا سيئة الطباع ، فأشقت زوجها حتى لم يعد يطيق الحياة على عرشه فى السماء وهى إلى جواره، ووجد لذة فى أن يهبط إلى الأرض بين الحين والحين ، فرارا من حقد زوجته ، حيث يتخذ صورة مخلوق بشرى ويتجول فى الأرض باحثا عن مغامرات غرامية .

وقابل فى إحدى مغامراته « الكمينى » إحدى بنات البشر فتزوجها . . . وكان هذا الزواج أحد أسباب الصراع الضخم بينه وبين « هيرا » زوجته التى تشاركه عرش أولمب .

لم تكره الربة « هيرا » أحدا كما كرهت ذلك المولود الذى أنجبته « الكمينى » من الإله « زيوس » العظيم . فلم تكد عينا هرقل الصغير تتفتحان على الحياة ، حتى انطلقت «هيرا» إلى ربات الحظ ، تطلب منهن أن يقطعن خيط حياته . .

وكانت الربة « هيرا» ـ أقرب زوجات زيوس إليه وأقواهن ـ تعلم أنها ستنتصر . فقد كانت عزيزة على الربات الثلاث : « كلوتو» ناسجة خيط الحياة ، و« لاخسيس» مقسمة الحظوظ ، و«أنروبوس» الموكلة بقطع الخيوط التى تنسجها « كلوتو» .

إلا أن « زيوس» العظيم كان يملك ـ متى أراد ـ أن ينقض حكم كل الربات ، فعجزن عن القضاء على الوليد الذى كان مقدرا له أن يعيش ، وأن يجتاز كل المخاطر والأهوال . ولم يكن أمام الربات بعد ذلك لإرضاء صاحبتهن ، إلا أن يجعلن حياته كلها مشقة ونصبا وإجهادا !

وبدأت متاعب « هرقل» وهو لايزال فى المهد . فبينما هو راقد ذات يوم ، أطلقت عليه الربة « هيرا» أفعوانين هائلين ليفتكا به ، وانقض الوحشان على الطفل ، والتفا حول جسده ، وكادا ينفثان سمومهما . . إلا أن الصغير الذى وهب قوة لم توهب إلا للآلهة ، أطبق على عنقيهما بقبضتين جبارتين ، وأخذ يضغط عليهما فى قوة وعنف حتى احتبست أنفاسهما ، وهمدت الحياة فيهما .

وبهت كل من فى الدار وهم يرون الصغير يضحك وفى يديه أفعوانان لم ير مثل ضخامتهما أحد قط. ومنذ هذا الحادث آمنت « الكمينى» أم هرقل بأنه سيكون لابنها هذا شأن عظيم، وقررت من فورها أن تعده لحياة البطولة الخالدة التى كان قد قدرها له رب الأرباب.

ومرت السنون . . . والصبى يتنقل بين أيدى معلمين يدربونه على القتال والصراع، وإصابة الأهداف، وقيادة العربات، ويلقنونه الغناء والإنشاد والعزف على القيثار. . . إلى أن برع فى ذلك كله، وملأ صيته الآفاق، وبذ فتيان عصره من الأمراء والنبلاء، وأبناء الآلهة جميعا!

وذات يوم أخطأ الفتى وهو يتلقى دروس الغناء على أستاذه « لينوس». وأراد المعلم أن ينزل عقابه بالفتى المخطئ. . . ولم يكد يمد إليه يده، حتى دفعه الفتى بيده دفعة جبارة ألقت به إلى الأرض جثة هامدة!

ولم يكن بد من أن يعاقب البطل الصغير على جريمته، فصدر الحكم بنفيه فى الجبال، حيث اضطر أن يمارس فنون المصارعة والقتال مع الوحوش، فازداد بذلك دربة وقوة، كما ازداد شهرة حين صرع بيديه أسدًا كان يثير الرعب فى قلوب أهل «طيبة».

والتقى البطل الصغير، فى منفاه، بامرأتين: « كاكيا» الآثمة، و«اريث» الفاضلة، وعرضت عليه كل من المرأتين أن تكون رفيقته ومرشدته، وأغرته أولاهما بأن تمنحه الثراء والسلطان، ووعدته الثانية بأن تهبه القدرة على الكفاح والنضال. ونجحت تعاليم أستاذه « ردامنتوس» فوافق الثانية، فكانت قصة الكفاح الخالد الطويل.

فى ذلك الوقت كان « أمفتريون» حاكم « طيبة» فى صراع دائم مع « أوركمنيوس». وأبلى هرقل إلى جانب « أمفتريون» بلاء رائعا فى ذلك الصراع، فرأى الحاكم أن يكافئه على بلائه الرائع بتزويجه من ابنته الأميرة « فيجارا».

وعرف هرقل منذ ذلك اليوم، سنوات طويلة، معنى السعادة بجوار أخلص زوجة وأعز أبناء. ولكم تمنى أن تدوم هذه السنوات ولا تنتهى أبدا. . . إلا أن «هيرا» الحانقة كانت لاتزال تلاحقه، فتسللت مسرعة من قمة الأولمب إلى حيث مضجع هرقل، ولمست جبهة البطل، وهو نائم، بأطراف أناملها، فإذا به يصاب بلوثة جعلته يتوهم أن كل من يحيطون به أعداء يضمرون له الشر، وإذا به يندفع دون وعى إلى غير هدف. . . يطوح بيديه يمينا وشمالا، ويردد صرخات مجنونة تثير الذعر فى كل من يصادفه. والويل

لمن شاء لـه سوء حظـه أن يعترض طريقـه! حتى لقد هـب ذات يوم مـن نومـه فى ثورة مجنونة، وانقض على أبنائه ففتك بهم جميعا . . .

وازدادت لوثة « هرقل» حتى كاد يقتل « أمفتريون» نفسه، وأطلت عليه الربة «أثينا» من عليائهـا ـ وقد أحزنها جنـونه، ومس شغاف قلبهـا ـ فهبطت إليه، وضربت رأسه بحجرها المقدس الكريم، فأذهبت عنه لوثته.

وأفاق الفتى، وقد عاد إليه عقله، واستعادت ذاكرته كل ما اقترفه من آثام، فاستبد به حزن عميق، ولم يعـد يطيق الحياة بين قوم شهدوا محنته ولحقتهم لـوثته، فلم يجد بدا مـن أن ينفى نفسـه بعيـدا عن العـالم. وهام على وجهـه شريـدا، وظل يجوب الآفـاق شهورا . . حتى انتهى إلى معبد « دلفى»، فاجتاز أبوابه، وجثا على ركبتيه أمام المحراب يبكى ويتضرع للآلهة أن تهديه إلى مايكفر به عن إثمه الكبير . . !

وأسرعـت « هيرا» إلى جـوار « زيـوس» فى محرابه على قمـة الأولمب وهـو يستمـع إلى تـوسلات «هـرقل» . . وحين لمسـت منه انعطـافـا إلى العفو عنـه، لجأت إلى وسائلهـا الملتوية، حتى اضطـرته إلى الحكم على الفتى بأن يخضع لسلطـان «يوريسيثوس» ملك أرجوس، وأن يمتثل لكل مايكلفه من أعمال .

وشهد بقية آلهة الأولمب ماكان، وعرفوا مدى الصعاب والمشاق التى سيلقاها الفتى من تنفيذ العقـوبة . . . فأسرع كل منهـم يمد يد المعونـة للبطل الفتى : فمنحته الـربة «أثينا» خوذة لرأسه، ووهبه « هرمز» سيفا حادا، وأعطاه « أبوللو» سهما وقوسا، وأهداه « بوسيـدون» جوادا، وسلمه « هيفايستـوس» حذاء من نحاس . . . حتـى « زيوس»، رب الأرباب نفسه، قدم له درعا قوية رائعة .

كانت نفس « يـوريسيثوس» مملوءة حقدا وغيرة . . ولطالما أذله وأثـار كامن حقده، أن يكون أضعف قوة وأقل بطولة من ابن عمه « هرقل» الذى طبقت شهرته الآفاق فقرر أن يستغل حكم الآلهة لإرضاء غـروره، وإطفاء نار حقده بأن ينزل بـالبطل الذى وضع تحت سلطانه بالرغم منه، كل مـايستطيع من أذى وبطش. وملأت الربة « هيرا» رأسه أفكارا عجيبة عن اثنى عشر عملا من أشق الأعمال التى يمكن تصورها، وهى تعلم أن فشل هرقل فى أداء عمل واحد منها، قد يؤدى به إلى الهلاك . . وهو ما كانت تريد!

وجلس « يوريسيثوس» فـوق عرشه ، ومن حوله أضخم رجال حـرسه وأقواهم، فى انتظار وصول هرقل. وكان جل همه أن يسخـر بشجاعة البطل ويهزأ به أمام الجميع . .

إلا أنه لم يكد يرى هرقل ـ بقامته العملاقة الرهيبة، وجسده الذى تهتز من تحته الأرض ـ داخلا قاعة العرش، حتى ارتعش بدنه واضطرب، وتجمدت أطرافه، وأحس قلبه يكاد ينهار. . . وتلاحقت أنفاسه فى رعب، وهو يحاول كبح جماح نفسه. واتجه إليه «هرقل» وقال فى غير وجل:

ـ أيها الملك . . . إن «زيوس» ــ رب الأرباب، وسيد جميع البشر ــ جعلنى تحت إمرتك. وقد جئتك ملبيا أمره، ممتثلا لمشيئته، لأنجز كل ما تكلفنى من أعمال . . . فاطلب ماتريد، تجدنى رهن أمرك وطوع إشارتك.

وأجاب «يوريسيثوس» وهو يجهد أن يثبت صوته المرتعش:

ـ نعم يا ابن العم . . . إنك لتعلم أن إرادة «زيوس» هى إرادة الآلهة جميعا، وأن أوامره تسرى على الجميع، صغيرا وكبيرا، وغنيا وفقيرا. . . وإنى لذلك مضطر أن أكلفك مهام شاقة ينبغى أن تقوم بها. إلا أنى سأحاول أن تكون هذه المهام سبيلك إلى الصيت والشهرة والمجد. وأول ما أطلبه منك أن تقضى على أسد «نيميا» الذى يختبئ فى غابة أرجوس، والذى يقطع الطريق على الجميع، ويثير الرعب والفزع فى قلوب أهل البلاد!

وأحنى هرقل رأسه فى هدوء وثقة، ودار على عقبيه، واتخذ طريقه إلى غابة نيميا، لتنفيذ أوامر «يوريسيثوس».

اخترق هرقل منحنيات غابة نيميا، بحثا عن الأسد الذى أقض مضاجع أهل أرجوس. ولم يكن يشعر بشىء من الخوف أو الرهبة. . . فقد سبق أن قتل أسد «طيبة» بيديه فى غير مشقة أو جهد كبير. ومن أجل ذلك ضحك البطل ساخرا عندما دوى فى سمعه ذلك الزئير المروع، الذى هز الغابة، ونبهه إلى الجهة التى يكمن فيها الليث الكاسر. وكان الليث قد أحس اقتراب عدوه، فانتفض وكشر عن أنيابه، وأطلق زئيره الرهيب، كأنه أمواج صاخبة تلاطم الصخر الصلد فى بحر عربيد.

وثبت هرقل أمضى سهامه فى قوسه، وشد القوس بقوة، فانطلق السهم فى سرعة وعنف، ولكنه لم يصب الأسد فى جنبه، بل انزلق على جلده السميك بعد أن انكسر طرفه. وثار الأسد للعدوان المفاجئ، فالتفت إليه، وتوثب لهجوم هائل عنيف. وأسرع هرقل إلى سهم آخر أطلقه كبرق خاطف، غير أنه تهشم وسقط على الأرض، دون أن يصيب الأسد بأدنى ضرر. . . وفى لحظات كان الأسد الغاضب قد وثب عرضا،

واستعد للانقضـاض على عدوه الرهيب . وملأت نشـوة القتال قلب هرقـل ، فاستعد له . . . وقبل أن ينقض عليه الأسد ، كان هـو قد أسرع فأهوى على رأسه بهراوته الثقيلة ذات البروز. وترنح الأسد الضخم ، إلا أنه احتمل الضربة ، وإن جعله الإعياء يهرب فى تثاقل وبـطء إلى داخل الأحراش . . . وانقضت تلـك الليلة ، وكانت الجولـة الثانية فى الليلة التالية .

وفى هذه المرة ، انقض هـرقل فى قوة بهراوته على رأس الليث ، ولم يترنـح الأسد ، بل وثب فى دفـاع خاطف على عدوه . وتلقـاه هرقل بـذراعين مفتوحتين تزخران بـالعنفوان والقوة ، بعد أن ثبـت قدميه العريضتين فى الأرض ، وطوق عنق الأسـد فى عنف جبار ، وتخللت أظفاره لبد الأسد لتنشب فى عنقه . وحاول الأسد التخلص من القبضة الهائلة ، وأخـذ يدور بجسـده فى صخـب . . وحمى القتال الـرهيب ، ومـلأ الـزئير المزعج جـو الغابة . . إلا أن ذراعـى هرقل وأصابعه كـانت كحلقة من فـولاذ يشدد بها الضغط على عنق الليث ، حتى اختنـق . . فانهار فى النهاية ، وسقط على الأرض جثة هـامدة لاحراك فيها .

وحمل هرقل جثة الأسد ، بعد أن شـق جلده وارتداه ، وراح يخترق شوارع أرجوس فى طريقه إلى قصر الملك . والتـف الناس حول البطل يحيونه فى حـرارة ، ويصفقون له . ولم يهتم هـو بشىء مـن ذلك ، قـدر اهتمامه بـأنه أتـم أحد الأعمال التـى عليه أن ينجـزها ليوريسيثوس العنيد .

ودخل هـرقل قاعـة العرش ، حيث يجلـس الملك ، ورفع جثـة الأسد بيديـه ، وأخذ يؤرجحها بقوة ، ثم ألقى بها بين قدمى «يوريسيثوس» !

وروع الملك . . . وقبـل أن ينهض مسرعـا من القاعـة ، أصدر أوامـره بعدم السماح لهرقل قـط ، إذا عاد مـن إنجاز أى مهمة ، بـاجتياز أبواب المدينـة ، بل عليـه أن يقف خارج الأسوار ، ويقدم تقريرا بما قام به .

وهز هرقـل كتفيه بلا مبالاة ، ومضى منصرفـا ، وهزهما مرة أخرى فى سخريـة عندما أبلغ بالمهمة الثانية التى عليه أن يتمها . . . وكانت القضاء على «وحش ليرنا» .

* * *

وكان «وحـش ليرنا» أفعوانـا ضخما له مـائة رأس ، اتخذ من مستنقعات ليرنـا مأوى يعيش فيه ، لايغـادره إلا للبحث عن فريسة . ولم يتمكـن أحد قط فى بلاد اليـونان من

القضـاء على هذا الـوحش الـرهيـب ، الذى كـان كلما بتر لـه رأس برز مكـانه رأسـان جديدان . . وهكـذا كانت رؤوسه تزداد عقـب كل محاولة لقتله ، ويزداد معهـا الوحش ضراوة وعنفا .

وانطلق « هـرقل » إلى المستنقـع الرهيـب . . . ولم يكد يقترب منـه حتى أبصر رؤوس الوحش تتموج فى الهواء ، فاغره أفواهها ، وتنطلق من ألسنتها زفرات من نار . . . ووقف « هرقل » عند حافة المستنقع ، وأمسك بقوسه ، وأرسل منها فى لحظات سربا من السهام القاتلة ، أصاب كل منها أحد الرؤوس البارزة . فوجئ «هرقل» بالرؤوس يزداد عددها ، فما كان مـن وسيلة إلا أن يهاجم الأفعوان بهراوتـه ليسحق الرأس دون أن يبترها ، فـأخذ ينهال بضربات هـائلة عنيفة سريعة على الـرؤوس الرهيبة ، إلا أنه لم يحرز نجـاحا قط ، خاصـة حين لجأ الأفعوان إلى الاختفـاء فى مياه المستنقع . . ولم يجد «هـرقل» بـدا من أن يؤجل مهمته بضع ساعات .

وفكر « هـرقل » فى وسيلة يقضـى بها على الأفعوان . . . ولما اهتدى إليهـا انطلق إلى حـداد صنع لـه قضيبين من حـديد ، لكـل منهما طرف عـريض ، وأشعـل على حافـة المستنقع نارا قـوية ، ووضع طرفى القضيبين فيهـا حتى توهجا . . . وكـان قد طلب إلى تابعه أن يسرع خلفه بأحد القضيبين ، فكلما بتر رأسـا من رؤوس الأفعوان ، أسرع التابع فكوى مكان الرأس المبتور بالحديد المحمى قبل أن يظهر الرأسان الجديدان .

ودام القتال الرهيب يوما كاملا ، ولم تنبت للوحش فى هذه المرة رؤوس أخرى . . بل راحت الرؤوس تتناقص ، والقضيب المحمى لايـدع فرصة لخروج غيرها . . حتى سقط آخر رؤوس الأفعوان ، وغمر دمه سطح المستنقع كله . وأسرع هرقل ـ وهو يعلم أن ذلك الدم سم زعاف ــ فغمس أطراف بعض سهامه فيه ، لتصير مسمومـة لايبرأ من جرحها مخلوق !

* * *

وانتهت المهمة الثانية . . لتبدأ مهمة شاقة جـديدة ، فقد كان على «هرقل» أن يأتى بالغزال الأركادى المقدس حيا ، ويقدمه ليوريسيثوس . . . !

وكان غزال أركاديا المقدس ، ذو القرون الذهبية والحوافر النحاسية ، معبود أرتيميس ربة الصيد ، التى منحته سرعة فائقة ، فلا الخيل تلحقه ، ولا الريح تسبقه . . .

وتذكر هرقل الحذاء النحاسى، الذى كان «هيفايستوس» إله الكفاح قد منحه إياه، فلم يجد إلا هـذا الحذاء عونا لـه على السباق الـرهيب الذى كـان عليه أن يؤديه حتى يستطيع اللحاق بالغزال العجيب!

والحق أن السباق كان سباقا رهيبا عجيبا. . إنـه سباق بين حذاء نحاسى مقدس، وحوافر نحاسية مقدسة.

وفى هذا السبـاق الغريـب، كان النحـاس يحدث رنينا هـائلا فوق الحقـول وممرات الجبال، وظل الرنين يملأ أجواء الأرض، أياما وأسابيع وأشهرا . . . والغزال يمرق هاربا فى سرعـة عجيبة، وهـرقـل خلفه مطـاردا: يجتازان الجبـال والـوهاد، ويعبران البحـار والمحيطات . . حتى قاما بدورة كاملة حول العالم، وعادا ثانية إلى بلاد اليونان!

وكان الغزال قـد أصابه التعب، فأبطـأت حركته، وهدأت سرعته، وأخـذ «هرقل» يقترب منه رويدا رويدا . . . حتى بلغه. وحين هم بـالقبض عليه، أحس بالأرض تميد به، وسمـع من خلفه صراخا رهيبـا لم يكد يلتفت إليـه، حتى وجد الربـة «أرتيميس» وراءه، غاضبة مزمجرة تصرخ فيه:

ـــ أأنت الـذى تحاول خطف معبـودى؟! ألا تعلم أننـى لـو شئت لأرديتـك بأحـد سهامى؟

وخر «هرقل» ساجدا تحت قدمى الربة وتضرع إليها قائلا:

ـ أيتها الربة . . إننى لا أتبع غزالك مـن تلقاء نفسى، ولكنها مهمة أمرت بإنجازها إرضاء لـزيوس رب الأرباب. ولسـت أريد بـالغزال سوءا، وإنما على أن آخـذه حيا إلى «يوريسيثوس»، ومتى قدمته إليه انتهت مهمتى، فأعيده إليك فى سلام وأمان.

وانحنت الربة، وأخـذت تداعب عنق الغزال المجهد وتربـت عليه، ثم اتجهت إلى عينى «هـرقل» فـأبصرت فيهما الصدق، وتذكـرت أنها لم تقدم إليـه أى عون يـوم صدر الحكـم الغـاشـم ضـده، فقـررت أن تعينـه فتسمـح لـه بـأن يـأخـذ الغـزال إلى «يوريسيثوس» . . على أن يعيده إليها سالما بغير جراح . . . وقد كان.

وأتم هرقل مهمته كما أمر، ثم أثار الـرعب فى قلب الملك، حتى استسلم وتخلى عن الغزال بعـد أن كان قد صمـم على الاحتفاظ به. وعـاد الغزال الأركادى المقـدس حرا، يجرى، ويلعب . . . ولا يستطيع أحد قط الاقتراب منه!

ثم كانت المهمة الرابعة أمام «هرقل» أن يأتى للملك، بخنزير «أريمانثوس» . . حيا!

وكان الخنزير الضخم يعيش بالقرب من جبل «أريمانثوس» بأركاديا ، مثيرا الرعب فى قلوب الأهالى الـذين هجروا أراضيهم ، وتـركوه يعيث فيها تخريبـا وإفسادا دون أن يجرؤ واحد منهم على التعرض له خوفا من بطشه الرهيب .

وكأنما أدرك «يوريسيثوس» أن فى مقدور هرقـل أن يقتل هذا الوحش الهائل . . ومن أجل ذلك لم يترك له الفرصة للقضاء عليه ، فكان أمره بأن يحضره إليه حيا ، حتى يكلف هرقل من المشقة والنصب ماقد يؤدى به إلى التهلكة!

وانطلق هرقل إلى حيث يكمن الخنزير الوحشى ، ومعه كلاب صيد كثيرة يستعين بها على مطاردته ليجهده ، ويتمكن من القبض عليه حيا . . . وأحس الخنزير بكثرة أعدائه من الكلاب ، فخرج من مكمنه ، وأخذ يصعد سفح الجبل . . . والكلاب من ورائه ، وهرقـل فى أثرها ، يتتبع آثـار أقدام الخنزيـر . وكلما استمر الخنزير فى صعـوده ، اختفت آثاره بسبب الجليـد المتساقط على أعالى الجبل . . . الـذى كان عائقا لهرقل وكـلابه عن التقدم السريع .

ومضت الأيام والأسابيع ، والخنزير! لايزال مندفعـا فى جريه صاعدا ، وهرقل وكلابه يتبعونه ، والتعب قد أدركهم جميعا ، وكادوا يسقطون صرعى الإجهاد والإعياء .

واضطر « هرقل» آخر الأمر إلى التوقف ، وأخذ يفكر فى وسيلة يصل بها إلى غايته . . واقتنع ، وهـو يدبر الأمـر ، أن من العبث الاقتراب مـن الخنزيـر ومصارعته بيـديه ، لما لهجماته مـن عنف وضراوة ، وما لأنيـابه من حدة وقـوة . . كما أن من العبث متـابعته ، ومحاولة إمساكـه على أرض صلبة ، يستطيع أن يصول فيهـا ويجول . وأدرك «هرقل» أن سبيله الوحيد هو أن يدفع بالخنزيـر إلى أماكن جليدية ، ذات مغارات عميقة يمكن أن يقع فيها ، ويكـون من السهل بعد ذلك الإمساك بـه حيا . . ودبر هرقل الأمـر ، فأطلق كلابه خلف الخنزير بحيث تضيق عليه وتدفعه إلى الممرات العليا من الجبل . . واستمر الصيد والصائد فى مطاردة عنيفة خمس ساعات ، أجهدت الخنزير وبلغ به التعب حدًا بعيدا ، فلم ينتبه إلى مغارة جليدية عميقة كانت تمتد هناك ، فانكفأ على وجهه ، وسقط فى الهوه صارخا صرخة هائلة .

وكانـت هذه هـى الفرصـة التى انتظـرها هرقـل طويـلا ، فانـدفع إلى حيـث سقط الخنزير ، وألقـى عليه شباكه ، وحمل البطل صيـده الرهيب ، وسار فى طريقـه حتى بلغ أبواب القصر . . .

وكان حـارس الباب ، حين وصـل « هرقـل» ، يغط فى نـوم عميق ، فتسلـل البطل

بحمله إلى الـداخل، وولـج باب قصر الملـك، ثم واصـل سيره حتى دخـل إلى قاعـة العرش حيث يجلس «يوريسيثوس»، وكان قد ضاق ذرعا بحمله الثقيل، فألقى به من فوق ظهره، وحل الشبكة التى تحيط به.

وحملق «يوريسيثوس» فى الخنزير الذى بدأ يثوب إلى رشده، وفوجئ الملك بالوحش يدور على عقبيه، وينفخ بمنخاريه استعدادا للهجوم وملأ الرعب قلب الملك، فانطلق هاربا ومن خلفه الخنزير الثائر. . . وهرقل يكاد يستلقى على ظهره من شدة الضحك. ولم ينقذ يوريسيثوس إلا دخوله إحدى حجرات القصر وإغلاقها من خلفه بالمتاريس.

ومنذ ذلك اليوم . . . ازداد حقـده على هرقل، وقرر أن يبحث له عـن مهام وضيعة حقيرة تحط من كبريائه مدى الدهر!

* * *

وهكذا. . وجـد هرقـل نفسه مكلفـا بالمهمـة الخامسة، وكـانت تنظيـف «زرائب» «أوجياس» أمير «أوليس».

والحق إن هذه المهمـة، كانـت أحقر المهام التـى كلف بها هرقـل . . . فقد كـانت «زرائب» أوجياس التى تقـع على جبل «أوليمبوس»، تضم قطيعـا من الثيران، يتجاوز عددها ثلاثة آلاف رأس، غير بضعة آلاف أخرى من الماعز.

ومرت سنـون تجاوزت الثلاثين، والحظائر مهملـة لم تنظف قط . . . حتـى انبعثت منها روائح كـريهة، وتراكمـت تلال الروث فـوق التربة فأفسـدتها، وتآكلـت أخشاب الحظائر، وانهارت سقفها وحوائطها.

وعجب هـرقل، وهو ينظـر إلى هذه الحظائر الواسعـة، من تصميم «يـوريسيثوس» على أن يتم تنظيفهـا كلها فى يـوم واحد . . . ولكنه مـع هذا أخذ يفكـر طويـلا، وهو يصعد التل إلى حيث يقع «قصر أوجياس» . . . وتقدم منه وقال له :

ـ أى أوجيـاس . . . أنا قـادم إليك بأمـر من «زيـوس» لأنظف حظـائرك ، وأزيل أقذارها!

وضحك أوجياس ساخرا وقال :

ـ ولكـن هذا أمـر فوق طـاقة البشر. فقـد كلفت مـائة من أشـد رجالى القيـام بهذا العمل، وظلوا يعملون شهـرا، وكانت النتيجة هى ماترى. أصبحـت الزرائب أقذر مما كانت.

وضحك هرقل ، وقال :

ـ ولكنى أراهنك على أن أقوم بهذا العمل فى يوم واحد . . فكيف تكافئنى إذا أديت المهمة بنجاح؟

وأجاب أوجياس : لأعطينك عشر ما أملك من ماشية وأغنام عن طيب خاطر.

ووافق البطل، ثم قال لأوجياس :

ـ إذن مر رعاتك بأن يخرجوا كل مافى الحظائر من ثيران وماعز بعيدا عن الوادى ، فإن الأرض ستهتز وأنا أقوم بتنظيف الحظائر دفعة واحدة .

ولم يكن هرقل كاذبا فيما قال . . فقد انطلق ، وبيده معول ضخم، إلى بقعة كان قد اختبرها جيدا على جانب نهر بنيوس الصغير، وأخذ يضرب بمعوله لتحويل مجرى النهر إلى سفح التل حيث تقع الحظائر. وانحدرت مياه النهر انحدارا عنيفا إلى أسفل ، مكتسحة أمامها فى سرعة عظيمة مزمجرة . . . كل شىء ، حيث تصب آخر الأمر فى مجرى نهر قديم كان هرقل قد اكتشفه فى بطن الوادى .

وأخذ هرقل يضحك مقهقها وهو يرى المياه الجارفة تكتسح الأقذار من الحظائر فى لحظات وعندما اطمأن إلى أن كل شىء قد تم كما يريد . . عاد من جديد يضرب بمعوله فى قوة هائلة ، فسد الثغرة التى كان قد فتحها فى شاطئ نهر بنيوس وعندما نجح فى وقف فيضان النهر، انطلق إلى «أوجياس» وطالبه بالمكافأة، ولكن هذا رفض، قائلا : إن النهر هو الذى قام بعملية التنظف وليس هرقل! فسكت هرقل على مضض. . . ثم انطلق عائدا إلى «يوريسيثوس» ، بعد أن قال :

ـ فلتحذر منى يا أوجياس. . . فإن عشر أغنامك التى منعتها عنى ، لاتساوى مقعد عرشك الكبير.

وقد تحقق تحذير « هرقل»، فلم تكد تمضى سنوات حتى ذهب لمحاربة «أوجياس»، وقتله . . . وضاع بذلك عرش «أوجياس» مقابل عشر ماكانت تضمه حظائره .

أثبت نجاح « هرقل» للجميع بطولته الخارقة وقوته التى لاتجارى . . ومع ذلك ظل «يوريسيثوس» مصرا على تكليفه بأعمال أخرى كثيرة شاقة . وكانت المهمة السادسة هى قتل طيور « ستيمفاليان» المتوحشة!

وكانت هذه الطيور التى تبنى أعشاشها فى جزيرة وسط بحيرة قريبة من ستيمفاليان ذات مخالب وأجنحة ومناقير من نحاس . . . غذاؤها لحم الإنسان الذى تهاجمه بمناقيرها المخيفة ومخالبها المروعة ، حتى تقضى عليه ، ثم تحمله إلى الجزيرة لتعيد الكرة مع غيره من البشر!

لقد كانت مهمة « هرقل» هذه المرة رهيبة حقا . . غير أن الآلهة التى كانت تناصره ، لم تتركه هذه المرة أيضا . فقد أطل « هرقل» أمامه ، فإذا الربة «منيرفا» قادمة ، ومعها آلة نحاسية لها صليل يثير الرعب فى القلوب ، وعرف أن عليه أن يهز هذه الآلة ، فتنزعج الطيور وتخرج من أعشاشها . . . وعندئذ يتمكن من إصابتها وهى طائرة بسهامه السامة .

وفعل «هرقل» ما أمرت به منيرفا . . . وخرجت الطيور منزعجة من أعشاشها ، وصوب سهامه المسمومة إليها . ولم يكن الأمر بالسهولة التى تصورها . . فقد كان عدد الطيور ضخما لم يكد يسقط بعضها حتى تحولت نحوه سحابات كثيفة منها تهاجمه فى قسوة ، وتحاول تمزيقه بمخالبها ومناقيرها .

وبدأ «هرقل» يتراجع ، ثم أخذ يضربها بهراوته ذات البروز . . . وتراجعت الطيور قليلا ، ثم عاودت انقضاضها عليه فى قسوة رهيبة أيقن معها أنه هالك لامحالة .

وفجأة . . . وقبل أن يستسلم ، رأى درعا ذهبية تحول بين الطيور وبينه ، وسمع صوت الربة «أثينا» تقول له : أرسل سهامك يا «هرقل» ، وأنجز عملك الكبير، فدرعى تحميك ، وشجاعتك تستحق حمايتى .

وانتهت المعركة بالقضاء على كل طيور « ستيمفاليان» . . . وعاد «هرقل» منتصرًا إلى «يوريسيثوس» ، ليجد أمامه مهمة جديدة شاقة . . هى القضاء على ثور كريت .

* * *

كان هذا الثور منحة قدمها إله البحر «بوسيدون» لملك كريت ، ليقدمها قربانا فوق مذبحه . . . إلا أن روعة جماله سولت للملك أن يقدم للقربان ثورا آخر، وأن يخفى هدية رب البحر فى أحد مخابئ القصر.

وأدرك «بوسيدون» ماكان من أمر الملك ، فثار غضبه ، وقرر أن يصيب الثور بجنون مسعور ليكون لعنة على صاحبه . وأصبح الثور لعنة حقا . . فقد أخذ يحطم كل شىء فى الجزيرة ، ولم تعد تعوقه حواجز ولا أسوار، ودب الرعب فى قلوب الأهالى .

وانطلق «هـرقل» ليؤدى مهمتـه . ولم يكن يحس ضيقـا بعمله فى هذه المرة ، بـل لقد أحس أن العمـل الجديد لن يكـون شاقا . فمن السهـل عليه أن يهاجم ثـورا مهما تكن قوتـه ، وأن يمسك به ويكسر شـوكته . . ثم يعـود إلى «يوريسيثـوس» بالثور وقـد صار وديعا كالحمل . وعلى هذا النحو أتم هذه المهمة فعلا .

ولعل هذا العمل الـذى لم يجد فيه كبير مشقة ، كان فرصة قصيرة حظـى فيها بشىء من الراحة قبل أن يبدأ تنفيذ المهمة الثامنة .

* * *

كانت المهمة الثامنة إحضار خيول «ديـوميد» إلى أسوار «طيبة» . وكانت هذه الخيول خيولا مفترسـة تعيش على أكل لحوم البشر . . ويحتفـظ بها فى «تراقيا» حـاكم ظالم بـالغ القسوة ، اسمه «ديوميد» . كان يطلق هذه الخيول على قومه كلما أراد أن يتمتع بشىء من التسلية .

وأحـس « هرقـل» باحتقـار شديـد للحاكـم الجبان ، فـأرسل إلى بعـض أصدقـائه الشجعان ليعاونـوه فى مهمته . وانطلقوا جميعا إلى «ديـوميد» ، فانقضوا عليـه واعتقلوه ، وقرروا أن يسقوه الكـأس نفسها التى طالما سقاهـا للناس . . . فألقوا به إلى خيـوله التى أخذت تركلـه ، وتلعب به ، وتتقاذفـه فيما بينها قبل أن تنهش جسـده ، كما نهشت من قبل أجساد رعيته .

أما الخيول نفسها ، فلـم يجد «هرقل» وصحبه بعد ذلك مشقة فى أن ينـازلوها واحدا واحدا . . . وكل منهم يحمـل هراوة وأنشوطة . واستطاعوا بذلـك أن يقودوها جميعا إلى «يوريسيثوس» ، الذى أمر بها فألقيـت على منحدرات جبل «أوليمبوس» حيث لاتخطو أقدام البشر .

* * *

ثم جاءت المهمة التاسعة . . .

كـانـت مهمة جـديـدة فى نـوعها . . فقـد كـان على «هـرقل» أن يحصـل على زنـار «هيبوليت» ملكة نساء الأمازون .

وكانـت الأمازون أمـة من النسـاء تقطن بـالقرب مـن مكان شروق الشمـس . وكن يمقتن الرجـال ، ولا يسمحن لأحد منهم بالنـزول فى أرضهن . ومن أجل ذلـك تدربن

على حمل الرماح وقذف السهام، حتى برعن فى فنون القتال براعة فائقة . . لذلك أحس «هرقل» ثقل المهمة و إن أبى أن يتراجع عنها .

وألقى هرقل، فى هذه المرة، سلاحه إلى حين، وقرر أن يستعمل براعته فى العزف على القيثار، وطلاقته فى الحديث الرقيق، والعبارات الخلابة . وهى مؤهلات تجذب النساء . . خاصة إذا كن قد سمعن عن المعجزات البطولية التى حققها هرقل .

وهكذا . . . لم يجد هرقل أية صعوبة فى الدخول إلى بلاد الأمازون ، بل ولم تمض ساعات حتى دعته «هيبوليت» إلى قصرها، وعرضت عليه صداقتها وحبها ودخل «هرقل» بهو القصر الذى ترابط أمامه حارسات مدججات بالسلاح . . كلهن فتيات فارعات القوام، تتوثب أجسامهن حيوية وقوة وشبابا وأطل «هرقل» أمامه، فإذا «هيبوليت» تنتظره فى ثوب رائع من نسيج ذهبى، وشعرها مسترسل فوق كتفيها، يلتف حوله زنار مرصع بالجواهر النفيسة التى لم ير مثلها قط فى بلاد اليونان . . . وابتسمت «هيبوليت» وهى تستقبل هرقل مرحبة :

ـ مرحى بك أيها البطل المغوار . . . لقد بلغتنى أنباء أعمالك الخارقة، وشجاعتك الفائقة، وانتصاراتك فى كل الميادين . . . من أجل ذلك لن أحملك مشاق جديدة لتتمكن من الانتصار على هيبوليت . . . فخذ بيد الصداقة مالايمكن أخذه بالقوة وهاهو ذا زنارى الذائع الصيت، أهديه إليك طوعا واختيارا!

وانحنى «هرقل»، وقدم لأول مرة خلال المهام الشاقة التى كلف بها، فروض التبجيل والاحترام للملكة التى تنازلت بمنحه زنارها العجيب .

وعاد «هرقل » منتصرا، وقدم الزنار إلى «يوريسيثوس» الذى لم يفرح للزنار الذهبى، قدر ما أغضبه ذلك النصر السهل، الذى أحرزه هرقل بغير مشقة أو جهد . . فقرر أن تكون مهمته العاشرة عملا شاقا رهيبا!

ومن ثم أمره بالرحيل إلى «قادش» للقضاء على الوحش «جيريو»، والاستيلاء على ثيرانه .

* * *

كان «جيريو» هذا وحشا له ثلاثة أجسام، وثلاثة رؤوس ، وستة أذرع . . يحرس ثيرانه كلب عملاق له رأسان ، يعدو بسرعة الريح، وعندما ينبح يهتز الفضاء كله!

ونسى « هرقل» نفسه، وهو واقف على الشاطئ يتأمل «جيريو» وكلبه، ويضحك ملء شدقيه. وأحس «جيريو» باقتراب عدوه، فمد أياديه الستة كلها وأمسك بصخرة هائلة، ثم رفعها وألقى بها دفعة واحدة على البطل، ولكن «هرقل» تحول فجأة عن طريقها، وألقى بنفسه فى خفة بين الأمواج، ثم استدار فى سرعة إلى قوسه وسهامه السامة، وأطلق منها ثلاثة أصاب كل منها جسما من أجسام «جيريو» فى مقتل . . . فخر مضرجا بدمائه، وصوب سهمين آخرين إلى رأس الكلب العملاق فسقط إلى جوار سيده . . ثم اتجه هرقل إلى الثيران فجمعها وساقها إلى السفينة، وأقلع عائدا إلى «يوريسيثوس».

وكاد «يوريسيثوس» ينفجر غيظا وحقدا لانتصارات هرقل المتوالية، وذيوع صيته، وخشى على نفسه وعرشه من نفوذ هذا البطل الذى أصبحت تصفق له بلاد اليونان كلها. فقرر هذه المرة أن يرسله بعيدا جدا . . . إلى أرض موحشة تقع عبر المحيطات، ليحضر له منها تفاحات الهسبيريديا الذهبية.

* * *

لم يكن «هرقل» يعلم مكان هذه الحديقة، فراح يضرب فى مشارق الأرض ومغاربها، حتى التقى بحوريات على ضفة نهر فى إيطاليا، قلن له: إن الإله العجوز «نيريوس» الذى يسكن على شاطئ بحر إيجة، هو الوحيد الذى يمكنه أن يدله عليها.

وانطلق «هرقل» إلى «نيريوس» . . إلا أن هذا رفض أن يرشده، وتحول فى الحال إلى جرادة سوداء، سرعان ماقفزت لتختفى من وجه البطل . . . وانتبه هرقل، ومد يده بسرعة وأطبقها على الجرادة، فإذا بها تتحول إلى ثور ضخم تقهقر إلى الخلف قليلا واندفع بقرنيه الحادين إلى هرقل . . . فحاد هذا عن طريقه، والتف حول الثور، وقبض على قرنيه بيدين من حديد، ولوى عنقه بشدة خار لها الثور خوارا مروعا، ولم يحتمل وطأة الألم القاسى، فعاد شيئا فشيئا إلى طبيعته الأولى . . . ثم جثا أمام «هرقل» معلنا استعداده لإجابته إلى طلبه، وأخبره أن يتوجه إلى جبل شامخ فى أفريقيا، يجلس فوق قمته الملك « أطلس» الذى قضت الآلهة عقابا له، منذ أزمان بعيدة، بأن يحمل السموات فوق كتفيه!

وتقدم «هرقل» إلى الملك الشقى، وعرض عليه أن يريحه من حمله ريثما يسترد قوته ونشاطه، مقابل أن يحضر له تفاحات « الهسبيريديا». ووافق الملك على الفور،

وانحنى هرقل قليلا ، فنقل أطلس السموات إلى ظهره ، وانطلق ليحضر التفاحات من حديقتها .

غاب الملك بضعة أيام . . . تعمد أن يطيلها قدر إمكانه . وعندما عاد زعم لهرقل أنه استغرق الوقت كله فى البحث عن مطلبه . وأراد الملك اللئيم أن يتحلل من اتفاقه ، فأخذ يساوم هرقل فى أن يبقى حاملا للسموات بدلا منه ، ويمنيه بالوعود والأمانى المعسولة .

كل هذا والبطل يعمل فكره للاهتداء إلى وسيلة تخلصه من المأزق الذى يحاول أن يوقعه فيه ذلك الملك اللعين . . . والتفت «هرقل» إلى «أطلس» قائلا :

ـ إنه لشرف كبير ذلك الذى أغدقته على بحمل السموات أيها الصديق . وأى فخر سيضيفه هذا الشرف على اسمى ! لقد قبلت أن أبادلك ، إلا أن الحمل ثقيل لا أحتمل بقاءه فوق عظامى المجردة . . فاحمله عنى قليلا ريثما أحضر وسادة ناعمة من الريش تخفف عنى وطأة الثقل . وانحنى « أطلس» بسرعة ، فى نشوة الفرحة ، ووضع التفاحات جانبا وهو ينقل السموات إلى ظهره . . . ثم أوصى هرقل بألا يغيب وإلا أصبح اتفاقهما منقوضا .

ومد «هرقل» يده فاختطف تفاحات الهسبيريديا ، وانقلب عائدا إلى «يوريسيثوس» .

* * *

وبقيت أمام هرقل المهمة الأخيرة . . وكان «يوريسيثوس» قد أعمل فكره ، مدة غياب هرقل ، فى تدبير المهمة التى تستعصى على البطل ، ويشق عليه أن ينجح فيها . . فيما لو عاد سالما ومعه التفاحات . واستقر رأيه أخيرا على أن يأمره باحضار «الكلب كروبيروس» . . حارس أبواب العالم السفلى !

وكانت هذه المهمة شاقة حقا ، تفوق فى قسوتها ومشقتها المهام الإحدى عشر السابقة كلها مجتمعة .

ومع ذلك ، انطلق «هرقل» إليها ، فى جرأة عجيبة ، واستخفاف ظاهر . . . وصعد جبال « أركاديا» إلى النبع البارد الذى تنحدر مياهه إلى وادى «نهر ستكس» الذى يصب بدوره فى الوديان السفلية المجهولة .

وبالـرغم من أن «هرقـل» كان يعلم مدى عنـف هذا النهر واصطخاب أمـواجه فى قسوة تفل الحديد . . . إلا أنه حزم أمره، وألقـى بنفسه فى دوامة النهر الجارفة ، فحملته بأسرع من لمح البصر من طبقة سفلية إلى أسفل منها . . حتى وجد نفسه خلال لحظات فى «بحيرة ستكس» .

وهناك على حـافة البحيرة : كـان «خيرون» ـ نـاقل الأرواح الأزلى ــ قابعـا إلى جوار قاربه المصنوع من لحاء الشجر، مرسلا بصره النافذ يتفحص القادمين لينقلهم إلى أغوار العالم السفلى . ولمح « خيرون» هرقل فتعجب من أمره وقال له :

ـ أى ريح قذفـت بك أيها الحى إلى هنا؟ ابتعد عن هذا المكان ، فـإن قاربى لايحمل إلا الموتى!

فأجابه هرقل :

ـ أنا «هرقل» بن «زيوس» ، رب الأرباب . . كلفنى أبى أن أنفذ أوامر «يوريسيثوس» التى تقضى بأن أعود إليه ومعى «الكلب كروبيروس» .

وهدأ روع «خيرون» واقترب بزورق الموتى من هرقل ، ودعاه إلى الركوب بجانبه .

ولم يكد الـزورق يصل إلى الشـاطئ الآخـر، حتى قفـز منه «هـرقل» ، واتجه صـوب مدخل «قصر بلوتو» المظلم . . رب العالم السفلى .

وعلى أبواب العالم السفلى ، ربض « الكلب كـروبيروس» ذو الرؤوس الثلاثة ، وحين أحـس بقدوم «هـرقل» أخـذ كعادتـه فى إرهاب الأرواح ، ينبـح نباحـا أجش منكـرا فى وحشية وقسوة . ولم يعبأ «هرقل» وتقدم فى طريقه فى جرأة ، أذهلت الكلب عن مهمته ، فأخـذ يتقهقر إلى الـوراء كلما خطا البطل إلى الأمـام . . . حتى وصـل الكلب إلى قـاعة «بلوتو» فأقعى أمام ربه ، وعيناه تحدقان فى القادم الغريب!

وكـان رب العالم السفلى جـالسا على عـرشه الأبنـوسى المرتفـع ، وإلى جواره حبيبتـه «برسيفون» . . . وحين أبصر «بلوتو» هرقل قادما ، عبس فى وجهه ، وصاح فى غضب :

ـ كيف تجرأت على دخول مملكتى أيها الحى؟!

فأجاب هرقل فى قوة وترفع :

ـ أنـا «هرقل» بـن «زيوس» ، أمرنـى «يوريسيثوس» بـأن آتيه بالكلـب كروبيروس ، حارس الأبواب .

وأدهشت هذه الجرأة «بلوتو» ، وقال متسائلا :

ــ أمجنون أنت؟ كيف تطلب منى أن أعطيك كلبى . . . من إذن يحرس أبواب المملكة؟

فأجابه هرقل :

ـ إنه أمر «زيوس» ، ولابد من تنفيذه . . . لقد كلفت قبل ذلك إحدى عشرة مهمة فنجحت فى إتمامها جميعا ، ولم تبق أمامى سوى هذه المهمة الأخيرة . . . وإن لديك من الحراس عددا كبيرا يستطيع أن يؤدى عمل «كروبيروس» . وأظن أنه خير لك أن آخذ «كروبيروس» بدلا من أن أهدم مملكتك على رؤوس سكانها .

وانتفض «بلوتو» ، وأدرك أنه خير له أن يجيب طلبه ، فقال فى هدوء :

ـ لا بأس . . . خذ « كروبيروس» ، ولكنى أستحلفك أن تعيده إلى .

ومد هرقل يده ، وربت على ظهر الكلب الذى استكان له ، وقاده «هرقل» ومضى عائدا إلى عالم الأحياء . . . إلى قصر «يوريسيثوس» .

وما كاد الأخير يرى الوحش حتى غاض الدم من وجهه ، وصرخ فى رعب طالبا إعادة الكلب إلى عالمه .

وأحس «هرقل» لأول مرة ـ وهو ينطلق عائدا إلى عالم الأرض ـ راحة غامرة ، وخاصة بعد أن رد « كروبيروس» إلى «بلوتو» . . . وتنفس الصعداء حين بات حرا طليقا ، وقد سقطت عنه عقوبة الخضوع « ليوريسيثوس» بعد أن أدى المهام الاثنتى عشرة بنجاح كبير.

أسطورة إغريقية

اختطـاف برسـيفون

كانت « ديميتر» واحدة مـن بنات الإله « ساتورن» ، أول من حلس على عـرش « أورانوس» ـ مس روحته «ريا» واستطاعت « ديميتر» أن تكسو الأرض منذ هبطت إليها بالأزهار والغابات والحقول . فجعلها اليونان ربة الأرض ، وتمثلوها امرأة تتوج رأسهـا سنابل القمح وأزهار الحقول ، وتمسك بإحدى يديها منجل الحصاد ، وباليد الأخرى حزمة من نبات القمح ، واعتادوا أن يحتفلوا بها كل عام عند قدوم الربيع ، حيث يقدمون لها خنزيرا لترضى عنهم وتبارك محاصيلهم!

لم يكن لوادى « انا» نظير بين أوديـة الجبال . ومع أنه كان يقع فى أعلى قمـة من قمم جبال صقليـة ، كانت الريـاح العاتية لاتستطيـع أن تقترب منه ، بل كانـت تهب عليه نسمات رقيقة حانية من رياح الغرب .

وكانـت حشائش الوادى ، لـذلك ، خضرا لاتجف ، وأزهـاره متفتحة لاتذبـل . أما الأشجـار، فكـانت تنسـاب مـن خـلالها غدران بـاردة تتـلألأ ميـاهها ، فتبـدو كـأنها انعكاسات فضية من السماء . وكانـت « ديميتر» ـ أعقل الآلهة جميعا : أم الأرض ، وربة كل ماينبـت فيها من نبات ، وما يـدب على سطحها من حيوان ـ تعيش فى أعماق هذا الوادى الجميل .

وكانت « ديميتر» تسمح لابنتها الصغيرة « برسيفون» بـالخروج بضع ساعات كل يوم للعب فى مروج « انا» العجيبة . ولذلك لم يكن غريبا أن تخرج « برسيفون» فى ذلك اليوم لتلعب مع أترابها مـن بنات حوريات الوادى . . . يخلعن نعالهن ، ويعـدون بأقدامهن العارية على الحشـائش الرطبة اللينة . وصـاحت « برسيفون» فى نـداتها خلال الضحك والمرح :

ـ هيا بنا نقطف الأزهار.

وهللت الصغيرات ، وطفقن يجمعن ماطاب لهن مـن زهور جميلة بين بنفسج وزنبق وسوسن أرجوانى .

ولفتت الأصوات المرحة الضاحكة انتباه « بلوتو» . . إله العالم السفلى ، حين كان مارا فى مركبته الداكنة التى تجرها أربعة جياد ، فى سواد الليل البهيم .

وأطل « بلوتو» إلى الصغيرات ، فأعجبته تلك الصبية الضاحكة الحلوة ، التى كانت تقفز هنا وهناك ، فى مرح لم ير مثله قط فى عالمه المظلم المخيف .

وتوقف « بلوتو» ، واستغرق فى دوامة هائلة من التفكير . . لقد تصور مملكته الكئيبة القاتمة ، ومحاولاته الدائمة فى البحث عن ربة ترضى أن تشاركه الجلوس على عرش العالم السفلى ، وماكان يقابل به دائما من رفض الربات كلهن الاستماع إلى توسلاته ، فلم تقبل واحدة منهن الهبوط إلى عالم مظلم لاتشرق عليه الشمس ، ولاتشدو فى أجوائه الطيور.

وكان بلوتو ـ لشدة شوقه إلى ملكة تجلس بجواره ، ويأسه وأمله من محاولات الحصول على بغيته عن طريق الإقناع ـ قد قرر أن يستعمل القوة للوصول إلى تحقيق مرامه .

ورأى بلوتو ـ فى هذه اللحظات بالذات ـ « برسيفون» ، وأيقن أن جمالها الوضاء ، وفتنتها الطاغية ، هما القادران على بعث الحياة فى مملكته الخامدة الكئيبة . . . وهكذا قرر أن يختطفها !

أما « برسيفون» فلم تنتبه إلى وجود غريب فى مكان مرحها . وانطلقت فى ضحكها ومرحها . . . متنقلة من زهرة إلى زهرة .

وفجأة . . . لمحت « برسيفون» زهرة رائعة لنوع عجيب من النرجس ، ملكت عليها حواسها ، وأنستها كل ماعداها .

وقفزت الصبية إليها ، ووقفت إلى جوارها ، وراحت تتأملها فى سرور وإعجاب . . . لقد كانت تختلف عن كل زهرة رأتها من قبل ، وكانت ساق الزهرة تحمل مالا يقل عن مائة نورة ، أما شذاها فقد ملأ أريجه العطر أرجاء الوادى ، وانتشرت على قمة الجبل .

ونادت « برسيفون» رفيقاتها ليشهدن معها جمال الزهرة العجيبة ، إلا أنهن لم يسمعنها ، فقد كن ابتعدن عنها كثيرا فى عدوهن بين المروج .

واندفعت « برسيفون» لتقطف الزهرة ، وأمسكت بعودها فأحست كأنه حية رقطاء تتلوى بين أصابعها . . . وحاولت أن تكسر العود ، فلم تتمكن ، ولم تجد وسيلة إلا أن تقتلعه من جذوره ومالت على الشجيرة تقتلعها ، فأحست بالتربة السوداء تلين حولها ، ثم انشقت الأرض فجأة عن مغارة سوداء فسيحة ، وثبت منها أربعة جياد سود ، تجر مركبة داكنة ، يجلس فيها ملك متوج ، لم يسبق لعين أن رأت مثله على ظهر الأرض !

وارتعدت الصبية مذعورة ، إلا أن «بلوتو» كان قد قرر أن يأخذها عنوة . . فلم يترك

لها الفرصة لتسترد أنفاسها اللاهثة، فانقض عليها، ورفعها بين يديه وأجلسها بجانبه، ثم ألهب ظهور جياده، فانطلقت تسابق الريح!

ظل « بلوتو» ينهب الأرض بمركبته، والقلق يملأ قلبه خشية أن تلاحقه «ديميتر»، فتسترد ابنتها الحبيبة. ولم يحاول أن يتوقف قليلا ليريح الجياد... بل كان كلما تباطأت، أو خيل إليه أن سرعتها قلت عن ذى قبل، انهال عليها بسوطه فى قسوة، فاندفعت والزبد يتناثر من أشداقها.

وبلغ بلوتو آخر الأمر نهر « سيان»، فوجد أمواجه صاخبة مرغية مزبدة، تقطع عليه طريق الهرب... وأصبح محاصرا لايمكنه أن يتقدم إلى الأمام، ولا يجرؤ على أن يعود إلى الخلف.

ثم تذكر رمحه المقدس ذا الشعبتين، فتناوله ورفعه إلى أعلى، وضرب به الأرض ضربة قوية، فانشقت عن هوة واسعة ممهدة... انحدر إليها بعربته وجياده وأسيرته، وراح يخترق أعماق الأرض حتى بلغ مملكته فى عالم الموت.

***

أما « ديميتر»، فقد كانت تشرف على الحصاد فى بلد آخر بعيد عن وادى «انا».. إلا أن صرخات « برسيفون» التعسة سكت ـ على بعد الشقة ـ سمعها، فاندفعت إلى الوادى صارخة مولولة تنادى ابنتها، ولكنها لم تسمع لنداءاتها ردا سوى رجع الصدى!

وامتلأ قلب « ديميتر» أسى ولوعة، وراحت تذرع الوادى طولا وعرضا باحثة عن ابنتها... تندبها وتبكيها فى حرقة ولوعة، وقد يئست تماما من العثور عليها.

ونادت « الربة» رسولها الخاص... طائر الكركى الأبيض، الذى يحبس الأمطار... وأمرته بالبحث عن ابنتها ودار الطائر حول العالم دورة سريعة، جاب فيها الأقطار، وعاد إلى ربته بلا خبر.

ومضت الأيام، ولم تعد « برسيفون».

وصعدت « ديميتر» إلى قمة جبل « أتنا»، ثم راحت تقطع الفيافى والقفار، وتطوف مشارق الأرض ومغاربها... تتسلق المرتفعات، وتهبط الوديان، وقد ولى صباها، وانحنى ظهرها لثقل ماتنوء به من هم على فقدان ابنتها.

وكانت « ديميتر» تخترق، ذات يوم، صحراء جرداء قاحلة، فاشتد بها العطش وأدركها الإعياء فسقطت على الرمال.. وما كادت تنهض حتى تعثرت وسقطت، وأحست ببوادر الهلاك تدب فى جسدها، وراحت فى غيبوبة طويلة.

وفتحت « ديميتر» عينيها ، فوجدت إلى جوارها « هيكيت» حاملة فى يدها مصباحا ، وتبدو كمن تبحث عن شىء . . وقدمت إناء ممتلئا إلى « ديميتر» فشربته إلى آخر قطرة . ثم سألتها عن قصتها ، فحكت لها «ديميتر» قصة ابنتها . وأخبرتها «هيكيت» أنها سمعت هذا الصراخ ، مصحوبا بقرقعة عجلات رهيبة ، ونصحتها بأن تلجأ إلى «أبوللو» إله الشمس . . . فهو الوحيد الذى يمكنه أن يدلها على مكان ابنتها .

وانطلقت « ديميتر» إلى رب الشمس ضارعة متوسلة وكان « أبوللو» جالسا فى مركبته استعدادا لاستئناف رحلة كل يوم عبر السماء . وعندما سمع توسلاتها ، أوقف جياده النارية ، وأخبرها أن « بلوتو» رب العالم السفلى هو الذى خطف ابنتها ، وأخذها لتقيم معه فى الأعماق المظلمة !

وعندما عرفت « ديميتر» حقيقة الأمر، أدركت أن ابنتها لن تعود . . فنضت عنها ثياب الآلهة ، وقررت أن تعيش على الأرض متنكرة فى زى عجوز حطمتها السنون . .

وعاشت « ديميتر» على الأرض تجوب أرجاءها آناء الليل وأطراف النهار دون أن يعرفها أحد . . . إلى أن وصلت ، ذات يوم ، إلى «اليوسسس» مجهدة قد نال منها الإعياء والتعب . . . وأخذت تتجول فى شوارع المدينة ، حتى وجدت نفسها داخل حديقة جميلة ، فاستندت إلى سياج رخامى يحيط بنافورة تتوسط الحديقة .

وشاهدت « ديميتر» بعد برهة أربع فتيات فى سن ابنتها يمرحن فى الحديقة . . . وتصورت «برسيفون» الضاحكة ، وكيف كانت تمرح كالزهرة بين الزهور، فتحدرت على خديها خيوط متصلة من الدموع . . . وانتبهت الصبيات إلى العجوز الباكية ، فاقتربن منها ، والتففن حولها وأخذن يسألنها عن سر بكائها وحزنها .

فأجابت بأن لصوصا اختطفوها من بين أهلها ، ولكنها تمكنت من الهرب منهم ، وظلت تجرى حتى وجدت نفسها فى هذا المكان ، ولم تعد تعرف مكانا تأوى إليه .

وتركتها الفتيات الصغيرات بعد أن استأذن منها وانطلقن إلى قصر أمهن الملكة «ميتانيرا» ، وأخذن يحدثنها عن العجوز الطيبة ، ويطلبن منها أن تدعوها إلى القصر . . واستجابت الملكة لفتياتها الصغيرات ، وأذنت لهن باستدعاء العجوز.

ودخلت «ديميتر» القصر، فأكرمت «ميتانيرا» وفادتها ، وجلست تتجاذب معها الحديث . وعرفت «ديميتر» من ثنايا الحديث ، أن ابن الملكة الصغير يعانى مرضا عضالا، حار فى علاجه الأطباء . . وطلبت «ديميتر» أن ترى الطفل ، فقادتها الملكة إلى فراشه ، فنظرت العجوز إليه ، وقالت لأمه إن علاجه سهل عليها ، وإن فى إمكانها إنقاذه ، وإن كان فى حاجة إلى عناية فائقة حتى ينجو من الخطر.

واستعطفت الملكة ضيفتها العجوز أن تبقى معها، وأن ترعى الطفل . . . فقبلت ديميتر، وطلبت أن تخصص لها حجرة تقيم فيها مع الطفل حتى تتمكن من علاجه .

ومرت الأيام . . وصحة الصغير تتقدم يوما عن يوم حتى تم له الشفاء . ثم مرت الشهور ، والطفل ينمو ، ويزداد تعلقه بالعجوز التى لم تعد تطيق فراقه لحظات . . بيد أنها خلال ذلك لم تكن لتنسى ابنتها الغائبة « برسيفون» ، فكانت متى هبط الليل ، وأغلقت عليها حجرتها ، تبكى بكاء مرا حتى يغلبها النوم على أمرها .

وكانت الغرفة التى تقيم فيها « ديميتر» ، متى جاء الهزيع الأخير من الليل ، تضىء كأن نور الشمس يسطع فيها ، وتنبعث من جسمها نار ذات لهب ، فتنهض من فراشها ، وتمسك بالطفل بين يديها ، وتغمره فى تلك النار المقدسة . . . والطفل يضحك ، ويضرب برجليه فى الهواء . . ثم تخمد النار بغتة ، وتظلم الحجرة ، فتعود «ديميتر» إلى فراشها وبجانبها الطفل .

ولم يكن أحد يدرى سر ما يحدث ، حتى سرت إشاعات فى القصر بأن العجوز تشعل النيران فى حجرتها ، وأنها تحاول إلقاء الطفل فيها . وأسرت بعض الوصيفات ، ممن تجسسن على العجوز، الأمر إلى الملكة . . . فامتلأ قلبها رعبا ، ونهضت فى الوقت الذى حددته الوصيفات ، وأطلت من ثقب باب حجرة العجوز، فرأت نورا يبهر البصر. ولم تطق الأم صبرا ، فدفعت الباب بقوة فانفتح على مصراعيه ، فإذا النار تملأ الغرفة ، وتندلع ألسنتها من جسم العجوز، وإذا بتاج من النيران ينعقد فوق رأسها ، والطفل فى أعماق اللهب!

وصرخت الأم مذعورة . وفى لمح البصر تبدل كل شىء . . . خمدت النيران ، وأظلمت الغرفة إلا من الضوء الباهت المنبعث من المشعل الضئيل . وأطلت الأم فرأت طفلها نائما نوما عميقا فى فراشه . أما «ديميتر» فكانت واقفة والشرر يتطاير من عينيها ، وأسرعت الأم إلى طفلها تحتضنه . . . وتكلمت ديميتر فى صوت رهيب :

ـ أيتها الأم . . . لقد حرمت ولدك نعمة الخلود بجهلك وتسرعك!

وأدركت الملكة أن ضيفتها ليست إلا إحدى الربات الخالدات ، فجثت على ركبتيها متوسلة :

ـ عفوك يامولاتى . . لقد رأيتك تلقين بابنى فى النار، فلم أتمالك نفسى .

وأجابت «ديميتر» :

ـ لقد جاهدت طوال هذه الشهور لكى تبيد النار المقدسة عناصر الفناء فى جسم

ولدك فيمنح الخلود ، وكادت جهودى تكلل بالنجاح لولا تدخلك .

وبكت الأم فى أسى ، وتحرك قلب «ديميتر» شفقة ، فابتسمت قائلة :

ـ حسنا . . لئـن كان ابنك قد حـرم الخلود . . إلا أن الآلهة ستهبه ذكاء نـادرا ، وقوة خارقة . . وسيكون طويل العمر ، محبوبا من الناس جميعا .

ولم يكن أمام « ديميتر» إلا الرحيل ، بعد أن افتضح تنكرها ، واضطرت إلى الظهور فى زيها المقدس . . إلا أنها قبل أن تمضى وعدت بالعودة إلى المدينة إذا أقيم فيها معبد تقدم فيه القرابين .

ولم تمض أشهر قـلائل ، حتى كـان أهل «اليوسـس» قد أقـاموا معبـدا عظيما للإلهة «ديميتر» . . . وماهـى إلا أيام ، حتـى عادت الـربة لتقيـم فى معبدهـا الخاص . . وقد عقدت العزم على اعتزال جميع الآلهة إلى أن تعود إليها « برسيفون» !

ومرت الأيام . . . وكـانت «ديميتر» قد أهملت الحب فى الأرض ، فلم يعـد ينمو فيها نبات ولا زرع ، وندر القمـح حتى خلت منه الطـواحين ، وجفت الحشائش ، وتجردت الأشجار مـن أوراقها ، ورحلت الطيور عـن الأرض ، وهزلت الماشية . . وبـدأت معالم الحياة تختفى رويدا رويدا على ظهر الأرض .

وارتفعت صرخـات الإنسان والحيـوان ، متوسلـة إلى «زيوس» ، رب الأربـاب ، أن يتدارك الكون بحكمته قبل أن يحل به الخراب .

وأطل « زيوس» من عليائه فوق قمة الأولمب ، فرأى الأرض يخيم عليها شبح الفناء ، وأدرك أن الآلهة غضبى لحرمانها من القرابين التى كانت تقدمها « ديميتر» .

واستدعى زيـوس الربة «ايريس» وحملها رسـالة إلى « ديميتر» أن تعود إلى الأرض . . ولكن «ايريـس» عادت باكية بكاء مـرا . . فقد أثار حزنها منظـر ربة الأرض فى نحيبها الشقى على ابنتها الحبيبة «برسيفون» .

وأرسل «زيـوس» الآلهة واحدا واحـدا . . إلا أنهم فشلوا جميعـا فى إقناع ربـة الأرض بالعودة إلى مكانها ، وعادوا إلى «زيوس» يجرون أذيال الفشل .

ولم يجد «زيوس» بدا مـن أن يرسل رسولـه «هرمز» إلى مملكة «بلـوتو» لإقناعه بـإعادة «برسيفون» إلى أمها . . إلا أن الإله الكئيب ، لم يكد يرى «هرمز» حتى سخر منه ، وأبى أن يرد «برسيفون» .

أما هـى فلـم تكد تـرى رسول رب الأرباب ، حتـى استخفها الطرب ، وطـار لبها شوقا إلى أمها ، فوثبت من فوق العرش !

وهنا وجد «بلوتو» نفسه مضطرا إلى القبول فأمر بإعداد مركبته ذات الجياد السود، لكى تنقل «برسيفون» إلى الأرض .

وقبل أن تصعد إلى المركبة، سألها « بلوتو» أن تأكل رمانة من أشجار حديقته، فتناولت «برسيفون» واحدة، أكلت منها أربع حبات، ثم انطلقت بها المركبة ومعها «هرمز» إلى حيث كانت أمها « ديميتر» جالسة تبكى .

وهتفت «ديميتر» فى فرحة فياضة، عندما رفعت رأسها فرأت أمامها ابنتها تناديها، واندفعت إليها تحتضنها، وتقبلها فى نشوة غامرة وعاطفة جارفة .

وبينما الأم وابنتها على هذه الحال . . تذكرت «ديميتر» فجأة شيئا كان قد غاب عنها، وهتفت فى ابنتها تسألها فى قلق :

ـ خبرينى يابنيتى . . هل تناولت طعاما منذ انتقالك إلى العالم السفلى؟

فأجابت « برسيفون» :

ـ أربع حبات فقط من الرمان . . .

واستولى على «ديميتر» ذعر رهيب، ورفعت رأسها إلى «زيوس» ولكنها كانت تعلم الرد الوحيد الذى لايمكن لأحد، حتى رب الأرباب نفسه، أن يقضى بسواه!

ـ إن على « برسيفون» أن تعود إلى العالم السفلى لتقيم مع « بلوتو» أربعة أشهر من كل عام، شهر لكل حبة من حبات الرمان .

وكان مالابد أن يكون!

وعادت « ديميتر» ربة الأرض إلى واديها الجميل فى « انا » ومعها «برسيفون» . ومع عودتها نبت الحب، واخضرت الأشجار، وأزهر الزرع، وعادت أسراب الطيور إلى تغريدها، وعلى رأسها «الكركى» رسول ربة الأرض . . وأصبحت «برسيفون» من ذلك الوقت ربة الربيع .

إلا أن ذلك كله كان يختفى ويتوقف، أربعة أشهر من كل عام، وهى أشهر الشتاء المظلمة، عندما تأتى مركبة داكنة تجرها أربعة خيول سود، فتحمل «برسيفون» إلى العالم السفلى!

ولم تعد « ديميتر» تبكى . فإن ابنتها الحبيبة «برسيفون» تسعدها بجوارها ثمانية أشهر فى كل عام!

أسطورة سويدية
نجمة من السماء

اشتهرت بلدان الشمال ــ وهى ايسلندا والدانمرك، والنرويج والسويد ـ بثراء واسع فى الأساطير والحكايات الشعبية التى ازدهرت لأكثر من ألف سنة.

وأبرز أساطير هذه الدول الأربع، الأساطير التى اشتهرت بها ايسلندا. إذ كان لها أكبر الأثر فى كل ما أبدعته الآداب الدانمركية والنرويجية والسويدية بل وآداب انجلترا وفرنسا وألمانيا.

وقد ظلت هذه الأساطير مطوية فى مجموعات الميثولوجيا والدين والتاريخ، حتى ظهر كتاب فى القرنين التاسع عشر والعشرين جعلوا همهم الأول إحياء هذه الأساطير وإخراجها إلى عالم النور.

أحس أنها مغامرة مجنونة . . . ولكنه مع ذلك شعر بلذة كبيرة، وانطلق إلى قصر الملك فأعلن أنه يقبل الشرط الذى تطلبه الأميرة ممن يريد زواجها. . .

فقد كانت الأميرة ذات جمال ساحر يبهر النظر، ويأخذ بمجامع القلوب. وكانت على حق حين اشترطت ألا تتزوج إلا من يأتى بالمعجزات. وحددت الأميرة المعجزة التى تطلبها من فتاها المختار. . . كان عليه أن يحضر للأميرة نجمة من السماء!

وكان الفتى يعرف أن أحدا من أهل الدنيا لم يجرؤ على التقدم بطلب يد الأميرة، لأنه ما من أحد يستطيع أن يحقق هذا المطلب المستحيل، ولأن الملك كان قد أعلن أن من يدعى القدرة على تحقيق هذه المعجزة ثم يفشل، سيكون جزاؤه الموت.

وأعرض شباب المملكة عن خطبة الأميرة، وكفوا أنفسهم عاقبة الفشل فى تحقيق المستحيل، وقد أدركوا أن الأميرة إنما اشترطت هذا الشرط لتقف فى وجه أبيها الذى لايفتأ يلح عليها فى الزواج. . . بعد أن صممت على ألا تتزوج بعد مصرع حبيبها فى مبارزة كان أبوها الطرف الثانى فيها!

وبالرغم من ذلك، فقد قرر هذا الفتى أن يتقدم للزواج من الأميرة، وأعلن فى جرأة متهورة أنه من أجل الحصول عليها، سيحقق لها شرطها، وسيحضر لها نجمة من السماء.

وانطلق الفتى إلى بغيته، واتخذ وجهته صوب جبال تناطح السحاب، وتبدو فى الأفق البعيد كأشباح باهتة تختفى وراء سحب من الضباب الداكن. ومضى فى طريقه يجتاز الصحارى القفرة، والوهاد الجرداء، ويصعد التلال ويهبط الوديان. . . واضعا نصب عينيه أن يبلغ أعلى قمة فى جبال الدنيا قاطبة ليسهل عليه أن يمد يده من فوقها فيمسك بنجمة فى السماء. . . وكلما بلغ قمة عالية، راعه مابينها وبين السماء من مسافات شاسعة، فيمضى باحثا عن أعلى منها. وظل على هذه الحال حتى نال منه الإعياء وبلغ به الجهد غايته، وتهالك فوق أعلى القمم. . . وشبح الموت يخيم فوق رأسه: فلا هو بقادر أن يعود إلى بلده فاشلا، ولا هو بقادر أن يبقى حيث هو . . . فالموت متربص به فى الحالتين. وانهارت آماله، وانتابه يأس مرير، وخارت قواه تحت وطأة الفشل الذريع، فراح فى إغماءة طويلة.

***

وأفاق الفتى فى ذهول، لايدرى من أمر نفسه شيئا، وأخذ يستجمع شتات فكره، ويحاول أن يستعيد فى ذهنه المكدود أسباب وجوده فى هذا المكان.

وترامت إلى مسامعه ـ وهو على هذه الحال ـ خطوات ثقيلة يزلزل وقعها قمة الجبل. ولم يلبث أن رأى أمامه عملاقا هائل الحجم يقترب حتى وقف أمامه، وإذا بالعملاق الرهيب يسأله فى رقة بالغة:

ـ أى بنى! ما الذى أتى بك إلى هذا المكان؟ وما سبب الحزن البادى عليك.. هل ضاع منك شىء؟

فأجابه الفتى فى فزع:

ـ كيف لاأحزن والموت يوشك أن يتخطفنى! ولكنى لا ألوم إلا نفسى. . . فقد ملأنى الغرور، فادعيت أن بإمكانى إحضار نجمة من السماء للأميرة. وكان فى تقديرى أن السماء لاترتفع إلى قمة أعلى الجبال، ولكن خاب تقديرى. وهأنذا عاجز لا أملك إلا أن أعود إلى قصر الملك معلنا فشلى، فيطيح برقبتى سيف الجلاد!

قال الغريب:

ـ لاتحزن يابنى . . . اركب فوق ظهرى، وأمسك جيدا بعنقى، وتذكر دائما، عندما نرتفع فى الفضاء، أن النظر إلى الأرض محرم عليك!

واعتلى الفتى ظهـر الغريب الذى ارتفـع كعقاب الجو، وظل طائرا والفتـى مغمض العينين لا يحس من حوله سوى الفضاء . . . إلى أن سمع صوت العملاق بعد فترة يقول له :

ـ افتح عينيك ، وارفع رأسك ، وانظر . . . ماذا ترى؟!

وفتح الفتى عينيه ، وأطل إلى فوق . . . كـانت السماء فى متناول يده ، والنجوم تسبح فيها ، وتكاد تصطدم به!

وصرخ الفتى :

ـ إنها النجوم . . . النجوم!

فهتف العملاق قائلا :

ـ أسرع الآن واخطف أقرب نجمة إليك .

ومد الفتى يده فى سرعة ، واختطف نجمة قريبة .

وفى نفس اللحظة اختفـى الغريب ، وصار الفتـى معلقا فى الفضاء ، يتأرجـح يمينا وشمالا . . . يعلـو ويهبط ، ولا شـىء يحمله على الإطـلاق! ولكنه رغـم ذلك لم يفلـت النجمة من يده ، بل ظلت أصابعه قابضة عليها فى قوة . .

وفجأة أحس بجسـده كله يرتطم بـالأرض ، بعد أن ألقت به فى الهواء دوامـة عاتية . وعندما سكتت الريـح ، أطل حوله فإذا به فوق بساط رقيـق من الحشائش السندسية . وتحسس يـده فإذا النجمـة لاتزال فيهـا ، فملأه الفـرح ، وأدخل كفـه فى جيبه ليضـع النجمـة فى مكـان أمين ، ثـم مضـى لايعلـم إلى أيـن يسير، ولا إلى أى مكـان تقـوده قدماه . . .

وفى أثناء سيره لمح ثـلاثة رجـال ، وقد أمسـك بعضهم بخنـاق بعض فتقـدم منهم بقصد تهدئتهم ثم سألهم :

ـ فيم تتنازعون أيها الرفاق؟!

فأجابوا فى صوت واحد :

ـ نحن أخوة ثـلاثة ، مات والدنا ولم يترك لنا سوى قبعة واحـدة . ولسنا ندرى كيف السبيل إلى اقتسامها ، ولا كيف يحصل كل منا على نصيبه؟!

قال الفتى :

ـ أمن أجل قبعة تافهة يختصم الأخوة ويتضاربون؟ . . . يالكم من أغبياء جهلة!

قال أحدهم:

ـ لسنا أغبياء ياصاح، وليست القبعة شيئا تافها، فإنك لاتدرى أى معجزة تحمل هذه القبعة. إن من يضعها على رأسه، يختفى عن الأنظار فورا! وذلك سر قوتها، وسر اهتمام كل منا بالحصول عليها.

فهز الفتى كتفيه، وقال فى استخفاف:

ـ هل تسمحون لى برؤيتها، حتى أحكم على مقدار قوتها، ثم أفصل فى الأمر بالعدل؟!

ومد يده فتناول القبعة، وأخذ يقلبها بين يديه فى ازدراء، ثم رفعها إلى رأسه فى بطء، مظهرا علامات الاستهانة وقال:

ـ لأجربها حتى أعلم عن يقين قيمتها!

وهتف الأخوة الثلاثة فى صوت واحد:

ـ حذار . . . فإنك لو وضعتها على رأسك، فستختفى عن أنظارنا فلا نستطيع أن نراك!

فقال الفتى وهو يثبت وضع القبعة فوق رأسه:

ـ لاتخشوا شيئا، فلن أتركها على رأسى طويلا!

وماكاد يتم قوله، حتى اختفى تماما . . . وأسرع فى هدوء مبتعدا عن مكان الأخوة الثلاثة. ومكث هؤلاء ينتظرون أن يخلع الفتى القبعة، ويصدر حكمه فى الأمر. . . إلا أن انتظارهم طال دون جدوى، وتملكهم القلق، وقال واحد منهم آخر الأمر، وهو يهز رأسه فى ارتياح:

ـ حقا . . لقد حكم بيننا بالعدل، وليس فينا الآن من يملك شيئا يزيد على أخيه!

وانتهى الخلاف بين الأخوة، فلم يعد هناك شيء يختلفون عليه!

ومضى الفتى مسرعا يبغى الوصول إلى قصر الملك، وقد اطمأن إلى أن أحدا لن يستطيع سرقة النجمة منه، مادام مختفيا تحت القبعة السحرية.

وظل الفتى سائرا . . . والطريق طويل، وقصر الملك لايريد أن يظهر قط.

وصادف فى أثناء سيره ثلاثة رجال يتجاذبون حذاء كبيرا، وكادت تنشب بينهم معركة عنيفة، حال دونها ظهور الفتى المفاجئ بعد أن خلع قبعته وتقدم منهم متسائلا عن سبب النزاع؟ فأجابه الثلاثة فى نفس واحد:

ـ نحن ثلاثة أخوة. . . مات أبونا ولم يخلف لنا سوى هذا الحذاء. ولا نعرف كيف نقتسمه، ولا كيف ينال كل منا نصيبه من ميراث أبينا دون أن يبغى أحد منا على حق الآخرين!

وقال الفتى:

ـ عجبا لكم أيها الأخوة! أينازع الأخ أخاه من أجل حذاء تافه؟! يالكم من أغبياء!

فأجابه أكبرهم:

ـ إن لهذا الحذاء قيمة لا تعدلها سبيكة من الذهب الإبريز. . ما إن تضعه فى قدميك حتى تجد نفسك فى أى مكان تريد، مهما بعدت شقته، دون أن تشعر بتعب على الإطلاق.

وتعجب الفتى، وهز رأسه فى إنكار!

فقال الأخ الأكبر:

ـ خذ، جربه، فستعلم أننا لانكذب عليك.

وتمنع الفتى فى مبدأ الأمر، ثم تناول الحذاء بيديه، وأخذ يقلبه فى ترو وحرص. وبدت عليه علائم الحكمة العميقة والوقار. . . والأخوة يتهامسون فيما بينهم بأنه قد آن لهم أخيرا أن يحلوا المشكلة على يدى هذا الحكم العادل الذى وضعته الأقدار فى طريقهم. وألح الثلاثة على الفتى أن يضع الحذاء فى قدميه ليتأكد من صدق دعواهم. . . فأذعن أخيرا لإلحاحهم، ورضى أن يجرب الحذاء!

وما كاد يدخل قدميه فى الحذاء، حتى ثبت القبعة المسحورة فوق رأسه، واختفى عن الأنظار.

وطال انتظار الأخوة لعودته. فلما يئسوا، وأدركوا أن ماكان يدعوهم للتنازع قد ضاع من أيديهم . . . تصافحوا، وكأن لم يكن بينهم أى خلاف.

وطار الفتى بحذائه وقبعته المسحورين، متعجلا الوصول إلى قصر الملك. . . وفى طريقه ترامت إلى أذنيه أصوات عراك، فتوقف وخلع قبعته، فإذا به أمام ثلاثة

يتشاجرون، فحدث نفسه بأنهم لابد أخوة يتنازعون على ميراث . . . وصدق حدسه فقد كان جوابهم ـ حين تقدم منهم سائلا ـ مصدقا لما جال بخاطره .

وأبصر الفتى . . . فإذا الشيء الذى يتنازع عليه الأخوة الثلاثة، عصا معقوفة تبدو كفرع مكسور من شجرة . وكاد الفتى يمضى منصرفا إلى حال سبيله، لولا أن جذبه أحدهم وطلب إليه أن يحكم بينهم بما ينهى النزاع، وأعلنوا جميعا قبولهم لحكمه دون أدنى اعتراض، وقالوا له :

ـ لا تظن قيمة هذه العصا فى مظهرها . . . إنها مسحورة إذا غرستها فى الأرض ساعة النزال حمتك أنت ومن معك من الموت ، فى حين هى على العكس من ذلك مع عدوك ورجاله . . . إنها تفنيهم جميعا، وكأنما قد أصابهم الطاعون!

وتناول الفتى العصا بإحدى يديه، وكانت يده الأخرى تثبت القبعة فوق رأسه . . . وتلفت الأخوة حولهم فى دهشة وذهول باحثين عبثا عن الفتى الذى اختفى كأنما انشقت الأرض فبلعته . وما حدث لأصحاب القبعة وأصحاب الحذاء، حدث لأصحاب العصا . . . انصرفوا متصافين متحابين ويلعنون هذا الميراث الذى كاد يثير بينهم العداء .

وتابع الفتى مسيره . . . والقبعة فوق رأسه تخفيه عن الأنظار، والحذاء فى قدميه يزيل عنه متاعب الطريق، والعصا فى يده تقيه شر من يجرؤ على التعرض له .

ورأى الفتى خلو الطريق من الناس ، فخلع القبعة عن رأسه ، وسار حتى وجد نفسه أمام بيت صغير جميل، تحيط به الحدائق والحقول، وتطير حوله عصافير مغردة تشجى سكانه بصداحها العذب . ودفع باب البيت فإذا به وجها لوجه أمام امرأة عملاقة بشعة المظهر، تنفرج شفتاها الزرقاوان عن قواطع حادة كأنياب الضوارى، وينتفش على رأسها ووجهها شعر مجعد كالح . . . وانطلقت من أعماقها ضحكة رهيبة حادة زلزلت كيان الفتى، ثم قالت فى صوت كأنه خارج من ظلام القبور:

ـ ها . . . ها . . . تعال إلى ياصديقى، فقد طال شوقى إلى مثل لحمك الطرى . . . أقدم فإنك وليمة العمر التى تمنيتها منذ سنين!

ولم تكد تتم قولها حتى قفزت قفزة رهيبة إلى الباب فأغلقته دونه . وقبل أن تستدير إلى صيدها، كان الفتى قد استرد شجاعته، وأعد عصاه لتورد المرأة موارد التهلكة، ثم خاطبها قائلا :

ـ أيتها المرأة، لا تحسبى حسـاب لحمى . . . فإنى قد هزلت هزالا شـديدا من قسوة الجوع، ومشقة السير عشرات الشهور. وما كان لجميلـة رائعة الجمال مثلك أن تستسيغ أكل اللحم البشرى، وإنما أنت خليقة أن تكونـى زوجة لأمير جليل الشأن ينعم بحبك وتسعدينه سعادة أبدية!

واغترت المرأة بهذا الثنـاء العـاطر الجميـل الـذى مـاسمعـت مثله قـط فى حيـاتها، وشعرت بانعطاف نحو هذا الشاب، وقالت له فى صوت جاهدت أن يبدو رقيقا ناعما.

ـ لقـد أسرتنى بعذب حـديثك أيها الشـاب الجميل، فاطلـب ماتريـد، فإنـى منذ الساعة لن أرد لك طلبا.

فشكرها الفتى على رقتها، وقال لها:

ـ إنى أقصد قصر الملك، وقد غابت عنى مسالكه . . . فهلا ساعدتنى على بلوغه؟

فقالت المرأة:

ـ إننـى لا أبارح هـذا المكان قـط. فكيف لى أن أعـرف مكان هـذا القصر؟ إلا أننى سأبذل مافى وسعى لمعاونتك.

ورفعت المرأة عقيرتها بنداء خـاص تجمعت على أثره طيور الحديقة، وهبطـت أمامها منتظرة تلقى أوامرها. فأشارت المرأة إلى طائر ضخم أن يقترب منها، وخاطبته قائلة:

ـ أنت الذى تحمل فوق ظهرك البشر كلهم . . . خبرنى: أين يوجد قصر الملك؟

ونظر الطائر إلى المرأة نظرة يكاد يتطاير منها الشرر، ثم نكس رأسه إلى الأرض دون أن يحير جوابا . .

ومدت المرأة يدها الضخمة فأحاطت بها عنقه، ومدت يدها الأخرى إلى باب المدفأة ففتحته على مصراعيه، فبرزت منـه ألسنة اللهب المحرقة . . . فلـم يلبث الطائر، حين أدرك ماتعنيه المرأة الرهيبة، أن صرخ فى رعب، وصاح فى صوت مرتعش:

ـ سأخبرك يامولاتى، سأخبرك . . . أريد فقط أن تغلقى هذا الباب اللعين!

وأقفلت المرأة باب المدفـأة، وأخلت سبيل الطائر، وأمرته أن يحمـل الفتى على ظهره إلى قصر الملك.

وفى ثوان كان الطائر الضخم يحط بالفتى أمام باب القصر . . فلبس الفتى قبعته،

وانطلق يجوس خلال أبهاء القصر وممراته حتى بلغ حجرة الأميرة . . . وكانت فى تلك اللحظة متكئة على أريكة ، تطرز منديلا من حرير .

ولم تلبث الأميرة أن نادت وصيفتها ، وأمرتها أن تحضر لها قدحا من الماء . وعندما عادت الوصيفة بالقدح ، مرت أمام الفتى المتخفى . . . فمد هذا يده بفرع من فروع النجمة السماوية ، وألقى به فى القدح .

ولمحت الفتاة ، حين همت بالشرب ، فرع النجمة طافيا على وجه الماء ، فأخذها العجب ، ووضعت القدح جانبا ، وأمرت وصيفتها أن تحضر قدحا آخر . وعندما أقبلت الوصيفة ، كرر الفتى فعلته ، وألقى فى القدح بفرع ثان . . .

واضطربت الأميرة ، وانتابها قلق مجهول ، وحملقت فى الفضاء ، ثم هتفت :

ـ هل هنا أحد غريب؟ ليظهر، وليس عليه من عقاب .

ونزع الفتى قبعته ، فهتفت به الأميرة :

ـ من أنت؟ وماذا تريد؟ !

مد الفتى يده إلى جيبه ، وأخرجها فإذا النجمة تتلألأ بين أصابعه . . . وقدمها للأميرة ، وقص عليها قصته منذ بدايتها . . . وحين انتهى منها ، هزت الأميرة رأسها فى إعجاب وأسى ، وقالت :

ـ يالك من فتى شجاع! ولكنك لن تستطيع أن تخطبنى الآن فإن أبى قد خرج لمحاربة بعض أعدائه ، وإن الأنباء لتترى عن هزائمه المتوالية مما يرجح أنه قد لايعود حيا .

وسرعان ما انتفض الفتى ، وسألها عن مكان الموقعة ، ووضع الحذاء المسحور فى قدميه ، واستعد بعصاه العجيبة ، وانطلق إلى الميدان فور أن نطقت له باسم المكان .

ووقف الفتى إلى جوار الملك ، وقال له :

ـ مولاى . . . لقد جاءتك نجدة من السماء ، فلا تبتئس . . . وإننا لمنتصرون .
وغرس الفتى عصاه فى الأرض ، فلم تمض لحظات حتى تبدل الحال غير الحال ، وفوجئ الأعداء بقوى غير منظورة تطيح بجيوشهم ، وتصرع الألوف من رجالهم تلو الألوف . . .
ومضوا عبثا يتلمسون سبيل الهرب ، حتى تم القضاء عليهم جميعا ، دون أن يصاب من جنود الملك أحد .

وعـاد الملك إلى مملكتـه ، تحيـط به أكـاليـل الغار، وتـدق أمـامه طبـول النصر. . .
وبصحبته الفتى الشجاع الذى قرر الملك أن يرغم ابنته على قبول الزواج منه ، وأن يثنيها
عن شرط الحصول على نجمة السماء .

ولشد مـافرح المـلـك فرحـا مزدوجـا ، عندمـا رأى ابنته تستقبلـه وفى يدهـا النجمة
تتلألأ . ولم تمهلـه حتى يستفسر عمـن أحضرها ، وإنما أشـارت فى زهو إلى الفتـى الذى
يقف إلى جواره . وعانقه الملك فى سرور . ولم تمض أيـام ، حتى أقيمت الأفراح فى طول
البلاد وعرضها احتفالا بزواج الأميرة من فتاها الشجاع .

أسطورة إنجليزية
الثوب الخفى

الخديعة . . . طابع واضح ، وصفة لصقت بأخلاق الإنجليز منذ أقدم العصور . . ولا تكاد أسطورة من أساطيرهم تخلو من صورة حية من صور الخديعة والمكر والدهاء . حتى الحكايات الشعبية التى يفخر بها الإنجليز، لا تخلو من هذا الطابع الذى يبدو واضحا فى « الثوب الخفى»

كانت أمور المملكة كلها فى يد الوزراء ، يديرونها كما يشاءون . أما الملك ، فما كان يهتم بهذه الأمور أبدا . . . شىء واحد فقط كان شغله الشاغل وهدف حياته كلها : هو الأناقة فى ارتداء الثياب ، والولع بالبحث عن كل ثوب غريب جديد !

من أجل ذلك لمس الجميع مقدار فرحه ، حين قدم إلى المدينة رجلان ، زعما أنهما أبرع من نسج القماش ، وأمهر من خاط الثياب . وأعلنا فى البلد كلها أن لديهما نولا ينسجان عليه قماشا ليس له مثيل فى جمال ألوانه ، وروعة نقوشه . أما وجه الغرابة والعجب فى القماش ، فهو أن الأغبياء والحمقى إذا نظروا إليه لم يروه . أما الحكماء الذين أوتوا رجاحة العقل ، وذكاء الفهم ، ودقة الإحساس . . . فهؤلاء وحدهم يستطيعون لمسه ورؤيته !

وفرح الملك للنبأ الجديد فرحا شديدا ، وغمره فيض من السعادة والنشوة ، وأعلن لوزرائه عزمه على ارتداء ثوب أنيق من ذلك النسيج العجيب .

وقال لهم ضاحكا فى دهاء :

ـ سأجعل كل ملابسى من ذلك النسيج الرائع حتى أستطيع أن أكتشف كل أحمق غبى من أفراد رعيتى . . . ومن رجال حاشيتى أيضا !

ولم يمض يوم واحد على وصول الرجلين ، حتى كانا بأمر من الملك فى ساحة القصر ، ثم دعيا إلى المثول بين يديه .

وعندما اجتمع الملك بالرجلين ، أوصاهما بأن ينسجا له قطعة فاخرة من ذلك النسيج ، وأن يصنعا له منه ثوبا يصلح لأن يرتديه وحده مع التاج الملكى .

وأبدى الرجلان رغبة صادقة وترحيبا حارا بتلبية طلب الملك، ووعداه أن يتما الثوب خلال أيام قليلة جدا. ولم يهتم الملك حين طلبا منه أجرا غاية فى الارتفاع. . . فقد أدرك من حديثهما أن صناعة هذا النسيج الفاخر العجيب تكلف نفقات طائلة، فلم يضن عليهما بكل ماطلباه من المال، وزاد عليه من كرمه عطاء كثيرا، ليشجعهما على السرعة فى العمل وإتقانه والتفنن فى إبداعه على أكمل وجه.

* * *

استولى الرجلان على تلك الثروة من الملك، وبدلا من أن يبدآ العمل، انطلقا معا إلى منزلهما يضحكان، وأخذا يلهوان بلعب الشطرنج. . . وكأن الوقت لايزال متسعا أمامهما لكى ينسجا الثوب الجديد.

ومضت أيام. . . واستبطأ الملك حضور الرجلين بالثوب، فاستدعى كبير وزرائه، لثقته فى رجاحة عقله، وفيض ذكائه، ودقة إحساسه، وكلفه بالتوجه إلى الرجلين قائلا:

ـ لقد تأخر الرجلان فى إحضار الثوب، فاذهب إلى بيتهما، وانظر إذا كان النسيج قد تم صنعه، وتأكد بنفسك من جمال لونه، وروعة نقوشه!

وأحنى كبير الوزراء رأسه وانصرف. وبرغم إيمانه بأنه أكثر رجال المملكة حكمة، وأرجحهم عقلا، وأصوبهم رأيا. . . إلا أنه امتلأ خيلاء بثقة الملك فيه، واطمئنانه إلى مايتمتع به من فهم وعقل وإدراك. . !

وانطلق الوزير إلى بيت الرجلين. وعندما فتحا له الباب رحبا به، واستقبلاه بحفاوة كبيرة. ومد أحد الرجلين يده فأزاح ستارا أسود لم يكن وراءه سوى غرفة خالية إلا من نول فى أحد أركانها!

وأشار الرجل إلى النول وقال للوزير:

ـ انظر أيها الوزير جمال النسيج. ألا ترى ألوانه البهية، وخيوطه الدقيقة، ونقوشه البديعة؟!

ودار الوزير ببصره فى أرجاء الحجرة، فلم ير غير نول عتيق ليس عليه شىء!

واستبدت به الحيرة، وحملق الرجل فى ذهول، وأخذ يفرك عينيه لعلهما عجزتا عن الرؤية إلا أن النول كان، كما يراه، فارغا. . . لاخيوط، ولانسيج، ولاثياب!

وتذكر الوزير الأول فجأة ماقاله الرجلان من أن الحمقى والأغبياء هم الذين لايستطيعون رؤية الثوب العجيب.

ودار رأسه فى رعب . . . فهل يكون غبيا أحمق، وهو الوزير الذى يدير شئون المملكة كلها، ويحل مشكلاتها، ويرجع إليه الناس فى كل أمر خطير؟!

وحملق الوزير فى النول مرة ثالثة، ولكنه لم ير جديدا. وتملكته الحيرة، وساده الاضطراب، وأدرك أنه لم يكن من حدة الذكاء، أو رجاحة العقل، أو رهافة الحس، كما كان يتصور من قبل. بيد أنه سرعان ماضبط نفسه، وكبت شعوره، حتى لايكشف الرجلان أمر حمقه، ويدركا سر غبائه، فيفتضح أمره، ويفقد منصبه، ويصبح سخرية القصر والناس والمجالس.

وحملق فى النول من جديد. . وبدا فى هذه المرة كمن رأى شيئا، فأظهر إعجابه بما رأى، وقال للرجلين فى ثقة وسرور:

ـ ما أبرعكما، وما أمهر أصابعكما! كم هو دقيق الصنع ذلك الثوب! وما أبهى ألوانه وأروعها! فمتى تنتهيان من نسجه، وتحضران الرداء للملك؟

وأجاب الرجلان:

ـ لايزال أمامنا بضعة أيام أخرى أيها الوزير. فالعمل دقيق، وثوب للملك يحتاج إلى إمعان فى الدقة، وإتقان فى التصميم. . . انظر أيها الوزير إلى هذه الصورة الجميلة التى نسجناها فى وسط الثوب. . تأمل نقوشها البديعة! وهذه الورد الحمراء التى تزين طرفيه. . هل رأيت أجمل منها؟ وهل شهدت أروع من رسم ذلك الطائر الذى يهيم محلقا فى الفضاء؟!

وهز الوزير رأسه إعجابا، وأجاب وقد ازداد إيمانا بغبائه الذى لم يكتشفه إلا اليوم:

ـ حقا إنها لرسوم مبتكرة ذات ألوان جذابة . . . ولا ريب فى أن الملك سيعجب أشد العجب بالنسيج الجميل، وسيجزيكما عن براعتكما وإتقانكما خير الجزاء!

وهم الوزير يريد الانصراف. ولكن أحد الرجلين أشار إلى النول، وقال:

ـ كيف تنصرف أيها الوزير دون أن تلمس بنفسك نعومة النسيج ورقته. اقترب ياسيدى، والمسه بيدك لتتحقق من الرقة والنعومة، ولتصفهما لمولانا الملك!

وتقدم الوزير مترددا، ومد يده إلى حيث أشار الرجل . . . وبرغم أنه لم يلمس شيئا على الإطلاق، إلا أنه بدا كمن يتحسس النسيج فى اقتناع وإعجاب وقال:

ـ حقا . . . حقا . . ما أروع هذا النسيج وأرقه وأنعمه، إننى لأستطيع أن أقسم أننى لم أر فى حياتى ثوبا يضاهيه جمالا ورونقا وبهاء!

وبدا على الرجلين سيماء الفخر والرضا ، وقال أحدهما :

ـ الآن وقد تحققت يامعالى الوزير من إتقاننا لعملنا وبراعتنا فيه . . فهل نطمع منك فى التوسط لدى مولانا الملك ليزودنا بمبلغ آخر من المال ، نستعين به على الزيادة فى الإتقان؟ إن المبلغ الذى أخذناه لم يكد يغطى التكاليف الباهظة للنسيج الفاخر العجيب!

وأجاب الوزير:

ـ إنكما على حق فيما تطلبان! فهذا الثوب يستحق أضعاف ما أعطاكما الملك ، وسأتوسط لدى جلالته لكى يمنحكما ضعف ماحصلتما عليه من قبل . على أن تسرعا فى إنجاز المهمة ، فالملك جد مشوق إلى ارتداء الثوب !

وانطلق الوزير إلى القصر، حزينا كاسف البال لما اكتشفه من غبائه . إلا أنه عندما دخل على الملك أظهر الفرح والسرور، وبدا مبتهجا بما رأى ، وأخذ يروى كيف وجد النسيج ، ويصف ما يمتاز به من روعة وذوق ونعومة وجمال . وعندما انتهى من وصف الثوب ، طلب للرجلين مكافأة كبيرة أخرى تعينهما على سرعة إتمام عملهما الرائع العظيم!!

وفرح الملك فرحا شديدا ، وأمر وزيره الأول أن يمنحهما مكافأة جديدة .

وفى الصباح ، انطلق الوزير الثانى إلى الرجلين ومعه المبلغ الجديد . . . متشوقا هو الآخر لأن يرى ذلك الجمال الذى بهر رئيسه ، والروعة التى أثارت إعجابه!

دخل الوزير البيت ، فوجد الرجلين جالسين إلى نول فى ركن الغرفة ، منهمكين لايكادان يحسان بأحد حولهما . وضرب بقدمه الأرض فانتبها ، وعندما رأياه استقبلاه أحسن استقبال ، ثم أخذا يشرحان له مزايا النسيج الجميل الذى أوشكا على أن يتماه!

وأطل الوزير أمامه ، فلم ير شيئا ، وتأمل أصابعهما وهى تعمل فى غير كلل ، فيما يشبه شد الخيوط وربطها وحبك بعضها فى بعض ووقف حائرا فى ذهول شديد ، وقد داخله الشك فى ذكائه . . بل اعتقد أنه غبى أحمق حصل على منصبه الكبير فى غفلة من الزمان .

وراح الوزير يغبط الوزير الأول على ذكائه ورجحان عقله اللذين أتاحا له أن يرى الثوب العجيب ، ويشهد ما فيه من روعة وجمال . وخشى أن يعرف الناس أنه عجز عن رؤية الثوب ، فيدركوا الفرق بين عقله وعقل زميله ، ويعرفوا أنه لم ينل مركزه الكبير عن

جدارة، فتضيع هيبته، ويفقد مكانته، ويصبح كواحد من الأغبياء والحمقى!

وانتبه الوزير إلى صوت أحد الرجلين يقول له:

ـ ماذا بك أيها السيد الوزير؟ لماذا لاتتقدم فترى النسيج الرائع الذى حظى بسرور الوزير الأول وإعجابه؟

وثاب الوزير إلى نفسه، وأجاب:

ـ لاشىء.. وإنما أتأمل النسيج من بعد لأمتع بصرى بما فيه من آيات الجمال والروعة!

وقال الرجلان:

ـ ما رأيك فى هذه الزهرة التى تشبه ألوان قوس قزح؟ وكيف ترى ذلك اللون الأخضر الممتزج باللون الأحمر فى هذا الطرف من الثوب؟

وأخذ الوزير يهز رأسه فى إعجاب.. فى حين استمر الرجلان فى عملهما وحديثهما قائلين:

ـ وهذه النقوش الذهبية التى تزين حواشى الثوب.. أيوجد لها مثيل فى أثواب الملك الأخرى؟

وأجاب الوزير، وهو ينطلق منصرفا:

ـ نعم.. نعم.. إنها فى غاية من الإتقان والروعة!

وعاد الوزير الثانى إلى الملك يحكى له كيف بلغ الإتقان بالثوب حدا سيجعله أروع الأثواب الملكية وأحسنها جمالا، وأبدعها لونا!

وأخذ الناس يتناقلون حديث الثوب الذى سيظهر به الملك فى حفل ذكرى التتويج. وراح الجميع يتنافسون للحصول على ثوب من هذا النسيج العجيب حتى يظهروا به فى الحفل الملكى. ولم يعد هناك رجل أو امرأة إلا ودفع مبلغا ضخما من المال للرجلين لينجزا له ثوبا من النسيج نفسه وإن كان أقل روعة وفخامة من ثوب الملك.

وكان كل منهم يحسب أنه أوتى من العقل والحكمة ما سيجعله ـ دون رفاقه وجيرانه ـ يشهد النسيج ويحسه، ويمتع النظر برسومه الباهرة.

وغص بلاط القصر، ذات يوم، بجمع حاشد، وأقبل الرجلان ينوءان بحمل

صندوقين كبيرين، أعلنا أن بهما الثوب الرائع العجيب!

ووقف الملك لاستقبالهما، ومن حوله رجال البلاط، والجميع فى شوق زائد إلى رؤية الرداء الفاخر المسحور!

وفتح الرجلان صندوقيهما، وامتدت أيديهما فى حذر إلى قطع الثياب، وبدت أيديهما كأنها تحمل شيئا، ثم طلبا من الملك أن يخلع الرداء الملكى القديم، وتقدما منه، وألبساه الثوب السحرى الجميل!

وقد كانت الثياب سحرية حقا.. فما كان هناك شىء على الإطلاق، وبدا الملك عاريا أمام الجميع!

وهتف الوزير الأول لكى يثبت للجميع مقدار مايتمتع به من ذكاء وإدراك:

ـ ياللروعة! ألا ما أجمل هذا الرداء الأنيق، وما أبدع تلك الصورة المنقوشة فى وسطه، وما أدق الوردة الحمراء التى تزين أطرافه... انظر يامولاى إلى ذلك الطائر الذى يهم بالتحليق فى الفضاء.. ما أجمله وأروعه! إننى لن أكون مبالغا يامولاى إذا قلت إنك لم تلبس رداء ملكيا من قبل أفخم من ذلك الرداء قط!

ولم يكن الوزير الثانى بأقل رغبة من الوزير الأول فى إظهار حدة ذكائه، فهتف هو الآخر:

ـ الحق أن الثوب بالغ الأناقة... ومما يثير عجبى حقا ذلك الإتقان الذى يبدو واضحا فى نسج هذه الزهرة التى جمعت ألوان قوس قزح كلها، وتلك الخضرة المشوبة باللون الأحمر فى الطرف الأسفل من الثوب.. إنه رائع، أكثر روعة مما كنت أتصور وأظن!

وكان كل من فى القاعة من الوزراء ورجال البلاط وأفراد الشعب يحملقون فى دهشة وذهول فما رأى واحد منهم ثوبا يغطى جسد الملك، ولا الزهرة ذات الألوان التى تشبه ألوان قوس قزح، ولا تلك الرسوم البديعة والألوان الجميلة التى يصفها الوزيران... إلا أن كل واحد ممن فى القاعة، حاول أن يخفى حيرته، حتى لايبدو أمام الباقين غبيا أحمق. وراح الجميع يتسابقون فى إبداء الإعجاب، وإطراء الرداء الملكى الرائع، وألوانه البديعة، وإتقانه المنقطع النظير!

ولم يكن الملك أقل حيرة ودهشة من أمر هذا الثوب العجيب، ودار رأسه متسائلا:

- أيغطى جسده هذا الثوب حقا؟

إنه يحس بجسده عاريا لا يغطيه شيء.. !

وقبل أن يفتح شفتيه، تذكر أن الأغبياء والحمقى فقط هم الذين لايرون الثوب السحرى، كما أن إجماع من حوله على وصف الثوب الرائع الذى يرتديه وتفصيل الوزيرين لدقائقه.. كل ذلك أرغمه على السكوت، ثم على الظهور بمظهر المعجب المسرور بالثوب الذى يراه أجمل ثوب ارتداه!

وأخذ الملك بين ثناء الناس على الخياطين وتهنئتهما بالتوفيق فى صنع هذا الثوب البديع... أخذ يسير مختالا فخورا فيما يشبه السرور والبهجة بهذا الثوب الجميل!

وفجأة.. هتف طفل صغير سائلا أباه:

- أين الثوب الذى تتحدثون عنه يا أبى؟ إنى لا أرى شيئا قط.. بل أرى الملك عاريا تماما ليست عليه ثياب!!

وأجابه أبوه، وهو يحاول أن يسكته:

- اسكت يا أحمق لاترفع صوتك... أنا أيضا لا أرى ثوبا قط، ولكنى لا أستطيع أن أعلن للناس أنى غبى!

وهنا ارتفع صوت آخر من ركن القاعة:

- إن الطفل على حق. فليس هناك ثوب قط. وتجرأ صوت رابع فقال:

- تماما... إنى أرى رأيك ياصديق، فليست هناك ثياب!

وتناقل الناس فى سرعة نفس الرأى... ومالبثت الصيحات أن ارتفعت فى القاعة تتساءل:

- أين الثوب... أين الثوب؟ إننا لا نرى ثيابا على الإطلاق!

ووقف الملك ورأسه يدور، وشجعته صيحات الناس، فاتجه إلى وزيره الأول وقال:

- ألا تسمع كلام الناس؟... إننى لا أكتمك أنى أرى رأى الآخرين. إن الثوب الذى وصفته ليس سوى خرافة... فهل ترى عيناك ثوبا حقا؟

وانتفض الوزير، واحمر وجهه خجلا، ومد يده فى سرعة فوضع الثوب القديم على جسد الملك. ثم انسحب خارجا من القاعة فى سرعة، خافض الرأس فى ذهول.

أما الوزير الثانى، فقد انطلق باحثا عن الرجلين، ولكنهما كانا قد اختفيا عن الأنظار، ولم يعثر عليهما أحد قط!

أما الملك . . فقد ارتدى ثيابه القديمة، وتوارى فى غرفته، وأغلق من خلفه الباب.

ويقول الرواة: إن أحدا من الملوك لم يهتم بشؤون بلده، كما اهتم بها هذا الملك منذ ذلك التاريخ.

أسطورة نرويجية
هروب الشيطان

كل فكرة عن الشر، يمكن أن تخطر على الذهن البشرى تمثلت فى صورة من صور الشيطان. ومن هنا احتل الشيطان مكانا بارزا فى أساطير القدماء . . فثمة محاولات كثيرة متباينة لشرح أثر الشر فى الكون . هل هو قوة أصيلة؟ هل هو قوة إيجابية عاملة ؟ هل هو قوة سلبية؟ هل هو انعدام الخير؟ هل هو نقص الخير؟ هل هو عقبة فى طريق الخير؟ هل هو قوة تريد ، وتعمل ماتريد؟

من هنا اختلفت الصور التى ظهر بها الشيطان فى جميع الأساطير.

كان الشيطان يجلس على مائدة منعزلة فى حانة القرية ، وقد تنكر فى صورة عملاق غريب ، أسمر الملامح ، ووضع على رأسه قبعة خضراء تزينها ريشة طويلة زاهية .

وكانت حلبة الرقص أمامه صاخبة فى جنون ، وقد امتلأت بالراقصين من شباب القرية وفتياتها ، والموسيقى ترسل ألحانا مثيرة ، تتخللها بين الحين والحين فرقعة مكتومة ، تنبعث من سدادة جديدة طارت عن زجاجة خمر.

ونظر الغريب إلى جواره فرأى على مائدة قريبة منه عجوزا شمطاء تفرك أصابعها فى ضيق شديد ، لما تلقاه من إعراض الشباب عنها ، وعزوفهم عن مراقصتها . ولم يكن أحد يلتفت إليها ، إلا حين تومئ له فتاته برأسها فى اتجاهها ، وتعقب ذلك ابتسامات ساخرة .

وأخذ الشيطان يرقب العجوز فى تلذذ وفضول ، ولاحظ شفتيها تتحركان فى تمتمة خافتة كأنها تحدث نفسها . . وأرهف أذنيه فسمعها تقول :

ـ آه لو تقدم لى واحد منهم لرقصت معه طوال الليل . . . لا أتركه ولو كان الشيطان نفسه !

وابتسم الشيطان من أعماقه حين سمع هذا التحدى ، وسأل من حوله وهو يشير إليها :

ـ من السيدة الجميلة ؟ !

ولم يهتم أحد بالإجابة عليه . . . فنهض من مكانه، وتقدم إليها، ونظرات القوم تتبعه فى دهشة وعجب. وعندما اقترب منها، انحنى أمامها فى رشاقة وظرف بالغ، وقال فى رقة مهذبة :

ـ هل تسمح سيدتى الجميلة فتمنحنى شرف هذه الرقصة؟

ونهضت العجوز على الفور وعيناها ترمقان كل من فى الحلبة فى شماتة وتحد ، وأسلمت قيادها إلى العملاق الغريب فأحاطها بساعده، واندفع بها إلى وسط الحلبة .

وأخذت العجوز ترقص مع الغريب فى نشاط وحيوية عجز الشبان والشابات عن مجاراتها فيها . . . حتى بدأت حلبة الرقص تخلو من الراقصين الذين أنهكهم التعب . . . إلا الغريب والعجوز. وكلما أحس الموسيقيون بالتعب، قذف الغريب إليهم بقطعة من النقود الذهبية، أثارت حماسهم وجددت النشاط . . فيندفعون فى العزف الصاخب المجنون .

والتف الشبان والفتيات فى دائرة حول الراقصين العجيبين، وقد أذهلتهم قدرة العجوز ورفيقها العملاق الخارق على متابعة هذه الرقصة الثائرة . . . وانتصف الليل، وانتهت الرقصة المجنونة بين تهليل الشباب والفتيات وإعجابهم ببراعة الراقصين. وقاد العملاق رفيقته العجوز بعيدا عن ساحة الرقص، وغابا عن أنظار الجميع فى الظلال الكثيفة بين ثنايا الأشجار. . وظل العازفون والراقصون فى دهشتهم مسحورين بهذه القدرة الخارقة .

وبين الأغصان المتعانقة . . وقف العملاق يناجى صاحبته، ثم تأهب للرحيل. فتعلقت العجوز به مستعطفة، وقالت له فى رقة وعذوبة :

ـ خذنى معك، خذنى معك إلى بيتك!

وأجابها الغريب فى ابتسامة غامضة :

ـ إن بيتى بعيد جدا عن هذه القرية .

ولم تعبأ العجوز بالابتسامة الغامضة، ولا بالرد الغريب، وتشبثت به قائلة :

ـ لاتهمنى هذه القرية قط . وسأذهب معك حتى ولو كان بيتك فى نهاية العالم!

وعاد الغريب يبتسم فى غموض . . وأمسك بذراعيها، وطلب إليها أن تطوق عنقه بهما فى قوة، ثم دق الأرض بقدمه فى عنف، فانشقت، ودوى فى الجو صوت كالرعد،

وأبرقت السماء برقا يخطف الأبصار. . . وقبل أن ينتبه أحد ، كان الشيطان يهبط بالعجوز إلى جوف الأرض .

ودخلا معا إلى الجحيم . . . والشيطان مغتبط بها ملك ، فقد تحدى السماء وجعل امرأة بنى آدم تتبعه إلى الأعماق . وطلب الشيطان من المرأة أن تفك ذراعيها عن عنقه . . . إلا أنها أبت ، ورفضت رفضا باتا . وعبثا حاول أن يضطرها إلى ترك عنقه ، فقد أصرت على أن تظل متعلقة به لاتتركه ، ولا تدع له حيلة فى تخليص عنقه من ذراعيها المعقوفتين !

وبرزت شرايين وجهه من طول الجهد والغيظ ، وانتابه سخط مجنون من نفسه ، وظل يذرع ممرات جهنم طوال الليل والنهار . . . ومضت الأيام والشهور ، والمرأة لاتزال متشبثة برقبته ، كأنها قد صارت جزءا منه ! فلما أنهكه التعب ، لم يجد بدا من أن يطلب العون من إبليس كبير الشياطين .

ونظر إبليس إلى المرأة العالقة بتابعه المسكين ، ثم هز كتفيه وقال :

ـ لقد جنيت على نفسك بيدك أيها الأبله . . . وليس أمامك إلا أن تعود بها إلى الأرض ، وتحاول أن تتخلص منها هناك . أما كيف تفعل ذلك ، وهل ستنجح أو لا . . فهذا ماليس فى مقدورى أن أفتيك فيه !

وصعد الشيطان إلى ظهر الأرض ، والشرر يتطاير من عينيه ، وهو يستنزل اللعنات على رأس المرأة التى لاتريد أن تترك عنقه أبدا .

ومضى الشيطان يذرع الطرقات متنكرا فى هيئة آدمى ، ناظرا هنا وهناك كالمجنون . . . ومر فى طريقه براع يسير وراء غنمه ، وقد ارتدى معطفا من الجلد السميك ، له بنيقة عريضة . . . شأنه فى ذلك شأن كل فلاحى بلدته .

وسار الغريب إلى جوار الراعى صامتا ، منتظرا أن يبدأه هذا بالحديث . . إلا أن الراعى ظل كمن لايحس أن أحدا يسير إلى جواره . ولم يلبث أن أخرج مزماره من جيب معطفه ، وراح ينفخ فيه فى نشوة وانسجام .

وانقضى وقت ليس بالقصير قبل أن يلتفت الراعى إلى الغريب السائر إلى جواره . . . وحين نظر إليه ، ابتسم فى سخرية مريرة ، وقال :

ـ ما أجمل هذه الطريقة الجديدة المبتكرة فى حمل زوجتك !

ورد عليه الغريب حانقا :

ـ أهذا كل مافى استطاعتك أن تقول ؟ ومع ذلك مايعنيك أنت . . . إننا نرحل دائما فى مثل هذه الصورة ، ونفضلها على ماعداها !

وأجاب الراعى فى لطف :

ـ لم أقصد إهانتك ياصاحبى ، وإنما أردت أن أنبهك إلى أن تلك الطريقة متعبة جدا بالنسبة لك .

ولمح الشيطان فرصته ، فقال فى حذر، وهو يتمنى أن يقع الراعى فى الفخ :

ـ صدقت ياصاحبى . . إنها لطريقة جد متعبة ، وإنى لأعترف بأننى فى حاجة إلى فترة قصيرة من الراحة تتعلق هى خلالها برقبة أى إنسان غيرى .

ورد عليه الراعى فى لطف وهو يعود إلى مزماره :

ـ مسكين . . . لشد ما أرثى لك !

ونفد صبر الشيطان ، وكاد يتمزق غيظا وحنقا . ولكنه استطاع فى جهد أن يتمالك نفسه ، ومال على الراعى فهمس فى أذنه بشكواه . وعندما انتهى من سرد قصته ، قال له الراعى :

ـ إن الأمر مؤلم حقا . . . وإنى لعلى أتم استعداد لمساعدتك .

واقترب الراعى من عنق الغريب ، وأدخل رأسه بين ذراعى المرأة بعد أن أخرج العملاق رأسه . . . ولم تعترض المرأة على هذا التغيير مادامت قد ضمنت فى قبضتها رجلا . . . أى رجل !

وكاد الشيطان ينكر أن عنقه قد تخلص من الذراعين المعقوفتين ، فقد تم انتقالهما إلى عنق الراعى فى لحظة خاطفة . وعندما مد كفه يتحسس عنقه اطمأن إلى خلاصه حقا ، ثم أخذ العصا الغليظة من الراعى ، وتمنى له حظا طيبا . . وسار وراء القطيع يرعاه ، وهو يغنى ، ويكاد من فرط فرحته أن يرقص طربا لتخلصه من عناق العجوز الشمطاء . وسار الراعى فى طريق آخر، والعجوز مطبقة على رقبته مستميتة فى الإطباق عليها .

ومضت لحظات . . وتلفت الشيطان فإذا الراعى أمامه وحده ! وفرك الشيطان عينيه غير مصدق ، وحملق فيه مرة أخرى ، فإذا به يتأكد من صدق مايرى . . وفغر فاه دهشة ، وسأل الفتى كيف تخلص من العجوز؟ !

فأجاب الراعى فى بساطة :

ـ لقد ذهبت بها إلى البحيرة، ونـزلت إلى الماء، ثم انسللت من معطفى وهـى عالقة بيـاقته، وتـركتهما معـا فى الماء : المرأة، والمعطف. وهـأنذا قـد جئـت أسترد ماشيتـى، وسوف نعـود معا إلى البحيرة حيـث يكون معطفـى طافيـا على سطحها بعـد أن تخلص بدوره من المرأة، فآخذه وأمضى لسبيلى!

فهتف العملاق فى وجل :

ـــ لا، لا. . لـن نعـود إلى البحيرة أبـدا. دع المعطـف حتـى لاتعـود المرأة فتتبعنـا. وسـأمنحك ضعـف ثمنه. . . بـل ثلاثـة أضعافـه، ولن نـذهـب مـرة أخرى إلى هـذه اللعينة.

وسكت الفتى، وقـد استغرق فى تفكير عميق. ولم يدع لـه الشيطان فرصة للـرجوع فيما انتواه، وقطع عليه تفكيره قائلا :

ـ سـأجزيـك ياصـديقى عـن صنيعك خير الجزاء. . . سـأذهب الآن إلى المدينـة، وأتقمص جسد الأميرة ابنة الملك، وسيثير ذلك ضجـة وفزعا فى القصر، وسيعلن الملك عن مكافأة ضخمـة لمن يستطيع أن يطرد الشيطان من جسد الأميرة، ولـن يتمكن أحد من ذلك بالطبـع، حتى تحضر أنت. . . وما عليك إلا أن تتمتم ببعـض الألفاظ كمن يتلو تعاويـذ سحرية، ثم تميل على أذن الفتـاة وتهمس قائلا : أنا الـراعى. . . وعندئذ سأخرج أنا من جسدها، وتنال أنت المكافأة الضخمة!

ولم يكد الشيطان ينتهى من كلامه، حتى تحول فجأة ليواجه الريح، ثم بسط ذراعيه فى الهواء، وطار فى الجو. . . ولم يلبث أن اختفى عن الأنظار.

* * *

وسار الـراعى يحث الخطـا فى طريقه إلى المدينـة، فبلغها بعد أيـام. وشاهـد الناس أفواجا يملئون الشـوارع والنواصى، وهم فى نقاش وجدال. . . فـاقترب منهم، فسمع الحديث حول قصة الأميرة التى تقمصها الشيطان. ولم يمـض وقت طويل حتى وصل منادى الملك، وأخذ يقرأ على الشعب مرسوما ملكيا يقول فيه :

« لقد أصيبت ابنتنـا المحبوبة بمرض غـريب، وحل الشيطان فى جسـدها الصغير. ولما كان هذا المصـاب يملؤنا حزنـا وغما، ويؤذى عواطف أبـوتنا الملكية، فقد قـررنا أن

نعلـن فى جميع أنحـاء المملكـة أن من يستطيـع أن يطـرد الشيطـان من جسـد الأميرة، وينجح فى شفائها . . . فسيمنـح شكرنا الملكى، ويكون من حقـه الزواج من الأميرة، ويولى حكم نصف المملكة فى حياتى، وله الملك كله من بعدى!!»

وكان عدد كبير من أطباء المدينة، وكهانها، وسحرتها، قد انطلقوا إلى القصر منذ بدأ المنادى طوافه . . . ولكن أحدا منهم لم ينجح فى طرد الشيطان أو فى شفاء الأميرة.

وانطلق الراعى الشـاب إلى القصر، وتقدم إلى رجال البلاط طالبا مقـابلة الملك لأمر هـام يتعلق بصحـة الأميرة، فـأدخلوه على الملـك فورا. وكـان الملـك اليائس الحزيـن كالغريق الذى يتشبث بقشة، فلم يهتم بالملابـس الرثة التى يرتديها الراعى، ولم يلتفت إلى مظهره المزرى . . . بـل أمر بـأن يدخلـوه فورا إلى مخدع الأميرة التـى رقدت هـزيلة، شاحبة الـوجه لاتقدر على الحركة . . . تحملـق فى سقف مخدعها دون أن تعى شيئـا مما يحيط بها.

وطلب الراعى إلى الملك ورجال القصر أن يقفـوا بعيدا فى أطراف القاعة، وتقدم إلى فراش الأميرة، وأخذ يتمتـم بألفاظ غريبة مبهمـة . . . ثم انحنى على أذنها، وهمس فى بطء:

ـ أنا الراعى .

وثارت فى الجو عاصفة مـن الدخان الأبيض الكثيف، وأبرقت القـاعة بضوء يخطف الأبصار، وارتفعت صرخة مدوية أثارت الفزع والـرعب فى قلوب الملك وأتباعه . . . ثم هدأ كل شىء، وسمع الراعى صوتا هامسا يقول :

ـ تذكر . . . لقد كافأتك على صنيعك. وهذه آخر مرة أطيع فيها أمرك !

ودهش الجميع حين رأوا الأميرة تنهض فى خفة ونشاط كـأن لم يكن قد أصابها شىء على الإطلاق. وأخذت تحيى الجميع فى رقـة، وتبتسم لهم فى لطف . . . وانقلب الحزن الشامـل إلى بهجة وفـرح، ولبس القصر حلـة زاهية مـن السعادة، وذاع النبـأ فى أنحاء البلاد فهرع الأهالى أفواجـا أفواجا لتهنئة أميرتهم المحبوبة، وليحتفلوا بزفـافها إلى الراعى الشاب ذى القدرة الخارقة الذى تمكن من شفائها وأوفى الملك بعهده، وولاه على نصف المملكـة . . . فحكمها بـالعدل، وسـاس رعـاياه بـالحكمـة، فأحبـوه، وأخلصوا لـه الولاء . . .

ومضى زمن طويل على ذلك اليوم الـذى غادر فيه الشيطان جسد الأميرة . . ويبدو أنه كـان قد استطـاب جسد الأميرات خـلال تلك اللحظـات التى لابـس فيها جسـد الأميرة . . فقد عـاد ، بعد مضـى هذا الزمـان ، فتقمص جسـد أميرة أخرى مـن بنات الملك فى النصف الآخـر من المملكة . ودار المنادون يعلنـون النبأ فى كل مكان ، وتـوجه رسل الملك إلى زوج ابنته فى نصف المملكة متـوسلين إليه أن يحضر لإخراج الشيطان من جسد الأميرة بسحره القاهر، كما سبق أن فعل مع شقيقتها .

وملأ الزهو نفس الراعى الأمير، واغتر بنفسه ، وكاد أن يستجيب إلى نداء صهره لولا أن تذكر فجـأة همسات الشيطان إليه قبل أن يغـادر جسد زوجته الأميرة فى المرة الأولى ، وخاف أن يفشل فأعلن للرسل عدم استطاعته الذهاب معهم .

وعاد الملـك فأوفـد رسله إلى الأمير حـاملين إليه تـوسلاتـه ورجاءه . . إلا أن الأمير أمعن فى الرفض على كره منه ، بعد أن لم يعد قادرا على طرد الشيطان وإن كان لم يفصح عن عجزه لأحد وسـاء الملك ألا يستجيب الأمير لتوسلاته ، فأرسـل إليه مرة أخرى . . ولكن الرسـل لم تحمل توسلات هـذه المرة ، وإنما حملوا إنذارًا للأمير بـأن الملك سيهاجمه بجيش عرمرم يقضى عليه وعلى مملكته ، إن لم يسارع بـالحضور مع الرسل امتثالا لرغبة الملك . . ليعمل على شفاء ابنته .

وإزاء هذا الإنـذار ، وتحرج الموقف بين الملـك وصهره . . لم يجد الأمير بـدا من أن يودع زوجته ، وينطلق فى طريقه حزينا متألما مكتئبا . . لايدرى ماذا يفعل .

ودخل الأمير حجرة الأميرة المريضة ، وأشار إلى الجميع بأن يقفوا بعيدا عن مخدعها . ثم وقف فى ذهول وحيرة ، متظاهرا بأنه يتلو التعاويذ المقدسة مثلما فعل أول مرة .

وسمع الأمير صوت الشيطان يخاطبه فى سخرية قائلا :

ــ ما هـذا أيها الراعـى؟ . . . أنسيت اتفـاقنـا؟ أهذا هـو احترامك لى ، واعترافـك بفضلى؟ . . . إذن فتحمل مغبة فعلك وعلى رأسك ستقع تبعة الفشل . أما أنا فلن أبرح مقامى هنا . ولننظر ماسيكون من أمرك ، حين يشهد الجميع مقدار عجزك!

ولكـن الأمير، بعد أن فكـر فى الأمر كثيرا ، اهتـدى إلى حـل رأى أن يجربه عسـاه أن ينجـح فى طـرد الشيطـان . وتقـــدم فى ثبـات ومـال على الأميرة وهمس فى أذنها مخاطبـا الشيطان :

ـ ما كنت أحسبك تسىء الظن إلى هذا الحد بعرفانى لجميلك ياصاحبى ، وما أتيت

إلى هنا على عجـل لأن بى رغبة فى شفاء الأميرة . . . فلتـذهب هى وأبوهـا إلى الجحيم وإنما أتيت لأرد لك بعض فضلك على، فقد علمت أن تلك العجوز الشمطاء مازالت على قيد الحياة، وهـى جادة فى البحث عنك، وأكـاد أسمع وقع خطوهـا ورائى عندما علمت أنك فى قصر الملك!

ولم يكد الأمير يتم كلامه، حتى ندت عـن الشيطان صرخة فزع والهة، دوى صداها فى أرجاء القصر، وارتـاع منها كـل من فيه، وتكـاثفت فى الحجـرة سحائب الـدخان، وأبرق الجو بضوء ساطـع بهر الأبصار، وتحطمت نافذة ضخمة كانـت مغلقة، فإذا هى مفتوحة على مصراعيها!

وانتفضت الأميرة من رقادها، وكأنما كانت فى حلم طويل !

ومنذ ذلـك الحين. . . وسكان هذا الجزء مـن العالم يتـوارثون القصة، ويقـولون إن الشيطان لم يحل بجسد امرأة فى مدينتهم قط !

أسطورة روسيـة
ربـة الشـمس والسـاحرة

الأساطير الروسية غنية بمختلف الألوان من دينية، وبطولية، وخلقية، وفكاهية وكل أسطورة من هذه الأساطير تعد مثلا حيا رائعا للقصص الشعبى فى مختلف قطاعات الأرض الروسية الشاسعة التى تضم أجناسا متباينة لكل منها طابعه وخيـاله وتصوره القديم. ومن بين الحكايات الشعبية البارزة حكاية « ربة الشمس والساحرة» التى تمثل لونا شعبيا يزخر بجميع ألوان الأسطورة الأصيلة

كان « إيفـان تساريفتش» ولى العهد الـوحيد لعـرش أكبر الممالك فى تلـك الأرض البعيدة الشاسعة الأرجاء. ومـع أن أباه وسكان المملكة جميعاً كانوا يحبونـه حبا شديدا، ويعطفون عليـه عطفا زائدا . . . فإنـه لم يشعر بالسعـادة أبدا. وكان سر الشقـاء الذى يعانيه إيفان تساريفتش أنه ولد أبكم . وقد بلغ السادسة عشرة ومازال يعانى مرارة هذا البلاء .

وكان يحلـو لإيفان أن يقضـى أوقاته مـع سائس حظيرة الجيـاد. فقد كـان السائس يحفظ كثيرا من الحكـايات الغريبة التى تسرى عـن إيفان ما يشعر بـه من شقاء. . . إذ كان يرى النـاس جميعا يتبادلون الحديـث، وهو عاجز عـن الكلام، مع أنه يسمـع كل شىء ويفهمه!

وذات مساء، انطلـق إيفان إلى الحظيرة، كما اعتـاد أن يفعل كـل يوم، وجلـس إلى السـائس المسن، وأشـار إليه أن يحكـى له قصـة جـديدة. ولكـن السائس كـان يحس انقباضا فى ذلك اليوم، فانفجر باكيا، وقال للصغير:

ـ لم يعد هناك وقت للقصص والحكايات ياإيفان. فبعد أيام قليلة ستلد أمك الملكة طفلة ملعونة، ستتحول مع مر الأيام إلى ساحرة رهيبة تأكل لحوم البشر. وسيكون الملك والملكة أول ضحاياهـا، ثم أهل البلاد جميعا. فإذا كنت يـا إيفان تحب الحياة، فتجنب ذلك المصير الذى كتـب على سكان مملكة أبيك كلهم. . . اذهب يـا إيفان إلى أبيك،

واطلب منه أن يعطيك خير جياده ، وانطلق بـه بعيدا جدا إلى حيث لاتلقى هذا المصير الرهيب!

وأسرع إيفان إلى والده الملك . ولأول مرة فى حياته ، لم يكد يفتح شفتيه حتى انطلقت من بينهما الكلمات واضحة صحيحة .

وفرح الملك بنطق ابنه ، الذى طالما أشقاه بكمـه ، فرحا شديدا ، فاحتضنه فى لهفة ، ولم يحاول أن يستفسر منـه عن سر طلبـه أحسـن الجيـاد فى المملكة وأسرعهـا . . . بـل أجابه إلى طلبه فى الحال ، ومنحه خير الجياد التى يملكها .

وامتطى « إيفـان» الجواد ، ثم انطلق به فى سرعـة لايلوى على شىء ، واندفـع مخترقا الجبال والوديان ، وكأن الجواد فى اندفاعه يطير طيرانا فلا تكاد حوافره تمس الأرض .

ومرت الأيام . . . وإيفان منطلق بجواده ينهـب الأرض على ظهره نهبا ، حتى إذا ما ابتعد آمادا طويلة ، وبدأ الجواد يحس بالجهد ، وينوء براكبه . . . توقف إيفان ، وفوجئ فى اللحظة التى تـوقف فيها بامـرأتين عجوزين تجلسان على الأرض ، وفى يـد كل منهما إبرة طويلة ، وبكـرة من الخيط ، وهما تنسجان ثوبا يبدو أنهما تـوشكان على الانتهاء من نسجه .

ودنا الفتـى من العجوزيـن ، وطلب منهما أن تخفياه فى مـأواهما بعيدا عن السـاحرة الرهيبة . وتبادلت المرأتان النظرات ثم قالتا فى وقت واحد :

ـ كـان يسعدنا لـو استطعنا أن نجيبك إلى مـاتطلب يـابنى . . . إلا أن الوقـت يمر سريعـا ، ولم يبق لنـا فى الحيـاة سوى وقـت قصير ، ثـم يأتينـا ملـك الموت الذى يقـف بالمرصـاد فى انتظار أن ننتهى من نسـج ثوب الحياة الـذى ترتديه الأرض ، والـذى ظللنا ننسجه منذ بدأت حياة الأرض . إن نسـج الثوب سينتهى بعد قليل ، وعندئذ تنتهى حياة الأرض كما تنتهى حياتنا . فاذهب يا إيفان . . . اذهب بعيدا فلن نستطيع أن نحميك . أسرع فربما استطعت أن تبتعد كثيرا لتجد مأوى آخر بعيدا عن سكان الأرض!

وانفجر الأمير باكيا ، ثـم قفز من جديد فوق ظهر جـواده ، وانطلق به ينهب الأرض حتى التقى آخر الأمـر بالعملاق « فرتودول» ، رب الرياح ، وطلـب الفتى من العملاق أن يمنحه ملجأ ، فقال له :

ـ كان يسعدنـى أن أستضيفك يا إيفان ، ولكن الوقـت الذى بقى لى فى الحياة قصير جدا . أنـت تعلم أن مهمتـى هى اقتلاع الأشجـار كلما أسرعت فى هبـوبى واشتـد بى

الغضـب . وقد اقتلعـت معظـم أشجار الأرض ، ولم يعـد أمـامى إلا هـذه الشجيرات القليلة التى تراهـا . وعندما أنتهى من اقتلاعها لـن تكون لى مهمة أخرى على الأرض ، وعندئذ سـأستسلم بـالرغـم منى لملك الموت . فـاذهب يـا إيفان بعيـدا . . أسرع فربما وجدت ملجأ آخر عند غيرى !

وصرخ إيفان ، وانطلق بفرسه مستأنفا هربه . وراح يقطع المسافات الطويلة فى رعب حتى وجد نفسه وجها لوجه مع المارد « فـرتوجار» رب الزوابع . . . وطلب الفتى منه أن يحميه ، فأجابه « فرتوجار» فى أسف :

ـ يؤسفنى يا إيفان أن أعجز عن إجابة طلبك . انظر أمامك فستجد أن الجبال التى تعـودت أن أحمل ترابها فى الجو لألقـى بـه فى أنحاء الأرض قـد انتهـت جميعا ، ولم يبـق أمامى سـوى جبل واحد ، ثم تنتهـى مهمتى على ظهر الأرض . وعندمـا يحدث ذلك ، فسيأتينى ملك الموت فيأخذنى بعيدا جدا . فـاهرب يا إيفان . . . اهرب بعيدا عن هذه الأرض ، فربما وجدت مأوى آخر تختفى فيه !

وبلغ اليأس بإيفان غايته ، فكاد يسقط على الأرض ، إلا أن رب الزوابع أسنده وثبته على ظهر الجواد الذى انطلـق به فى سرعة رهيبة لم يحس بها إيفـان إلا عندما انتبه فـوجد نفسه يسبح فى الهواء ، وقد عجزت عينـاه عن مواجهة النور الساطع الذى كـانت ترسله ربة الشمس من قرص بيتها الكبير.

وأغمض إيفان عينيه ، وقفـز إلى الأمام . وفى اللحظة نفسها كانت ربـة الشمس قد مدت أشعتهـا فالتقطته وحملتـه فى هدوء وأدخلته من البـاب ، ثـم أغلقته مـن خلفه فى سكون .

* * *

عاش الأمير فى بيت ربة الشمس حياة رغدة سعيدة ، ومضت به الأيام دون أن يدرى عددها وذات يوم عـادت به الذاكرة إلى أبيه وأمه ، واغتم غما شـديدا حين أخذ يفكر فى المصير الذى صارا إليه ، وساءل نفسه : هل استطاعت أخته الساحرة أن تقضى عليهما وتـأكـل سكـان مملكتهما جميعـا ، أم إنهم انتصروا عليهـا ، وظلـوا يعيشـون آمنين فى المملكة؟ !

ومنذ ذلـك اليوم بـدأ ستار مـن الحزن ينسدل على وجهـه ، وبخاصـة بعد أن تعـود الجلوس على حافة نافذة بيت الشمس يطل إلى الأرض . وفى إحدى جلساته أخذ يتأمل

الأرض طويلا حتى وقعت عيناه على المكان الذى كـانت تقوم فيه مملكة أبيه . ولما أنعم النظر اكتشف أن المملكة كلهـا قد تحولت إلى خرائب ، ولم يعد هناك شـىء قائم سوى قصر أبيه .

ولاحظت ربـة الشمس آثـار الدموع فى عينـى فتاها رغـم السعادة التـى جهدت أن تحوطه بها . وسألته ذات يوم : ماسبب حـزنك ، وهذه العبرات التى احتقنت بها عيناك من طول ماذرفتا؟

وأجابها إيفان :

ـ لاشىء . . . إنما هو هبوب الريح وأنا جالس إلى النافذة!

وتكرر السـؤال كل يوم . . . وتكرر نفـس الجواب . ولم تجد ربة الشمس بـدا من أن تمنع هبوب الريح بالقرب من بيتها .

وفى اليوم التالى لاحظـت الربة الدموع نفسها فى عينـى إيفان ، وأبصرت الاحتقان فى عينيه . وعندما سـألته لم يعد فى استطاعته أن يكذب ، واضطـر أن يعترف لها بالحقيقة ، وطلب منها أن تـأذن له بالرحيل إلى الأرض ، ليشهـد الأماكن التى ولـد فيها ، وليبحث عن أبيه وأمه . . . فربما كانا لايزالان يعيشان فى قصرهما الكبير.

وعطفت ربـة الشمس على الفتى ، ورأت ألا تحرمـه مما يريـد . وعندما سمحـت له بالـرحيل أعطته زادا ليـأكل منه طـوال الطريق ، كما أعطتـه مشطا وفرشـاة ، وتفاحتين خضراوين قالـت له إن من يأكل منهما يعـود إليه الشباب فى الحال حتى ولو كـان هرما محطما!

وقبل إيفان ربة الشمس التى ودعته حتى الباب . وقفز الفتى على ظهر جواده الذى انطلق يسبح به فى الهواء حتى هبط إلى الأرض .

وقفـل إيفان عـائدا ، وفى نفس المكـان الـذى التقى فيـه مـن قبل بفـرتوجـار، رب الزوابع ، وجد فرتوجار يقترب نحو النهاية ، والجبـل الوحيد الذى بقى أمامه قد أوشك على الزوال .

وأمسك إيفان المشط الذى أعطته إياه ربة الشمس وطوح به فى قوة . . . فإذا بجبال شاهقة تنهـض على الأرض من جديد بعـد أن تحول كل سن من أسنـان المشط إلى جبل عملاق .

وملأت الفرحة قلب فـرتوجار، فقد عرف أن حياته لن تنتهى مـادامت قد عادت له أسبابها، وراح يقفز على قمم الجبال جذلان فرحـا، واستأنف عمله فى وقوة ونشاط بعد أن اطمأن إلى أن ملك الموت لن يقترب منه لكثرة العمل الذى لايزال عليه أن يتمه!

واستمر إيفان فى طريقه حتى اقترب من رب الرياح « فرتودول»، وأطل إيفان فإذا ما بقى أمام الرب ثلاث شجرات يوشك أن يقتلعها، ثم يستسلم للموت.

وتنـاول إيفـان الفـرشـاة التـى أعطتها لـه ربـة الشمـس، وقـذف بها فى قـوة. وفى لحظة . . . امتلأت الأرض بمـلايين من الأشجار. ولم يكد «فـرتودول» يراها حتـى أخذ يرقص من الفرح، واحتضن الأمير فى قوة وشغف، فقد أضاف إلى عمره سنين كثيرة لن يستطيع ملك الموت أن يقترب خلالها منـه مادام العمل الذى عليه أن يؤديـه قد زاد من جديد.

وعاد إيفان فاستأنف انطلاقه فـوق جواده، حتى التقى بالمرأتين العجوزين، وأطل إليهما فإذا بهما تكادان تنتهيـان من نسيج آخر خيـط من خيوط رداء الحياة، وقـد أعدتا عدتهما للاستسلام للموت بعد أن بلغتا من العمر نهايته.

واقترب إيفـان من المرأتين، وأعطـى كلا منهما تفـاحة مـن التفاحتين اللتين أعطتـه إياهما ربة الشمس.

ولم تكد المرأتـان تقضمان التفاحتين حتى تـورد وجهاهما، وعادت بشرتـاهما كبشرتى فتاتين فى العشرين . . . وأطلت كل منهما إلى الأخرى فى حيرة ودهشة لما طرأ عليهما، إذ صارتا شابتين رائعتى الجمال . . . لايزال أمامهما من العمر آلاف من السنوات تستطيعان خلالها الاستمرار فى نسج ثوب الحياة للأرض!

وفى لحظات نسجـت الفتاتـان منديـلا صغيرا، وقدمتـاه للفتى تعبيرا عـن شكرهما لصنيعه، وقالتا:

ـ إذا أحسسـت بأى خطر يـلاحقك، فهـز هذا المنديـل، تنشق وراءك بحيرة كبيرة هائلة.

وأخذ الأمير المنديل، وانطلق فى سرعة يقطـع المرحلة الأخيرة إلى مملكة أبيه. وعندما وصل إليها أطل حوله فإذا المملكـة كلها خرائب تغطيها الجماجم والعظام. أما القصر، فكان الوحيد الذى لايزال قائما فى مكانه، لم يحدث له شىء.

وتقدم الأمير فى بـطء نحو القصر، ووجد الباب مفتـوحا فولجه. وهنـاك ، فى وسط

القاعة الكبرى ، كـانت تجلس شابة ، نهضـت من مكانها عندما رأتـه ، ومدت ذراعيها تستقبله فى سرور كبير، وقالت :

ـ إنك أنت إيفـان تساريفتش . . . أخى الذى يكبرنى بأعوام . أهـلا بك يا أخى ، اجلس هنا على الرحب والسعة . لشد ما أنا مشتاقة إليك بعد طول الغياب !

واستمرت الشابة تبالغ فى ملاطفة الأمير حتـى أنس لها ، وجلسا معا يلعبان الزهر، ويضحكان .

وبعد لحظات . . . توقفت الفتاة عن اللعب ، ونهضت من مكانها ، وقالت :

ـ استمر فى اللعب يا أخى ريثما أذهب لأعد لك إفطارك .

وهز الأمير رأسه موافقا ، واستمر يلعب بالزهر وحده ، بعد أن غادرت أخته القاعة .

ولم تكد تمضـى لحظات حتـى اقترب من الأمير فأر صغير، وأخـذ يتمسح بـه . ومد الأمير يده ليداعب الفأر، إلا أنه سمعه يقول :

ـ اهرب أيها الأمير فى سرعة ، فقد ذهبت أختك لتشحذ أسنانها لتأكلك !

ونهض إيفان من مكانـه ، وانطلق نحو الباب حيث كان الجواد لايـزال واقفا هناك ، فامتطاه فى سرعة ، واندفع به فى رعب وفزع ، فى حين كان الفأر يحرك الزهر حتى لاتشعر الساحرة بتوقف إيفان عن اللعب .

وبعـد لحظات ، انتهـت الساحـرة مـن شحذ أسنـانها ، ودخلـت القاعـة وعيناهـا تقدحان شررا رهيبا ، ولكنها أصيبت بذهول حين وجدت القاعة خالية تماما . . . حتى الفأر، كان قد اختفى فى جحره الصغير!

وزأرت الساحـرة فى غضب شديـد ، وبدت أسنانها مـن خلال فمها المفتـوح مخيفة رهيبة ، وانطلقت مهرولة إلى خـارج القصر، وأطلت فلمحت الأمير يكاد الجواد يطير به وهو ينهـب سطح الأرض فى سرعـة مجنونة وأطلقـت المرأة ساقيهـا خلفه . . . وعنـدما أوشكت أن تلحق به أطل الأمير وراءه ، فأدرك أنه بات فى خطـر شديد . وتذكر المنديل الذى منحته له الفتاتان الجميلتان فأخـرجه وهزه فى يده ، فإذا ببحيرة كبيرة واسعة تنشق عنها الأرض خلفه ، وتفصل بينه وبين الساحرة الرهيبة .

وفوجئت الساحـرة بالماء يحيط بها من كل جانب فراحـت تجاهد وتناضل ، وتضرب الماء بيديها فى جنون مندفعـة فى سرعة إلى الأمام . وحين بلغت الشاطئ ، كـانت المسافة بينها وبين الأمير قد أصبحت شاسعة .

ومع ذلـك لم يهن عزم السـاحرة ، بل دفعهـا الغضب إلى مـواصلة الطـراد فى سرعة مذهلـة . لقد أوشكـت فى لحظات أن تظفر بـالأمير بعد أن أصبح كـل مايفصلـه عنها بضع خطوات!

وكاد الأمير يستسلـم . . إلا أنه حـدث فى هذه اللحظة أن أطـل «فرتـودول» ـ رب الريـاح ـ فأدرك الخطر الـذى يوشك أن يحيـق بالأمير، فأرسـل الرياح عاتيـة فعصفت بآلاف الأشجار، فاقتلعتها فى سرعة ، وألقت بها فى طريق السـاحرة أكواما هائلة مرتفعة كأنها الجبال .

وفوجئت الساحرة بهذه الكتل الهائلة تسد الطريق فى وجهها ، وتعوق اندفاعها . . . ومع هـذا لم تيأس ، بـل أخذت تزيـح الأشجار مـن طريقها فى سرعـة وقوة لتستـأنف مطاردة الفتى الذى اندفع فى عدوه حتى بعدت الشقة بينه وبين الساحرة اللعينة!

وفـرغت المرأة مـن إزاحة الأشجـار مـن طريقهـا ، وزودهـا الغضب بقـوة هائلـة ، فاندفعت تتابع الفتى فى سرعة رهيبة ، وبدأت المسافة تقصر، وأصبحت مرة أخرى على بعد خطوات من الأمير الهارب . . .

وكان «فرتـوجار» ـ رب الزوابـع ـ يطل فى هذه اللحظـة فرأى المأساة التى تـوشك أن تحل بالأمير، فأسرع إلى مجموعة من الجبال وضعها واحدا فوق الآخر، وسد بها الطريق فى وجه السـاحرة .

وفوجئت السـاحرة بهذه العقبة الرهيبـة التى تحول بينها وبين الفريسة ، فلم تستسلم لليأس . . . بـل راحت تجهد فى اجتياز الجبـال فى محاولة أخيرة للإمساك بـالأمير الذى كان قد أحرز قصب السبق ، وبلغ نهاية الأرض ، وبدأ الجواد يطير به فى الفضاء .

وطارت الساحرة خلفه بعد أن نجحت فى اجتياز الجبال الشاهقة .

وارتفع صوت الفتى وهو يقترب من قصر ربة الشمس :

ـ أيتها الربة . . . أيتها الربة . . . افتحى لى نافذتك!

وأطلـت ربـة الشمس مـن نـافـذتها ، فـإذا الأمير لايـزال بعيدا جـدا عـن متنـاول أشعتها . . .

وهتفت الربة الحنون :

ـ أسرع واقفز إلى ميزان السماء الذى تراه أمامك بينى وبين الأرض .

وسمعت الساحرة النداء نفسه . . فصرخت فى أخيها ، وهى تقيس المسافة بين كفتى الميزان السماوى :

ـ لابأس يا أخى . . . اقفز إلى إحدى كفتى الميزان ، وسأقفز أنا الأخرى ، وسنرى من منا أثقل من الآخر !

وأدرك الفتى أنها تريد أن تخدعه ، ولكنه لم يجد مناصا من أن يقفز فعلا إلى إحدى كفتى الميزان ، ووقف فى انتظار هبوطها هى إلى الكفة الأخرى .

وفى اللحظة التى مست فيها قدم الساحرة الميزان ، ارتفعت الكفة الأخرى بإيفان فى سرعة ، وقذفت به وسط السماء إلى حيث قصر ربة الشمس . . . فى حين هبطت الكفة الأخرى بالساحرة التى ازداد ثقلها ، فقذفت بها من حالق . . . إلى حيث لم تعد مرة أخرى إلى الأرض على الإطلاق !

أسطورة تشيكية
حفيد الشيطان

من أسماء الشيطان التى ظهرت فى أساطير العرب اسم « لوسيفر» ومعناه « حامل النور» ، وهو فى أصله اللاتينى اسم الزهرة ، أو « كوكب الصبح المير» . ومن هنا اتجهت بعض الأذهان إلى ربط «لوسيفر» بالأسرار والغيبيات ، وبالوحى الخفى والغرائب . حتى لو لم يكن لها صلة بالشر على الإطلاق بل عدته بعض الأساطير أميل إلى الخير منه إلى الشر

أما الذى يضعونه فى الوسط ، فيقولون إنه يلمع ويختال بلمعانه ، ويبلغ من العجب بنفسه حد السماجة والصفاقة ، فهو الخطيئة الساطعة ، أو الخيلاء المتحجة . . ومن كان كذلك فسقوطه أمل يود الناس أن يتحقق ، وهم لايشعرون له بالرثاء الذى يصاحب المجد المنهار

« اذهب إلى الشيطان ! »

كان هذا هو الدوى الهائل الذى يسك أذنيه ، فلا يسمع سواه فى أى مكان يذهب إليه . . . كان يسمعه فى الطريق ، وفى المدرسة ، وفى المعبد . . . بل وفى بيت أبيه !

ماتت أم « بيتر» ولما يزل طفلا . وسرعان ما أحضر أبوه امرأة من المدينة لتكون ربة البيت وأظهرت زوجة الأب للطفل من أول يوم دخلت فيه البيت شعور العداء الغريزى . . . بالرغم من استقباله لها بمظاهر الحفاوة والفرح البرىء .

ولم يكن يحلو للمرأة شىء قدر ما يحلو لها تعذيب الطفل ، وتحقيره ، والسخرية به ، والتلذذ بالكيد له عند أبيه .

ومضت السنوات ، والطفل ينمو فى هذا الجو الرهيب من القسوة والحقد ، صابرا على الأذى ، متحملا القسوة ، يلوذ بهمه إلى دموعه يذرفها فى نشيج مكتوم ، كلما خلا إلى نفسه .

وكلما مرت الأيام ، ازدادت المرأة قسوة وجبروتا ، حتى أحالت حياة الفتى الصغير جحيما يصلى سعيره ليلا ونهارا . . . فهى تؤلب عليه المدرسين فى المدرسة فيعاقبونه دون ذنب أو جريرة ويذيقونه من العذاب مالايحتمله جسده الضعيف . وفى البيت ، لاتفتأ

تثير عليه غضب أبيه فى كل مناسبة، وتنقل إليه الوشايات عن أخطاء فاحشة، لم تجل يوما فى خاطر الصبى، حتى امتلأ قلب الأب غلا وحقدا على ابنه البرىء المسكين. وفى ثورة من الغضب الجارف أمسك الأب بابنه ذات يوم من عنقه وجره عبر ردهة الدار إلى الباب الخارجى، وقذف به إلى عرض الطريق، وصاح فى ثورة:

ـ اذهب عنى . . . فقد أصبحت لا أطيق رؤيتك!

ووقف الفتى فى ذهول ذليلا يسأل أباه فى حيرة وأسى:

ـ أين أذهب يا أبتاه؟!

فصرخ الرجل الغليظ القلب فى ابنه قائلا:

ـ اذهب إلى الشيطان!

ثم انثنى المزارع إلى الداخل بعد أن جذب الباب فأغلقه فى عنف فى وجه الصبى الصغير!

ومشى الصبى فى الطريق متثاقلا حزينا، وأخذ يتلفت خلفه بين الحين والحين ليلقى نظرات الوداع على مزرعة أبيه التى نشأ فى أحضانها، ولعب فى مراتعها، حتى أصبحت قطعة من كيانه لايسهل عليه فراقها. وكادت الدموع تطفر من عينيه، لولا أن تذكر أنه قد أصبح «رجلا» لا يليق به البكاء!

ومضى فى طريقه مسرعا، حتى اختفت المزرعة عن أنظاره. وعندئذ، استعاد رباطة جأشه، وقوة عزيمته، وامتلأ قلبه ثقة، فقرر أن يشق طريقه فى الحياة دون معونة من أحد.

وبلغ الفتى مع مغيب الشمس قرية، فدخلها وسار فى طرقاتها حتى وصل إلى دار كبيرة تتوسطها، فوقف أمام حديقتها، حيث كان صاحب الدار ـ ويبدو أنه من أثرياء المزارعين ـ جالسا وأمامه منضدة عليها أطايب الأطعمة، وقطع كبيرة من اللحم الشهى . . . ورفع الفتى قبعته يحييه قائلا:

ـ فلنحمد الله جميعا!

وأجاب الثرى وهو يلتهم طعامه بنهم:

ـ إلى يوم القيامة . . . ماذا تريد؟!

قال بيتر:

ـ أستطيع أن أقوم بأى عمل تكلفنى به، فهل أنت فى حاجة إلى عامل نشيط قوى له خبرة بشؤون الحقل؟

فابتسم الثرى ساخرا، وأشار إليه بطرف أصبعه أن ينصرف ، وقال :

ـ أنت . . . ! وبهذه الملابس الجميلة! إنك فى هذه الصورة لاتصلح إلا أن تكون سيدا مترفا يجيد الجلوس إلى المائدة ليلتهم الطعام دون أن يعمل . . ابتعد يافتى، فليس فى مزرعتى مكان لك . .

ولكن الفتى ألح فى الرجاء قائلا :

ـ ولكنى أجيد العمل، فلتجربنى ياسيدى .

فغضب الثرى، ونفد صبره من فضول الفتى وتطفله، وتعطيله عن متابعة الطعام، فصرخ فيه قائلا :

ـ قلت لك اذهب من هنا . . . اذهب أنت وخبرتك إلى الشيطان، فلست فى حاجة إليك!

وأحس الفتى بغصة فى حلقه، وقفل راجعا وقلبه ينوء بالمرارة والهم .

وانطلق قاصدا قرية أخرى، وسأل عن مقر الشريف، ولم تمض لحظات حتى كان يقرع بابه فى رهبة وحذر . .

وفتحت امرأة الشريف الباب، وسألت الطارق فى حدة :

ـ من أنت ؟ وماذا تريد؟

فأجابها فى رجاء وهدوء :

ـ إننى أبحث عن عمل أقتات منه . . . فهل أجده فى مزرعتكم؟ إننى خبير فى شؤون الزراعة .

فتفحصته المرأة، وهزت رأسها قائلة :

ـ انتظر . . إن زوجى يلعب الورق مع بعض أصحابه، فاصبر حتى أسأله . . . واختفت المرأة. ولم يطل انتظار الفتى، إذ سمع صوتا غاضبا يقول فى خشونة وغلظة :

ـ كم مرة طلبت إليك ألا تزعجينى عندما أكون مشغولا . . . ليس لدى عمل لأحد، فأخبرى هذا الوغد أن يذهب إلى الشيطان!

وانسحب الفتى فى هدوء، وسار فى الطريق إلى الغابة، ومضى يخترق مسالكها فى صعوبة . . . وفى رأسه دوامة هائلة من الأفكار السوداء. وبين الحين والحين يطن فى أذنيه صوت له صدى رهيب يردد فى مسامعه كلما توغل بين الأحراش :

ـ اذهب إلى الشيطان . . اذهب إلى الشيطان .

وتكالبت عليه الأحزان، وآلام التعب، ووطأة الجوع . . . فتهالك إلى جوار حجر كبير، واعتمد رأسه بين كفيه، وأطلق لأفكاره العنان . . . ولم يستطع « بيتر » عندئذ كبت دموعه، فانهالت العبرات على خديه فى حرقة ولوعة .

وسمع الفتى وقع أقدام تقترب منه فى هدوء، ورفع رأسه فأبصر أمامه سيدا مهيبا يرتدى ثيابا فاخرة، ويلتف بعباءة موشاة خضراء زاهية اللون . . . اقترب الرجل منه وعلى شفتيه ابتسامة غامضة، ومال عليه، وربت على كتفه فى حنان، وقال فى رقة وعطف :

ـ ما هكذا تكون الرجولة يابنى! لعل أمرا خطيرا يبكيك . قل لى يافتى، فقد يكون فى وسعى أن أخفف عنك .

وكفكف الفتى دموعه، ولاحت له فى حديث الرجل بارقة من أمل، فأجاب فى أسى ظاهر:

ـ إن الناس جميعا يوصدون أبوابهم دونى . . . إننى لا أستجدى ياسيدى، وإنما أبحث عن عمل شريف أعيش منه . وكلما سألت أحدهم أن ييسر لى هذا المطلب، لا أسمع منه سوى الزجر مشفوعا بجواب واحد لا يتغير « فلتذهب إلى الشيطان»! فأين هو الشيطان لأذهب إليه، فقد يكون أرق قلبا من الإنسان! وازدادت ابتسامة الرجل، وبدت أكثر غموضا من ذى قبل، وقال :

ـ رويدك يابنى . . . ألا تخشى الشيطان إذا قابلته؟

فأجابه الفتى على الفور :

ـ دلنى عليه بربك، فلن يكون أقسى على من أبى وامرأته . . . و . . .

ولم يتم الفتى قوله . . . فقد رأى الرجل ينتفض فجأة انتفاضة سريعة، وإذا به يتحول إلى مسخ رهيب : له عينان تشعان فى ظلام الليل وميضا من نار، وقرنان مشرعان فى حدة الرمح المسنون . . . وأشار بمخالبه إلى صدره الضخم، وقال من ثنايا أنيابه

البارزة :

ـ هأنذا أمامك . . أنا الشيطان ! !

وبالرغم من هذه المفاجأة الرهيبة ، فإن الفتى لم يفزع ، وإنما تعجب ، وقال فى هدوء وجنان ثابت :

ـ أحقا أنت الشيطان؟ ! إنه لمن بـواعث سرورى أن تحضر إلىّ فى الوقت الذى أبحث فيه عنك . . أيمكن أن يكون هذا حقيقة ، أم ترانى فى حلم؟ !

إنها الحقيقية يافتى : فأنا « لوسيفر» ، وأنا أرحب بك إن كنت لاتزال على رأيك . ولا شك أنى سأجد لك من الأعمال مايرضى طموحك .

وسأله بيتر:

ـ مانوع العمل الذى يمكن أن أؤديه؟

فأجاب « لوسيفر» باسما :

ـ عمـل بسيط : سـاعاتـه قليلة ، وأجـره ضخم . . إنـه عمل لايليـق إلا بمن كـان شجاعا غير هياب مثلك .

وأومأ بيتر برأسه موافقا ، وقال :

ـ مرحبـا بالعمـل معك يـالوسيفـر . . . هيا بنـا ، فإنـى أتحرق شوقـا لأثبت لـك جدارتى .

فقهقه الشيطان قهقهة صاخبة تردد صداها الرهيب فى أرجاء الغابة ، ومد يده للفتى قائلا :

ـ مرحـى . . مرحى . . سأستبقيك فى خـدمتى سبع سنين ، أمنحك بعدهـا هدية تغنيك مدى الحياة . .

وشـد كلاهما على يـد صـاحبه ، وطـوق الشيطـان حليفه الجديـد ، وضرب الأرض فانشقـت . . فغابا فى أعماقهـا حتى بلغا غيابـة الجحيم . ولفحت الفتـى حرارة السعير المحرق ، إلا أنه غالـب إحساسه ، ولم يبد عليه أنه يعانى شيئـا . . ففى سبيل أن يبتعد عن جحود الناس ، رضى أن يقتحم الجحيم !

وناوله الشيطان عبـاءة من الجلد ، أمره أن يلتف بها جيدا ، وقـاده إلى قاعة واسعة :

تتوسطها ثلاث قدور هائلة ، وتنعقد فوقهـا سحب من البخار تتخللها ألسنة زرقاء من الشرر المتطاير.

وقال الشيطان :

ـ هـذا هو المكان الـذى ستعمل فيـه . . . إن عملك هو أن تمد النـار تحت القدور الثلاث بالوقود حتى تظل مشتعلة دائما . والحذر، كل الحذر، أن تنطفئ جذوتها . . ولو ثوانى . وثمة أمر آخر : إياك أن تنظر إلى داخل قدر من القدور الثلاث .

ووجد بيتر أن المهمة سهلة ميسورة ، فهز رأسه قائلا :

ـ اطمئن ياسيدى . . . ولن أنسى تعليماتك قط .

وشمر عن ساعديه ، ومضى يباشر عمله فى غبطة وسعادة!

مرت الأيام والأسابيع . . وبيتر عاكف على عمله يؤديه فى إتقان ودأب دون أن يشعر بتعب أو ملل ، محافظ على الوعـد الذى قطعه على نفسه : فهو يواصل مد النـار بالوقود دون أن يحاول النظر إلى داخل القدور !

وكـانت الشيـاطين الصغـار التـى تمرح فى أرجاء الجحيـم ، قـد علمـت بوجـوده ، وتوطـدت بينها الألفة ، فكـانت تقضى أغلـب أوقاتها معه : تسليـه بلعبها ، وتعـاونه أحيانا فى عمله حين يشعر بالحاجة إلى شىء من الراحة .

واطمأن الشيطان إلى بيتر، وإلى إخلاصه فى عمله ، فأضفى عليه من ضروب الرعاية والمعاملة الطيبة ماجعل الفتى يشعر وكأنه يعيش فى الجنة لا فى الجحيم!

ومضت السنوات أسرع مما يتصور، وبدأ بيتر يحن إلى حياة البشر، ويشعر بالشوق إلى مشاهدة الخضرة والماء ، وتبادل الحديث مع القرويين . وخطر له يوما أن يسأل الشيطان عن المدة الباقية من السنوات السبع التى اتفقا عليها فأجابه لوسيفر:

ـ غدا . . . تنتهى المدة .

وأصبح الصباح ، وأقبل الشيطان على بيتر يحييه ويشكره قائلا :

ـ لقد انتهـت المدة التى اتفقنا عليها . . وقـد أصبحت منذ الآن حرا . وأشهـد أنك خدمتنى بكل أمانة وإخلاص . . فتمن على ما تريد ، وإنى لك لمجيب .

فقال بيتر:

ـ أريد أن أكون غنيا!

وسأله لوسيفر:

ــ هـل يكفيـك أن تحصـل على أى مبلـغ مـن المال متـى أردت وفى أى وقـت مـن الأوقات؟!

وتهلل وجه بيتر، وقال على الفور :

ـ أجل . . أجل . . هو ذاك .

فقال لوسيفر:

ـ إذن خذ هذا الكيس السحرى، واحتفظ بـه جيدا، فاذا احتجت إلى أى مبلغ من المال، فما عليك إلا أن تفتحه، وتطلب المبلغ الذى تريد، فتجده فى الحال بداخله!

وانبسطت أسارير الفتى . . واستأنف الشيطان قائلا :

ـ أحب أن أنبهـك إلى شىء هام . . إنك ستجـد المتاعب عند عـودتك إلى الأرض، فإن السنوات السبع التى قضيتها فى الجحيم قد سودت بشرتك . ولاتنس أنك لم تغتسل طوال هذه المدة، ولم تقص شعرك أو أظافرك، ومن ثم فإن الناس سيظنونك الشيطان!

وأجاب بيتر ذاهلا :

ـ أجل . . . هذا صحيح . لقد نسيت هذا الأمر ومع ذلك فإن من الممكن إصلاحه حالما أصعد إلى الأرض .

فأجاب «لوسيفر»، وفى لهجته شىء من الرثاء :

ـ إن أى حمام لن يجديك نفعـا، وماء الأرض كله لن يزيل عنـك الأوساخ . فاذهب إلى الأرض كما أنت . . . وعندما تصل، اقرع أول ناقوس يصادفك، فإذا اجتمع الناس حولك، قل لهم إنـك حفيد الشيطان، وإنك عشت معهم كما عشـت معى، فلم تجد فى أرضهم جـزءا ضئيلا من السعادة التـى نعمت بها فى جحيمى . . وسـأراقبك دائما، فإذا وجدت نفسك فى حاجة إلى فنادنى تجدنى إلى جوارك على الفور!

وودع بيتر الشياطين السود الصغيرة، وألقـى بنفسه بين ذراعى لوسيفـر، فاخترق به الجحيـم عائدا إلى سطـح الأرض، وإلى المكان الـذى التقى بـه فيه أول مـرة منذ سبـع سنوات .

واختفى لوسيفر فى باطن الأرض كما جاء، ووجد بيتر نفسه وحيدا فى الغابة، ومعه الكيس المسحور!

ومضى بيتر عائدا إلى قريته، وقد فاض به الشوق إلى لقاء بنى جنسه. وأبصر قوما قادمين فى الطريق، فأسرع نحوهم فى سعادة غامرة. وما إن وقف أمامهم ورفع يده لتحيتهم، حتى دوت فى أذنيه صرخات الفزع، وفر القوم من أمامه، وهم يتعثرون فى خطوهم، وصيحاتهم تخترق الفضاء فى رعب وفزع:

ـ الشيطان . . . الشيطان . .

وأحس «بيتر» بحزن عارم يكاد يعصف به . . . إلا أنه تمالك شعوره سريعا، ومضى فى طريقه غير ملق بالا إلى الناس الذين يفرون منه كلما اقترب منهم، كما لم يعبأ بالنسوة اللائى يجذبن أطفالهن إلى داخل الدور، ويحكمن إيصاد الأبواب كلما رأينه. وتوجه من فوره إلى خان يعرفه. وكان صاحب النزل وامرأته يقفان على بابه فاقترب منهما فى خطو وئيد، وهمس قائلا:

ـ فلنحمد الله جميعا!

ولم يسمع ردا على تحيته، فما إن انتبه الرجل وامرأته إليه، وأبصرا بشاعة خلقته، حتى هرولا إلى الداخل، وأوصدا الباب فى وجهه، وصرخاتهما الفزعة تشق أجواز الفضاء.

ودفع بيتر الباب الذى نسى الزوجان، لفرط رعبهما إحكام رتاجه فانفتح على مصراعيه، وحين ولج الباب رأى صاحب الخان وزوجته مطروحين على الأرض فى غيبوبة.

ومضى الفتى إلى منضدة منعزلة، وجلس بعض الوقت، ثم قام إلى الزوجين، فسكب على رأسيهما كثيرا من الماء حتى أفاقا . . . وعاد إلى المائدة بعد أن أمر الرجل بأن يوافيه بأطيب الطعام وأجود الشراب!

ونهض الرجل مرتجفا يكاد يقتله الفزع، ومضى ليلبى رغبة المارد الأسود الرهيب، فى حين انطلقت زوجته إلى حجرات الخان الخلفية فتوارت فيها.

ونزل الرجل إلى القبو فى خطوات متعثرة واجفة، وأطل من نافذة القبو على حظيرة الجياد، ودعا فى همس أحد الغلمان فى الحظيرة وناوله زقا من الخمر المعتقة، وقال له فى صوت مرتعش:

ــ أسرع بها إلى القاعـة يا «بيريـك» ، فهناك سيـد غـريب ينتظـرها ، ولا تخف مـن مظهره ، فإنه لن يؤذيك!

وصعد « بيريك» بـالزق إلى القاعة ، وتقـدم على مهل . . . ولم يكد يلمح الغـريب الجالس إلى المائدة ، حتى صرخ فى فزع ، وانهارت أعصابه ، فسقـط الزق من يده وتحطم على الأرض ، وسـالت الخمـر على سلـم القبو حتـى وصلـت إلى صاحـب الخان . . . واندفع الغلام هابطا ، وكأنما فى أثره ألف شيطان!

واستقبله الرجل وفى يده عصا ضخمة ، وصرخ فيه :

ـ أهكذا تكسر الزق ، وتريق مافيه من خمر؟ يـالخسارتى ، ويالضيعة مالى! سأخصم ثمنها من أجرك أيها المجرم . . هيا يالعين ، خذ غيرها واصعد بها إلى السيد!

ودفع الرجل الصبى الذى أخذ يصعد السلم حاملا إناء الخمر ، ويجر ساقيه جرا إلى داخل القاعة وهو يتعثر.

وقال بيتر يدعوه فى رقة وحنو :

ــ اقترب أيها الفتى الصغير . . لاتخف ! فـإنى لسـت شيطانـا كما يخيل إليـك . . . اقترب ، لاتخف فلن أوذيك!

وتقدم «بيريك» والرعـدة تسرى فى بدنه من رأسه إلى إخمص قدميـه ، وأحكم قبضته على الإناء خشيـة أن يسقط من يـده ، ووضع الإناء على المائدة محاذرا أن يـرفع بصره إلى وجه السيد الذى يثير منظره الرعب فى أشد القلوب ثباتا .

وسأله بيتر وهو يعب الخمر فى نهم :

ـ من أين لكم مثل هذه الخمر اللذيذة المعتقة؟

قل لى : ما اسمك أيها الفتى ؟!

وأجاب الغلام وعيناه إلى الأرض :

ـ بيريك اليتيم!

فقال بيتر:

ـ ولماذا تعمل فى هذا المكان؟!

فرد الفتى وقد بدأت الرعدة تزايله ، ويحل بقلبه الاطمئنان :

ـ كان على أن أجد أى عمل . . . أى عمل مهما يكن!

وسأله بيتر:

ـ ولكن يبدو لى أنهم لايعاملونك هنا معاملة كريمة . . . أليس كذلك؟

وأنس الفتى إلى السيد، وارتاحت نفسه إلى حديثه، وشعر بالاطمئنان والثقة، وأحس كأنه يتحدث إلى صديق قديم . . . وفعلت رقة السيد فى نفسه فعل السحر، فانحلت عقدة لسانه، وأخذ يحكى قصة حياته، وكيف لجأ إلى صاحب الخان الغليظ القلب . . . الذى يستنزف قواه كلها مقابل خمسة عشر شلنا فى العام!

وأثارت قصة الغلام شجون « بيتر»، وتذكر قصة حياته، وقارن أوجه الشبه بين القصتين، وحملق فى الغلام متأملا معالم البؤس التى تخيم على سماته الحزينة. ولم يلبث أن أخرج الكيس المسحور، وهمس بمبلغ ضخم من المال، وأشار للغلام أن يخلع قبعته، ثم أفرغ فيها الكيس، فامتلأت القبعة بالدوكات الذهبية!

وكاد الغلام يطير فرحا، وهو يرى تلك الثروة الضخمة تهبط عليه من يدى هذا الملاك الكريم، وأخذ يقبل يديه، ووجهه، وثيابه، ثم انثنى يرقص، ويقفز، ويجرى فى كل اتجاه . . . ثم هتف فى سعادة:

ـ إنه ليس شيطانا . . . إنه ملاك كريم. لقد ملأ قبعتى ذهبا . . إنه ليس شيطانا!

وأقبل صاحب الخان مهرولا على صيحات الغلام. ولم يكد يرى الذهب فى قبعته، حتى تبخرت الرعدة التى انتابته فى الهواء، وانقشعت عنه سحابة الجبن التى غشيته، وانقلب هلعه إلى جرأة منقطعة النظير، وقفز سلالم القبو فى خطوات، وعاد فى ثوان يحمل دنا مليئا بخمر معتقة منذ عشرات السنين، فوضعها أمام السيد فى احترام كبير، وقال:

ـ إننى لا أقدم من هذه الخمر لرواد خانى على الإطلاق، ولكنى أقدمها هدية منى إكراما للسيد الذى يشرفنى لأول مرة . . . وأقسم ألا أتقاضى عنها ثمنا!

وأطرب هذا التملق قلب بيتر، فأطلق ضحكة قوية، وقال للرجل:

ـ أعتقد أنى سأجد هنا غرفة ذات فراش وثير، أقضى فيها ليلتى.

فأجابه الرجل:

ـ الخان بجميع حجراته رهن إشارة من طرف بنانك . . . يامولاى!

* * *

لم يكد بيتر يتمدد على الفراش، حتى أحس يداً قـوية تهزه فى رفق. ففتح عينيه وهو يتثاءب، ففوجئ بلوسيفر كبير الشياطين يهمس فى أذنه قائلا :

ـ أسرع إلى الحظيرة يـابيتر. . . إن صاحـب الخان يوشك أن يقتـل الغلام مـن أجل الدوكات الذهبية!

فقفز بيتر من فـراشه فى سرعة، وفى مثل لمح البصر كـان يقبض بيد من حـديد على عنق صاحـب الخان، الذى رفع خنجره الحاد وأوشك أن يغمده فى قلـب الغلام النائم ليستولى على ذهبه. وصرخ الرجـل، وأخذ يئن أنينا مفزعا. وأمسـك بيتر بيده، ودفعه أمامه قائلا :

ـ أيها القاتـل، سأحملك إلى الجحيم، وألقى بك فى الـزيت المغلى، فتظل تصرخ إلى الأبد جزاء جرمك الشنيع!

وما إن سمع الرجل تهديد السيد حتـى خارت قواه، وانهار مغشيا عليه. . . فجذبه بيتر إلى خارج الحظيرة، وعـاد إلى الغلام الـذى هب من نـومه فزعـا على صوت الـرجل الغريب وهو ينذر صاحب الخان. وأدرك الفتى مـاكان يدبره صاحب الخان للاستيلاء على دوكاته الذهبية، فانكب على قدمى السيد يقبلها فى شكر وامتنان.

وخطا بيتر إلى خـارج الحظيرة، ومعه الغلام، وأمـره بإحضار بعـض الماء ورشه على صاحب الخان لإفـاقته. وفتح الرجل عينيـه، ثم استوى جالسـا فى جهد. . . ولم يكد يسترد وعيه، ويـدرك مغبة فعله الأحمق، حتـى هرع صـوب السيد الغريـب والصبى، وارتمى تحت أقدامهما يطلب منهما العفو والمغفرة، ووعد بالتنـازل عن كل أملاكه مقابل ألا يحمله السيد إلى الجحيم. . . فقال له بيتر :

ـ احتفـظ بأملاكـك، وسأعفو عنـك بشرط أن تحسن معـاملة بيريك، وتـرسله إلى المدرسة ليتعلم. . وسوف أنفذ تهديدى فى الوقت الذى يشكو إلىّ فيه الغلام أنك أسأت معاملته، أو تراخيت فى تعليمه!

فقال الرجل وهو يرتجف من فرط الرعب :

ـ أعدك ياسيدى بأن أنفذ كل ماتطلبه، وسأعامل بيريك وكأنه ابنى الوحيد!

لم يغادر بيتر الخان بعد ذلك قط . . . فهو يقيم فى أحسن حجراته ، ويتمتع بأطيب الطعام ، ويشرب أجود الخمور ، ويلقى من صاحب الخان وزوجه خدمة لم يكن يحلم بمثلها . .

وكان لدوكاته الذهبية ، وإنعامه بها على أهل القرية ، فعل السحر فى نفوس الجميع . . . فلم يكن لهم من حديث فى سهراتهم واجتماعاتهم إلا عن السيد الثرى ساكن الخان .

وتواترت أنباء السيد الثرى حتى بلغت مسامع أمير المقاطعة ، الذى كان يعانى منذ وقت طويل ضائقة مالية أخذت بخناقه ، فلم يعد يملك منها مخرجا . . .

وما إن تحقق من قصة النزيل الثرى ، حتى أيقن أنها فرصة اتاحتها له الأقدار ، فإذا فاتته فلن يعوضها مرة أخرى . . . ومن ثم سارع بإيفاد رسول من طرفه يدعو السيد الثرى إلى مقابلته !

واستقبل بيتر رسول الأمير فى سخرية ، وقال له فى حزم صارم :

ـ قل لسيدك إننى لا أذهب إلى أحد . ومن يريد أن يلقانى ، فعليه أن يحضر إلىّ !

وأدار ظهره للرسول ، الذى انسحب فى سرعة من أمامه عائدا إلى مولاه ليبلغه الرد العجيب !

واستشاط الأمير غضبا . . . فهو لم يتصور قط أن أحدا من الخاضعين لأحكام إمارته يجرؤ على رفض القدوم إليه . . بل ويطلب أن يذهب إليه الأمير بنفسه !

وكان « بيتر » واثقا أن الأمير سيحضر إليه مرغما . . . فقد كان يعلم مدى مايعانيه من ضائقته المالية التى أوقعه فيها نزق ابنتيه الكبيرتين ، وإسرافهما فى بعثرة الأموال ، حتى خوت خزائن البلاد ، وأوشك الشعب على الثورة . . ولولا حب الأهالى لصغرى بنات الأمير « انجيلينا » وعطفهم عليها ، لأعلنوا العصيان ضد الأمير ، وخلعوه من منصبه منذ زمن بعيد . فقد كان جمال الأميرة ورقتها وتجاوبها فى محبة الأهالى ، وكرهها لتصرفات أختيها . . . سببا فى تخفيف حدة الثورة ضد الأمير . وكلما فاض بهم الغضب ، طافت بأذهانهم صورة الأميرة الجميلة ، فهدأت ثورتهم ، وصبروا أملا فى أن تنجلى الغمة بوسيلة أخرى . وملأ حديث صاحب الخان عن « انجيلينا » أسماع بيتر ، وأدار رأسه ماسمعه عن جمالها . . . حتى أصبح شغله الشاغل كل مساء ، أن يدعو إليه الرجل ،

ويغدق عليه المال، ويعاقر معه الخمر فى إفراط، ويستدرجه فى الحديث عن انجيلينا . . . وقال له صاحب الخان:

ـ آه ياسيدى لو قدر لك أن ترى جمالها الملائكى الطاهر. . . لا أظن أن فى الوجود من تضارعها جمالا ورقة . وعلى النقيض منها، قبح أختيها الشريرتين الحقودتين . إن أهالى القرية ياسيدى ليتمنون أن يتخلصوا من هاتين الأميرتين فى كل لحظة . إن الحديث عنهما يثير الغضب . . . ألا فليذهبا إلى الشيطان!

واستدرك الرجل حين زل لسانه بذكر الشيطان فضرب بيده على فمه صائحا فى ذعر:

ـ يا إلهى . . . أ . . . أنا . . . لم أقصد .

وقاطعه بيتر ضاحكا:

ـ لا عليك . . فأنا لست الشيطان كما تظن، ولكنى حفيده الصغير!

* * *

واقتربت من الخان ضجة يثيرها وقع حوافر جياد كثيرة، وصليل أسلحة . ولم تلبث الجياد أن توقفت أمام الخان، فقام صاحبه مهرولا لاستقبال الوافدين، ففوجئ بالأمير وحرسه يلجون الباب . وابتدره الأمير فى لهجة متعالية :

ـ أين حجرة السيد الغريب أيها الرجل؟

فانحنى صاحب الخان، وأشار بيده إلى الأمير أن يتفضل فيتبعه . وسار أمامه حتى بلغا حجرة بيتر، فطرق الرجل الباب، ثم دفعه فى رفق، وأومأ إلى الأمير بيده، وانسحب عائدا .

وخطا الأمير إلى الداخل . . . وتوقف بغتة حين أبصر ذلك المخلوق البشع الذى قام ليرحب به . وارتعدت فرائص الأمير، وهم بالفرار. . . إلا أنه تذكر المهمة التى جاء من أجلها، فتمالك، وتقدم ليصافح مضيفه، محاولا أن يبدو ثابت الجنان، رابط الجأش .

وجلس حفيد الشيطان والأمير يتحادثان فى تكلف ظاهر. . . والأمير يحاول التغلب على خجله، وينتظر الفرصة السانحة ليطرق الموضوع الذى جاء من أجله . وعندما بدا أنهما لايجدان مايتحدثان فيه، مال الأمير على مضيفه، وشرح له ماتعانيه البلاد من جراء الضائقة المالية، وطلب إليه أن يعاونه فى علاج الحالة . . . بمنحه قرضا كبيرا يسدد منه

ديون البلاد، ويساهم فى إنعاش اقتصادياتها.

وأصغى إليه بيتر فى اهتمام، ثم قال له فى لهجة حاسمة لاتقبل النقاش:

ـ سأعطيك كل ماتطلب مقابل شرط واحد!

فسارع الأمير وأبدى استعداده لتنفيذ هذا الشرط مهما يكن.

وقال بيتر:

ـ زوجنى إحدى بناتك.

وبهت الأمير، وبدا عليه التردد ... إلا أنه سرعان ماقال:

ـ لا بأس ... ولكن أى بناتى تريد؟!

ـ فأجاب بيتر:

ـ أيهن سواء ... وسأحضر إلى قصرك غدا لأعطيك المال، وأشهد عروسى المقبلة!

* * *

وعاد الأمير إلى قصره، وجمع بناته الثلاث، وأطلعهن على الموقف الدقيق الذى تمر به البلاد، والإفلاس الذى يعانيه وينذر بأخطر العواقب... وأشار فى حديثه إلى الفرصة التى أتاحتها له الأقدار بنزول حفيد الشيطان فى ضيافته، وأفاض فى وصف ثرائه، وأكوام الذهب التى يبعثرها دون حساب... ثم بلغ بالحديث بيت القصيد فصارح الأميرات بقوله:

ـ لقد عقدت اتفاقا مع الضيف لإقراضى أموالا طائلة أسدد منها جميع ديون البلاد وديونى، وتوفر لنا جميعا العيش فى رخاء تام... ذلك كله سيفعله الرجل مقابل أن يتزوج إحداكن.

ومضى يشرح لبناته الثلاث حرج موقفه، والثورة التى بدت نذرها للإطاحة بعرشه، وقال:

ـ إن خلاصى فى أيديكن. إن حفيد الشيطان على درجة من القبح حقا ... إلا أنه إذا قص شعره وقلم أظافره، واغتسل، فسيصبح عندئذ مقبولا لاضير فى الزواج منه!

وكانت الأميرات قد سمعن الكثير عن بشاعة هذا النزيل وقبحه، ففاجأت الأميرتان الكبيرتان أباهما بإعلان رفضهما لهذه الزيجة، وسخرتا من الرأى الذى رآه أبوهما، وأخذتا تلومانه لتضحيته بهما فى سبيل المال!

وحز هذا الجحود فى نفس الأمير، وخاصة من ابنتيه اللتين تسببتا بنزقهما وإسرافهما فى الضيق الذى تعانيه البلاد، وكادت الدموع تطفر من عينيه أسفا وحزنا!

وتقدمت أنجيلينا الصغيرة، فطوقت عنق أبيها بذراعيها، وأعلنت فى شجاعة أنها ستتزوج من حفيد الشيطان مهما تكن بشاعته، وستذهب معه إلى أى مكان.. ولو كان الجحيم!

وأغرقت الأميرتان الشريرتان فى الضحك، وقالتا للأميرة الصغيرة فى سخرية:

- نعم، ياأختاه، فإنك خير من تليق بحفيد الشيطان!

وأمسكتا عن الضحك والسخرية من أختهما.. عندما دخل أحد الخدم مهرولا، وعلى وجهه أبلغ مظاهر الفزع، ليعلن للأمير وصول حفيد الشيطان!

وأسرع الأمير فاستقبل ضيفه، وصافحه فى ترحاب وتكريم، وقاده إلى القاعة الكبرى، حيث جلسا يتحدثان. ودخلت كبرى الأميرات، وما كادت تلمح الضيف حتى تراجعت إلى الوراء فجأة وندت عنها شهقة رعب، واستدارت لتغادر القاعة بأقصى سرعتها وهى تصرخ فى فزع.

ودخلت الأميرة الثانية بدافع من الفضول لترى الذى أثار رعب شقيقتها، ولم تلبث أن عادت فى هلع وعلى قسماتها من مظاهر الفزع والرعب ما أعجزها عن النطق.

وتقدمت أنجيلينا فى ثبات، وولجت باب القاعة، ولم تعد كأختيها صارخة مهرولة.. بل سقطت مغشيا عليها. ولم يطل إغماؤها فقد أفاقت فى سرعة وإن ظلت ترتعد، وقام أبوها فأسندها، وسار بها إلى حفيد الشيطان، وقدمها إليه. وقام بيتر ومد يده فصافحها، وأخذ بين يديه كفها المرتعشة التى هربت منها الدماء فصارت فى برودة الثلج، وقال فى رقة يهدئ روعها:

- لاتخشى شيئا يا أميرتى، فلن أكون على هذه الصورة البشعة دائما... بل سيتغير هذا المظهر إذا ما وثقت بى، واطمأننت إلىّ، وتأكدت من شىء واحد فقط: هو أنى أحبك، وسأظل أحبك ماحييت!

وسرى صوته الرقيق فى أعماق أنجيلينا كالسحر وزايلها الرعب، وأحست بالراحة والاطمئنان، وإن كان قلبها الرقيق لايزال يشعر ببعض الرهبة.

وهم بيتر بالانصراف، وانتحى بالأمير جانبا، وسلمه مبلغا من المال، ثم أعلن أنه

سيعود بعد أسبوع لإتمام الزفاف . .

انطلق بيتر فى الطريق إلى الغابة ، حيث التقى بالشيطان أول مرة . وفى نفس المكان الذى تقابلا فيه ، نادى الشيطان باسمه ، فانشقت الأرض عن لوسيفر ، وعلى وجهه ابتسامة هادئة ، وقال :

ـ لبيك ياحفيدى الصغير . . . أدعوتنى ؟ !

فقال بيتر:

ـ أرجوك يالوسيفر . . . بحق إخلاصى فى أداء مهمتى لديك ، أعد لى صورتى الطبيعية ، وأعدك ألا أضايقك بعد ذلك قط . . . إنى أحب الأميرة أنجيلينا ولا أتحمل أن أراها تقاسى الألم من منظرى المخيف !

وأجابه لوسيفر:

ـ لك ماتريد . . امسك بمعطفى ، وسأذهب بك إلى حيث تغتسل .

وفرح بيتر فرحا شديدا ، وأسرع فتشبث بأطراف المعطف بكلتا يديه ، ولم يلبث أن طار به الشيطان إلى عنان السماء . وأخذ الشيطان يحلق فوق الجبال والوديان ، ويطير فوق غابات كثيفة ذات منظر عجيب . وبعد وقت ليس بالقصير أخذا يهبطان ، حتى استقرا على شاطئ بحيرة تتلألأ مياهها كالفضة ، وقال لوسيفر:

ـ انزل فاغتسل فى هذه البحيرة ، وستخرج منها شابا أكثر بهاء وروعة مما كنت !

واندفع بيتر فألقى بنفسه فى الماء ، وجعل يغطس ويطفو فى فرح وسعادة غامرة . وعندما خرج من الماء كان قد عاد فتى جميلا ناضرا ، أملس الجلد ، ناعم البشرة ، حليق الذقن ، مقلم الأظافر .

وأشار إليه لوسيفر أن يمسك بطرف معطفه ، وطار به حيث أنزله فى مدينة عظيمة . . تموج شوارعها بمتاجر فخمة تعرض أجود أنواع الملابس وأفخرها . ومضى الفتى يتجول بين المتاجر ، وينتقى لنفسه أروع وأبهى مافيها ، واشترى عربة فخمة مذهبة ، تجرها جياد ناصعة البياض ، واستأجر حاشية من الأتباع . . وانطلق فى موكبه الرائع ، قاصدا قصر أميرته الحبيبة .

وكانت الأميرة تطل من نافذتها فأبصرت هذا الضيف يدخل فى موكبه الرائع إلى القصر ، فراعها جماله ، وأعجبت بأناقته وحسن هندامه ، وظنته جاء خاطبا لإحدى

شقيقتيها ، فشعرت بالغيرة والحسرة ، وأخذت تقارن بين جماله الساحر، وبشاعة قبح خاطبها . وبين الحسرات والتنهدات أحست بخطوات تقترب من باب حجرتها ، وسمعت طرقا خفيفا على الباب ، فأذنت للطارق بالدخول . . فإذا الأمير الشاب الذى رأته من لحظات يسرع إليها متهلل الوجه مشرق البسمات ، ويهتف فى سعادة :

ـ أنجيلينا . . أميرتى المحبوبة ، ثم انحنى على يدها يلثمها فى وجد واشتياق .

وتراجعت الأميرة إلى الوراء ، وتملكتها رعدة شديدة ، وتسارعت نبضات قلبها تخفق فى عنف . . وصدى الكلمات يتردد فى مسامعها ، وقالت كمن تحدث نفسها فى دهشة :

ـ لا . . إنه أمر غير معقول! حقا إنه صوت حفيد الشيطان دون مراء ، ولكن . . هذه الصورة كيف . . لا . . لاشك أنى واهمة!

وهتف الأمير الشاب فى صوت رقيق :

ـ إنه أنا يا أنجيلينا . . بيتر . . حفيد الشيطان!

وارتمت الفتاة فى أحضانه ، وترقرقت فى عينيها دموع السعادة . .

وعاشت أنجيلينا وبيتر فى هناءة ورغد ، يحوطهما لوسيفر برعايته . ونهشت الغيرة صدر الأختين الحقودتين ، فأخذتا تنفثان سموم حقدهما حول شقيقتهما للنيل منها والقضاء على سعادتها ، وقد ملأهما الندم على رفض الزواج من حفيد الشيطان ، فلم يكن يدور فى خلدهما قط أنه على هذه الصورة من الجمال والشباب . .

وأدرك لوسيفر أن الزوجين فى حاجة إلى حمايته من هذا الشر، فانقض على الأميرتين ، وأحاط بهما قائلا :

ـ أنا لوسيفر الذى سخرتما به ، ورفضتما الزواج من حفيده ، وسآخذكما معى لأكفى الناس شركما . . لقد تزوجت الأميرة الصغيرة من حفيدى الصغير، وأنتما أكبر منها فلا يليق بكما إلا شيطان كبير!

وما إن فرغ من حديثه ، حتى حملهما على ظهره ، وضرب الأرض بقدمه فانشقت ، فاندفع بالشريرتين إلى أغوار الجحيم!

أسطورة فرنسـية
الكيـس السـحرى

« القديسون والشياطين» عمـد رئيسية فى الأساطير الشعبية التى ابتدعهـا خيال الفرنسيين لعرض الصراع بين الخير والشر، الذى ينتهى دائما بانتصار الخير

وهذه الأسـاطير التى ساهـم بها الفرنسيون فى هذا الميـدان تعتمد موضـوعاتها غالـبا على الكتاب المقدس، وتتمثـل بين جدران الكنائس والمعـابد فى محاولات يقولـون عنها . « إذا ما تصفحتهـا جيدا، لابد أن تستخرج منها أمثلة طيبة . . !»

كان كل مـا خرج به من الجيش، بعـد خدمة دامت بضع سنين، هـو ستة فلسات ورغيف من الخبز!

ومع ذلك فقد قبـل كفه ظهرا لبطن، وانطلق فى الطريق عـائدا إلى قريته، ومن بين شفتيه ينطلق صفير هادئ منغوم!

وبدا له مـن بعيد شيخان يتوكـأ كل منهما على عصا ضخمة، وكـأنهما يحملان فوق كاهليهما أعباء سنين طويلة صاخبة .

وخفت صفير « أيون» وهو يقترب من الشيخين المسنين، وخـف دبيب خطواته كلما اقترب منهما، ولم يكد يواجه الشيخين حتى كان قد سكت تماما!

وتأمله الشيخان لحظات، قبل أن يبتدراه معا فى صوت لايكاد يبين :

ـ أيها الفتى الشجـاع . . . ياذا القلب الرقيق : هـل لك أن تمنحنا شيئا نـأكله؟ لقد عضنا الجوع، وأنهكنا السير، ولم نعد نملك شيئا قط .

وانحنى الفتى الطيب أمامهما، وقال :

ـ أبوى الشيخين . . . إن كل ما أمتلكه ستة فلسات، ورغيف من الخبز، ومع ذلك فلنقتسمها فيأخذ كل منـا فلسين . أما الرغيف فسأتنازل عن نصيبى فيـه، وليأخذ كل منكما نصفه!

وقال الشيخان فى صوت واحد :

ـ لك الشكر الجزيل ، أيها الابن البار. . . إن الله سيجزيك عنا خيرا!

ومضى الشيخان . . . ولم يكونا سوى الإله الطيب ، وكبير قديسيه « سان بيير» !

واستأنف الجندى « أيون» سيره مبتعدا عنهما ، وأخذ يغنى من جديد وكأنه سيد العالم بأجمعه .

ولما بلغ الجبل ، وبدأ فى صعود السفح ، أبصر شيخين آخرين ، لم يدرك عندما اقترب منهما أنهما الشيخان السابقان ذاتاهما ، فقد كانت هيئتهما مخالفة وصورتهما مغايرة!

وابتدره أحد الشيخين قائلا :

ـ أيها الابن الطيب . . . هل لك أن تمنحنا شيئا نتبلغ به ، فما عاد فى طوقنا الحصول على شىء قط؟!

فأجاب الفتى فى عطف ظاهر:

ـ حبا وكرامة ياوالدى ، ولكنى لا أملك خبزا ، إذ التقيت قبلكما بشيخين كبيرين أعطيتهما زادى ، ولم يعد معى سوى فلسين . . . فخذ أنت أحدهما ، ولتأخذ أنت الفلس الآخر.

وشكره الرجلان ، ومضى الفتى فى طريقه يغنى من جديد . .

ونظر الإله الطيب إلى كبير القديسين وقال :

ـ اسمع ياسان بيير. . . إن هذا الجندى لم يعد يملك شيئا قط ، فلنعطه نحن شيئا حتى لايقضى عليه الجوع .

ونادى الإله الطيب الفتى الذى كان قد ابتعد عنهما . فتوقف الفتى عند سماعه النداء واستدار عائدا ، ليعرف مايريدان . . . فقال له الإله الطيب :

ـ أيها الفتى العزيز. . . خذ هذا الكيس فإنك تستطيع أن تحفظ فيه كل ماتريد . وما عليك إلا أن تقول حين تريد أن تحفظ فيه شيئا : أيها المكان الطاهر، باسم الرب ، احفظ هذا بداخلك فى أمان!

وتناول « أيون» الكيس فى دهشة ، وارتسمت عليه علامات التعجب وعدم المبالاة ، ولم يملك إلا أن يشكر الشيخين ، وانطلق فى طريقه ، وكأن لم يزد عليه شىء . . . وما حاجته إلى الكيس ، وليس معه مايمكن أن يضعه فيه؟!

وبلغ فى مسيره نزلا صغيرا، وكان الجوع قد نال منه، فولج الباب فى اندفاع . . . إلا أنه تـوقف فجـأة، وتسمر فى مكـانه، حين تذكـر أنه وهـب كل مـاكان معـه للشيوخ الأربعة، وأنه خالى الوفاض تماما.

وتهالك « أيون» على أقـرب مقعد . . . ورائحة الشواء تملأ خياشيمه فى قـوة أسالت لعابـه، وأجزاء الخراف الطـازجة تتدلى مـن السقف، وتتـأرجح يمينـا وشمالا فى إغراء يخطف بصره، وأمامه مباشرة «دولاب» كبير اصطفت فيه عشرات الأرغفة الشهية.

وأخـذ يفكر فى حيرة : كيـف يمكـن أن يحصل على قطعـة مـن هذا اللحـم، وعلى رغيف أيضا؟! وتذكر فجأة شيئا كان قد غاب عن باله . . . لماذا لايجرب الكيس الذى أعطاه له الشيخان؟

وأخرج الكيس من جيبه، وأمسك به، وقال :

ـ بـاسم الرب، أيها المكان الطـاهر! أريد قطعتين كبيرتين من الشـواء، ورغيفين من الخبز . . . فخذهما واحفظهما فى داخلك فى أمان.

ولشد مـا كانت دهشتـه، عندما قفـز رغيفان مـن الخبز، واستقرا داخـل الكيس، وتبعتهما شريحتان كبيرتـان من الشواء . ومـا إن رأى ذلك حتى نهض مسرعـا فى ذهول، وانطلق حتى وصل إلى نافورة جلس بجـوارها، وراح يلتهم لأول مرة وجبة شهية لم يذق مثلها قط!

واستأنـف « أيون» سيره، بعـد أن استرد نشاطـه، ومضى يـدب على الأرض فى قوة وشجاعة . حتى لكأنه فرقة كاملة من المشاة.

وارتفع صوته بغناء قوى له صدى بعيد :

ـ أنـا « أيون» زعيم الشجعـان . . . لست أرهـب أحدا، ولم يخلق مـن يستطيع أن يرهبنى.

وتجمع أهـل القرية حول الفتـى الفخور، وانطلقوا يسخرون منـه عندما توقـف عن الغناء قائلين :

ـ لو كنـت شجاعا حقا لما جبنت عـن دخول قصر الرعب الـذى لايجرؤ على دخوله سوى الشجعان!

وصاح « أيون» :

ـ لست جبانا . . . أنا أشجع الشجعان . . . خذونى إلى ذلك القصر، وأنا أراهنكم أن أدخله ، وأقضى فيه كل مابقى لى فى الحياة!

وانفجر أهل القرية ضاحكين فى سخرية ، ولكن الضحكات مالبثت أن ماتت على شفاههم حين صرخ فيهم « أيون» بصوت كالرعد تحداهم فيه أن يدلوه على مكان القصر . . وساروا أمامه إلى قصر الرعب الذى مادخله أحد قط وخرج حيا!

وعندما بلغوا القصر، قال « أيون» :

ـ أريد قدرا فيه ماء الحياة تكون معى داخل القصر!

وأسرع أحدهم فأحضر قدرا مملوءا ماء ، تناوله «أيون» ، وخطا إلى باب القصر. ولما رآه الأهالى قد دخل ، عادوا مسرعين .

وبلغ « أيون» القاعة الكبرى ، وتوجه إلى مدفأة فى صدرها ، وأشعل فيها النار، واختار مقعدا مريحا إلى جوار النار، فتمدد عليه ، وأخذ يغنى غناء صاخبا معربدا .

ولم تكد تمضى لحظات ، حتى دوى فى أذنيه صوت رهيب صدر من وسط النار. . . صوت لو سمعه أى إنسان لجمد الدم فى عروقه . ووقف لهوله شعر رأسه . . . قال الصوت :

ـ أطفئ النار . . . أطفئ النار . . . أسرع أيها الرجل وإلا خنقتنى . . أسرع فإنى أكاد أموت!

ولم يتحرك « أيون» من مكانه . . . بل لم يتوقف عن الغناء ، وكأنه لم يسمع شيئا .

وصرخ الصوت الغامض صرخة ثانية . . . فتوقف « أيون» عن الغناء ، وقال فى استهتار:

ـ لتذهب إلى الجحيم ، فأنا لا أهتم بك . . . اختنق ، أو مت ، وليسقط فى المدفأة رأسك!

وفجأة سقط من فوهة المدخنة رأس رجل ، وتدحرج حتى استقر بالقرب من «أيون» الذى تقلصت أصابعه على الكأس المملوءة ماء الحياة!

وصاح أيون :

ـ ابتعد جانبا . . . أتريد أن تقلب الكأس من يدى؟!

ولم يتحرك الرأس من مكانه، . . وارتفع الصوت الأجش العميق مرة أخرى قائلا:

ـ ابتعد واطفئ النار، فإنى أسقط . . . إنى أسقط الآن!

وأجاب «أيون» وعيناه لاتفارقان الكأس:

ـ حسنا فلتسقط كما تشاء . . . أنت الذى تسقط، وليس أنا!

ولم تكد آخر كلماته تتلاشى، حتى سقط من داخل المدفأة، جسد رجل، ثم ساقان، وذراعان . . . وتجمعت الأجزاء حول الرأس، وتشابكت فى أماكنها، فكانت إنسانا قميئا، له حوافر حصان!

ونهض المسخ قائما، وانقض من فوره على الفتى ليقضى عليه فتشبث أيون بالكأس المملوءة ماء الحياة، فطاشت ضربات المسخ، ولم تحدث تأثيرا فى الفتى الذى داخله الرعب، إلا أنه سرعان ما استرد رباطة جأشه، وأخرج الكيس من طيات ملابسه وصاح فى قوة قائلا:

ـ باسم الرب، أيها المكان الطاهر! احفظ الوحش، واحفظه فى داخلك، ولا تجعله يخرج إلا بإذنى.

وفى لحظة . . . كان الوحش داخل الكيس، يضرب برجليه ويديه عبثا فى جوانبه، وخارت قواه، فتوسل فى ذلة ومسكنة قائلا:

ـ رحماك يا أيون . . . اغفر لى، وأقسم لو أطلقتنى ألا أعود إلى هذا المكان أبدا.

فرد عليه الفتى ساخرا:

ـ لاخروج . . ولاغفران!

فعاد المسخ إلى توسله قائلا:

ـ بحق شجاعتك وقوتك . . اعف عنى وأطلقنى. ولك ـ إذا فعلت ـ صندوقان من الذهب.

وفكر أيون، ثم سأله:

ـ وأين الذهب؟

ـ فى الجرن الذى يقع فى مؤخرة القصر.

وعندما أذن الديك معلنا اقتراب الفجر، كان المسخ قد انطلق فى رعب من داخل

الكيس، وتحول إلى دخان كثيف تبخر فى الهواء. أما « أيـون» فقد جلس فى قاعة القصر الكبير الذى أصبح له وحـده، وأخذت أصابعه تعبث بقطع الجواهر والـذهب المتناثرة تحت قدميه.

* * *

عاش « أيون» فى قصره بضعة أشهـر آمنا هانئا، لا يعكر صفو حيـاته شىء. وكان الناس قد تناقلـوا معجزة القديس الطيب الذى سكن القصر، وطرد مـافيه من شياطين وأرواح شريرة.

وكـان الحاكم قـد ضاق ذرعـا بشيـاطين شريرة، تعبـث فى الثكنات، وتثير رعـب الجنود.. فما إن سمع قصة القديس الطيب، حتـى أرسل إليه يستدعيه، ويطلـب منه الذهاب إلى الثكنات لطرد الشياطين العابثة...

وعندما نقل رسول الحاكم رسالة مولاه إلى « أيون»، ثار هذا غضبا. فقد عز عليه أن يغادر الهدوء والهناء اللذيـن نعم بهما. وثم شىء آخر... لقد كـان يخشى أن ينكشف أمره، فهو ليس قديسا ولا يملك القدرة على طرد الشياطين.

ولم يكن أيون ليستطيـع أن يرفض للحاكـم أمرا، وكان لابد أن يـذهب إلى الثكنات التى فر منها أغلـب الجنود بسبب شياطينها المزعجة. وقضى صبـاح يومه دون أن يرى واحدا منهـا... إلا أن الليل لم يكـد يهبط، ويـداعب النـوم جفونـه، وهو راقـد على الأرض، حتـى انقضت عليـه عصبة مـن الشياطين، أحـاطت بـه من كـل جانـب، وهاجمته دفعة واحـدة، وأخذت تخمش جلده بأظفارهـا الحادة، وأمسكت به وصارت تتقاذفه كالكرة.. وتحاوره وتداوره، كما تحاور القطة الفأر قبل التهامه.. وأحس بطنين يـدوى فى رأسه، وسمـع أصوات الشيـاطين الساخـرة، وكـأنما هى صـادرة من آفـاق بعيدة.. تهتف فى احتقار:

ـ أيها الفلاح الوضيع... ما الذى أتى بك إلى هذا المكان؟!

وأظلمت الـدنيا فى عينيـه، رغم النيران الوهـاجة التـى تقذفهـا عيونهم، فتبرق فى وميض يأخذ بـالأبصار، ويحيل الظلمة ضياء صارخ الألـوان... وأحس كأنما جذوة الحياة فيه توشك أن تخمد.

وعندئذ ومض فى ذهنـه شعاع من أمل، فقد تـذكر كيسه العزيز، وتنـاوله فى سرعة وقوة، وهتف:

ـ باسم الرب ، أيها المكان الطاهر، خـذ هذه الشياطين كلها فى داخلك ، ولا تدعها تخرج .

وبدأت القوى السحرية الكامنة فى الكيس ، حتى أتت عليها كلها . وما إن حشرت الشياطين حتـى أطبق « أيـون» قبضته على فوهـة الكيس ، ثـم رفعه ، وأخـذ يضرب به الأرض فى حقـد وثـورة . . . والشيـاطين من داخلـه يصـدم بعضهـا بعضـا ، فتتكسر عظامها ، وتعوى بأصوات مفزعة من هول ماهى فيه من عذاب أليم .

وتعالى صراخها فى الجو، وشقت أناتها أجواز الفضاء . . . وتجمهر أهالى المدينة حول الثكنات ، يشـاهدون القديـس « أيون» ينكـل بالشياطين ، وهـى تسترحمه وتستعطفه ، وتطلق عليـه أعظم الألقـاب . . . والفتى مافتـئ يسومها سـوء العذاب ، ويـرفض أن يرحمها مالم تقسم بألا تعود إلى هذا المكان . . . بل إلى المدينة بأجمعها أبدا!

وأذعنت الشيـاطين صاغـرة . . وما كاد الفتـى يفتح الكيس ، حتـى اندفعـت من فوهته والرعب يأخذ بألبـابها . وحين أحست بأنها حرة طليقة تحولت إلى ذرات من غبار تطايرت فى الهواء! ولكنها فى رحيلها ، لم تنس قط حقـدها المرير على هذا الإنسى الذى أذاقها ويـلات العذاب ، فتـوجهت من فـورها إلى كبير الأبـالسة « بعلشبـول» وروت له قصتها ، وما لاقته من جبروت هذا الفتى الذى فاقت قوته قوة شياطين الأرض مجتمعة .

وبينما « أيون» مستلـق على أرض الثكنات يبغـى شيئا مـن الراحـة بعدمـا بذلـه من جهد ، إذ أبصر بكبير الأبالسـة قادما نحوه ، ولم يكـد يستقر أمامه حتـى ابتدره « أيون» بصوت زلزلت له أرجاء المكان :

ـ ما الـذى أتى بك إلى هنا أيها التعـس؟ ! ألا تعلم أن هذا المكان مخصـص لثكنات الجنود؟

فلم يمهله كبير الأبالسة ، وانقض عليه فى سرعة خاطفة ، وقال :

ـ سنرى أيها اللعين من صاحب هذا المكان؟

واشتبكا فى معركة طاحنة كانت نتيجتها معروفة . . فما كان لإنسى مهما تكن قوته أن يصـارع شيطانـا . وأوشـك « أيـون» أن يستسلم بعـد أن فشـل مـرتين فى الوصـول إلى الكيـس . . . إلا أن فرصـة خـاطفة لاحـت له فقبـض على الكيـس فى قوة وصرخ مـن أعماقه :

ـ باسم الرب ، أيها المكان الطاهر! احفظ هذا الشيطان ، فلا تدعه يخرج إلا بإذنى!

وأحس كبير الأبالسـة بقبضات من فولاذ لايستطيـع منها فكاكا ، تضغـط على عنقه وذراعيه ورجليه ، وتـرفعه فى الهواء فى بساطة وسهـولة . . فخارت قواه ، وأحـس بضآلة قوته إلى جانب تلك القـوة القـاهرة . . . وأخيرا وجد نفسـه حبيس سـجن لا خـلاص له منه!

ثم انهالت عليه اللطمات فى جبروت وقسوة أطاشا صوابه ، وأخذ يستغيث من شدة الألم طالبا الرحمة مستعطفا ، وارتفع عويله ونواحه ، وقال من خلال الدموع :

ـ اعف عنى أيها القـديس الطيب ، وسأترك المكان ، فلا أعـود إليه أبدا ، ولا أسمح لشيطان من اتباعى بدخوله قط .

وكف « أيون» عن تعذيبه ، وصرخ فيه بصوت كهزيم الرعد :

ـ أقسم على قولك يالعين .

ـ أقسم . . أقسم . . .

ففتح « أيون » الكيس . . فانطلق الشيطان منه هاربا لايكاد يصدق أنه نجا .

وانطلق الفتـى عائدا بعد أن انتهـت مهمته . . . والتقـى فى الطريق إلى قصره بـأحد الشيخين اللذين منحاه الكيس . وابتدره الشيخ فى صوت هادئ عميق قائلا :

ـ أى « أيون» أيها العزيز . . . لقد جئت أحذرك ، فانتبه جيدا إلى ماأقول .

واضطرب « أيون» ، وأجاب فى صوت خفيض :

ـ ماذا هنالك يا أبى؟

ـ عندمـا ترجع إلى قصرك . . هيئ نفسك ، وجهـز نعشك ، فقد حانـت ساعتك ، وسيأتيك الموت وشيكا . . . وستجدنى فى انتظارك فى السماء!

وانتفض « أيون» ، وأخذ برهبة الموقف . . وإذا به يجيب دون وعى فى خشونة :

ـ ومـن تكون أنت يـانذير الشؤم؟ ولماذا تـرهبنى بهذا القول؟ ومـن أين لك بمعـرفة قدرى وساعة موتى؟

فأجابه الشيخ فى صوت حاسم رقيق :

ـ مـن أنا ؟! حسنا يا « أيـون» . . . أنا إلهك وخالقـك . فإن كنت قد منحتـك هذا الكيس ، فلأنك كنت طيبا مهذبا .

وركع «أيون» من فوره بين قدمى مولاه، وتضرع إليه فى خشوع:

ـ عفوك ورحماك يامولاى . . . ماكنت أعرف من أخاطب!

ورفع رأسه والدموع تترقرق فى عينيه، وقال لمولاه:

ـ أتوسل إليك، يا إلهى، أن تبعث إلى بالموت أولا ليعلمنى كيف أصنع نعشى . . فإن صراعى الطويل مع الشياطين والأبالسة، لم يدع لى وقتا أتعلم فيه كيف أستعد للقاء الموت!

ـ لك ذلك يا «أيون».

وحضر الموت «أيون» وهو جالس فى قصره يترقب، ولما رآه ابتدره قائلا:

ـ لقنى أيها الموت كيف أصنع نعشى؟!

فأجابه الشيخ الماثل أمامه:

ـ ماذا؟! ألا تعرف حتى الآن كيف تصنع نعشك؟! آه . . . حقا. لقد ذكر لى الإله شيئا عن ذلك.

وأخذ يشرح لأيون كيف يختار ألواح الخشب، وكيف يضم بعضها إلى بعض، فيصنع منها صندوقا . . . وتلقف «أيون» هذه التعليمات فى سرعة، وأخذ ينفذها فور صدورها . . فما إن انتهى الموت من شرحه حتى كان النعش جاهزا.

وقال أيون للموت:

ـ والآن . . أخشى أن تكون بين الألواح فجوات ينفذ منها الهواء إلىّ، أو أن يكون تثبيت المسامير غير متقن، فأسقط من النعش فى أثناء حملى . . . فهلا جربته أولا ليطمئن قلبى، وأذهب فى رحلتى آمنا؟!

ودخل الموت الصندوق، وتمدد فيه، وأخذ يبدى إعجابه بإتقان صنعه ومتانته. وانتهز «أيون» فرصة تمدد الموت داخل النعش، فأسرع إلى غطائه وثبته فوقه، وانهال فى ضربات قوية يدق مساميره الضخمة ليحكم إغلاقه، ثم ضحك ساخرا، وقال:

ـ أيها الموت العزيز . . . لن تخرج من هذا الصندوق إلا إذا بعثت والدى المسكين إلى الحياة!

وحمل الصندوق على كتفه، ومضى به إلى النهر.

ونفض يديه بعد أن ألقى به فى الماء، وقفل راجعا، ليستقبل الحياة، ويعب منها ماشاء من المتعة . . وقد أيقن أن الموت لن يعود إليه مرة أخرى.

ومضت أيام وشهور وسنوات، نسى «أيون» خلالها قصة الصندوق والموت الغريق. وفى خلال هذه الحقبة، كان الشر قد ملأ الأرض، وأخذ يعيث فيها فسادا... فما عاد هناك موت يضع حدا للفساد والمفسدين، وبلغ الأمر بالناس أن أصبح يأكل بعضهم بعضا.

وضاق «أيون» على مر الزمن ذرعا بتلك الحياة الخالدة التى يحياها، وتذكر ماقاله له الإله عندما التقى به، من أنه سيكون فى انتظاره عندما يصعد إلى السماء، فقرر أن يصعد إليها على الفور.

وانطلق إلى السماء، فوجد باب الجنة موصدا فى وجهه. وحاول أن يفتحه، فاجتمعت عليه الملائكة، وأخذوا يدفعونه دفعا، ثم قذفوا به من حالق.

وثار غضب أيون، وأمسك بكيسه، وصاح صيحته الهائلة:

- باسم الرب، أيها المكان الطاهر! احفظ عندك كل الملائكة، فلا تخرج إلا بأذنى.

وفى لحظة... كانت الملائكة داخل الكيس. فحمله أيون، وانطلق إلى الإله فروى قصته، واختتم حديثه بقوله: والآن يامولاى إن كل ما ألتمسه هو أن أصعد إلى السماء، وأدخل الجنة كما قلت لى.

واستجاب الإله لتوسلات «أيون»، وأدخله الجنة، وأطلق سراح الملائكة، وأخرج الموت من أعماق النهر... ليستأنف العالم حياته من جديد!

أسطورة من الدنمـرك

الكـــــنز

أساطير الدنمرك ذات صلة وثيقة بأساطير أيسلندا منذ أقدم الأزمنة ولم تحظ الأساطير والحكايات الشعبية الدنمركية باهتمام العالم حتى القرن التاسع عشر، برغم أن تاريخها يرجع إلى أكثر من ألف عام

ومن أشهر من أحيا أساطير الدنمرك فى القرن التاسع عشر « هانس كريستيان أندرسن» الذى أتحف العالم بأساطير وحكايات كانت مدفونة منذ أمد بعيد، و«مايـر جولد سميث». ومن خلال الأساطير التى أحياها هذان الكاتبان أخذ الأدب النرويجى الحديث كثيرا من روائعه التى أبدعها هنريك ابسن، وبيورنسون، ثم كنوت همسون، ويوهان بويار

كانت المفاجأة شديدة الوقع على نفسه . . . فما خطر بباله قط أن كنزا من الذهب والفضة يمكن أن يقع فى يده بمثل هذه السهولة. ومع ذلك حاول ألا يبدو على وجهه شىء يمكن أن يكشفه أمام زملائه الفلاحين ، فظل يضرب الأرض بالفأس، ويغطى بالتراب فى سكون ذلك الصندوق الحديدى الذى يضم الكنز العجيب . . . ذلك الصندوق الذى اصطدمت به فأسه وهو يحرث الأرض، فظنه أول الأمر قطعة من الحجر فكاد ينتزعه، ولما اكتشف أنه صندوق أسرع فأهال عليه التراب من جديد.

ولما حان موعد ذهاب الجميع، بدا الفلاح الفقير وكأنه لم يكمل حرث الجزء الذى كلف به. وظل بعد انصراف زملائه يحرث بعض الوقت، ولم ينحن على الأرض ليأخذ الصندوق إلا عندما اطمأن إلى أنه وحيد. وحمل الصندوق المملوء بالذهب والفضة، ومضى مرتاح الضمير تماما، فقد كان يعتقد أن الكنز ملك له وحده، لأنه هو الذى اكتشفه، ولأن صاحبه قد مات منذ زمن بعيد دون شك. . . إذ كانت حالة الصندوق تدل على أنه دفن فى الأرض منذ أمد طويل!

وقرر الرجل ألا يكشف أمر الكنز حتى لايستولى عليه صاحب الأرض. ولكنه حين

قـرر ذلك، لم يخطـر ببـاله أن يكتـم الخبر عـن زوجته . ولما أنهى إليهـا القصـةـحذرهـا وأوصاها بالكتمان الشديد .

وكما تفعل النسـاء جميعا على هـذه الأرض، حرصـت المرأة على كتمان الأمر إلا عـن قليلات جدا من صديقاتها . وكذلك حرصت كل واحدة من الصديقات على أن تخفى النبأ إلا عن صـديقاتها المقربات، وهى توصيهـن بالكتمان الشديد! وكان لابـد ـ نتيجة لهذا « الكتمان» الموصى به! ــ من أن يذاع سر الكنز وينتشر حتـى يصل ـ وفيه مبـالغة تزيده أضعافا ـ إلى أذن السيد صاحب الأرض .

وذات يوم سمعت زوجة الفـلاح طرقا شديدا على باب دارها، وفـوجئت ـ لأول مرة منذ أقامت هى وزوجهـا فى المزرعة ـ بالسيد يدخل عليها فى غضـب وثورة شديدين . وأخذ يهددها هـى وزوجها، ويتوعدهما بـأقسى العقاب إذا لم تبح لـه بسر الكنز الذى عثر عليه زوجهـا . وكان الزوج قد ذهـب إلى السوق ليحاول صرف بعض النقـود، فلم تستطع الـزوجة الوحيدة أن تصمـد طويلا لتهديـدات السيد، فارتعش بـدنها وخارت قواها، وانطلق لسـانها يحكى للسيد كل شىء، ويؤكد لـه أنها لاتعرف شيئا عن مصير النقود، ولا أين يخفيها الرجل المسكين .

* * *

واستـدار السيد عـائدا إلى قصره، وأخبرها أنـه سيعود إليهـا متى رجـع زوجها مـن السوق .

وظلت المرأة فى مكـانها ترتعـد . وعندمـا دخل عليهـا زوجها، انهارت على قـدميه تبكى، وتحكى كيف انتزع منها السيد سر الكنز!

وانتفض الرجل . . .

ولكنه سرعان ماكظـم غيظه، وسيطر على اضطرابه، واستدار خـارجا من الدار فى سكون إلى حيث كان جـواده فأسرجه، ثـم دعا زوجته إلى ركـوب العربة، وانطلق بها فى الطريق إلى المدينة .

واستبد بالمرأة الخائفة شعور مبهم بأن زوجها سينتقـم منها جزاء ماصنعته من إفشاء سر الكنز، فزاد اضطرابها وخوفهـا، وظلت ترتعد وترتعش حتى فوجئـت بزوجها يقف بالعربة أمام باب مطعم كبير، ويطلب منها فى سكون أن تتبعه .

ودهشـت المرأة حين دعـاها زوجهـا للجلـوس إلى مـائدة لم تجلس إلى مثلهـا قـط، وازدادت دهشتها حين طلب لها وجبة شهية وشرابا لم تذق مثله من قبل .

وجلست المرأة تأكل وتشرب!

أما هو فقد استأذنها لحظات ، ومضى فأخفى نقوده كلها فى مكان أمين ، ثم عاد حاملا فوق كتفه جرابا كبيرا مملوءا بفتات الخبز. . !

* * *

أقبل المساء ، وصفرت الريح ، وبرد الجو ، وتساقط المطر. . . وأخذت العربة تشق الطريق بالزوجين خلال عودتهما من المدينة إلى المزرعة . ولم تكن المرأة قد اعتادت تناول مثل هذه الوجبة الشهية ، ولا شربت مثل ذلك الشراب القوى ، ولا رحلت مثل تلك الرحلة الطويلة . . . فنال منها التعب والجهد ، واستسلمت على الرغم منها ، داخل العربة ، لنوم عميق!

وفجأة استيقظت مذعورة إثر ضربة قوية على رأسها. فأخذت تتحسس رأسها ، وتنظر حواليها . . ولشد ما دهشت حين تبينت أن الذى أصاب رأسها لم يكن سوى قطعة صغيرة من الخبز.

ولم تعر الأمر اهتماما واستسلمت مرة أخرى ، تحت تأثير التعب والإجهاد ، للنوم . . إلا أن نومها لم يطل ، فقد أيقظتها ثانية ضربة جديدة ، لم تكن أيضا سوى قطعة من الخبز سقطت على رأسها. ولم يكن فى مقدورها ، لما بها من تعب أن تفكر فى الأمر، فاستسلمت من جديد للنوم. ولكنه لم يكن نوما هادئا فما لبثت الضربات التى تصيب رأسها أن توالت دون أن تدرى مصدرها ، وإن عرفت أنها نتيجة لسقوط كسرات الخبز على رأسها. ولم تعد تحاول أن تبحث عن مصدرها . . . فقد كان كل مايمر برأسها منها أنها تنهال عليها من حيث لاتدرى. . . !

وحين فرغ مافى جراب الفلاح من كسرات الخبز، واستعادت الزوجة هدوءها ، حملقت فيما حولها ، ثم هتفت :

ـ ما الذى يجرى حولى؟ أفى حلم أنا أم فى حقيقة؟ أيمكن أن تمطر السماء خبزا؟!

وأجابها زوجها :

ـ أجل. . . شىء غريب حقا ، ولكنه صحيح . فقد كانت العاصفة رهيبة ، وكان الخبز ينهمر علينا فى وابل عجيب!

وأحست المرأة راحة بعد أن اطمأنت إلى سلامة تفكيرها . واستسلمت للنوم من جديد . . . والعربة تنهب الطريق فى سرعة .

وفى أثناء مرور العربة إلى جوار قصر السيد ، استيقظت المرأة فجأة على صوت نهيق منكر.

وتلفتت مذعورة ، وصرخت :

ـ ماذا أسمع ؟ من أين تأتى هذه الأصوات المنكرة ! ؟

وهمس زوجها فى أذنها قائلا :

ـ صه يا امرأة ! حذار أن يرتفع صوتك فيسمعك .

ودهشت المرأة لتحذير زوجها ، وأخذت تستفسر منه فى صوت مرتجف خفيض . وأجابها الزوج فى همس :

ـ لم أكن أحب أن أخبرك . ولكنى أجد نفسى مضطرا أن أفضى إليك بالحقيقة كلها مادمت قد سمعت بنفسك صوت النهيق .

وازداد صوت الرجل خفوتا ، وهو يسر إليها بقوله :

ـ إن ذلك الصوت المنكر هو صوت السيد . . فقد جاءه الشيطان يحاسبه على مال كان قد استدانه منه منذ وقت طويل . . ولما رفض السيد سداد الدين أو دفع فوائده ، انهال الشيطان عليه بالسوط ، فأخذ يصرخ من ألم الجلد . . ومع ذلك رفض سداد الدين !

ـ الشيطان ! يالله . . . أسرع بنا بعيدا عن قصر السيد ، فقد يحاول الهرب من القصر ويتبعه الشيطان فيرانا !

ورفع الرجل سوطه ، وأخذ يلهب به ظهر الجواد ليحثه على الإسراع ، ثم انثنى يحاول جاهدا تهدئة رعب زوجته . وعندما بدأ الهدوء يعود إليها ، أخذ يحدثها من جديد :

ـ اشكرى السماء يا امرأة ، لأنك لم تسمعى سوى ذلك النبأ . فلو كنت مكانى ، وعرفت النبأ الآخر ، لظللت ترتعدين رعبا حتى الموت !

وجحظت عينا المرأة وهى تتوسل إليه أن يخبرها . وتمنع الرجل ، ثم تظاهر بالاستجابة إلى رغبتها مضطرا ، وقال :

ـ لقد تخطت جيوش الأعداء حدود البلاد . وجاء رسول ليخبر أهل المدينة أن الأعداء سيكونون هنا الليلة . لقد سمعت النبأ ونحن لانزال هناك ، ولكنى لم أشأ أن

أزعجك حتى نعود إلى البيت ، إذ يجب أن نختبئ فى القبو. أما أنا فسأ صعد إلى السطح ومعى بندقيتى لأدافع عن الدار إذا حاول الأعداء أن يلجوا بابها ، ولن أستسلم حيا قط !

ولم يكد الرجل ينتهـى من حديثه حتى انهارت المرأة فزعا واضطـرابا . . . ولم يكن بد بعد ذلـك أن تهبط مـن العربـة عندما بلغـت الدار، وقـدماهـا لاتكادان تقـويان على حملها ، فاستندت على ذراع زوجها ، فهبط بها إلى القبو.

أما هو فقد أعد بندقيته أمامها ، وأخذ معه الذخيرة ، ثم صعد إلى سقف الدار ليبدأ مهمة الدفاع !

* * *

لم يمض من الليل إلا قليل حتى سمعت المرأة طلقات الرصاص تتوالى بلا انقطاع ، والضجيج والجلبة يهزان أركـان الدار. . . وكأن المعركـة التى تدور لا تريـد أن تنتهى . واستمر الأمر على ذلـك حتى الفجر، حين فوجئـت المرأة بزوجها يهبط إليهـا ، ويدخل القبو، يهز فى يده سلاحه ويقول :

ـ اطمئنـى يازوجتـى العزيزة ، فقـد انتصرت على الأعداء ، وقضيـت على عدد كبير منهم ، وهرب الباقون حاملين على أكتافهم أجساد قتلاهم وجرحاهم .

واندفعت المرأة إلى زوجها تحتضنـه وتقبله ، وتحيى فيه شجاعته وقـوته ، فى حين أخذ هو يضع سلاحه ويخلع ثيابه . وهـدأت أعصابها ، وشعرت براحة تامة ، وانحطت على الفراش . . . فاستسلمت لنوم عميق هادئ بعد هذه الأحداث كلها .

* * *

خرج الفلاح مع الصباح إلى فناء الدار، وجلـس مستندا إلى الحائط وقدماه ممدودتان إلى الأمام فى راحة وهدوء .

ولم تمض لحظـات حتـى رأى السيـد يقترب من الـدار مسرعـا ، فنهـض فى عجلـة يستقبله ويرحب به . ولم يعن السيد برد التحية ، وصرخ فيه :

ـ أين الكنز الذى وجدته فى مزرعتى؟

وتظاهر الرجل بالدهشة ، وأخـذ ينظر إلى السيد فى عجب واستغراب ، وكأنه يشك فى سلامة عقله ، وقال :

ـ كنزا! أى كنز ياسيدى؟!

ورفع السيد سوطه ، وقال :

ـ حذار من الإنكار أيها الرجل . فما يجديك الإنكار نفعا بعد أن اعترفت زوجتك أمامى بكل شىء . . !

وأغرق الرجل فى ضحك طويل ، ثم قال :

ـ زوجتى !؟ أهى زوجتى التى قالت ذلك!؟ ألا تعلم أيها السيد أن زوجتى لاتتمتع بقواها العقلية؟

وجمد السوط فى يد السيد ، وفتح عينيه فى شك ، ثم أمر الرجل أن ينادى زوجته .

ورفع الفلاح صوته مناديا امرأته ، فنهضت المرأة مذعورة وخرجت من الباب لتجد السيد أمامها .

وخافت المرأة عاقبة الإنكار، فانطلقت تردد من جديد أمام السيد ما قالته له بالأمس ، وروت كيف عثر زوجها على الكنز. وزادت فذكرت أنها رافقته إلى المدينة عندما حمل الكنز ليخفيه هناك .

وهز السيد رأسه فى انتصار، وسألها :

ـ متى حدث هذا؟ قولى أمام زوجك .

وأجابت المرأة :

ـ فى اليوم الذى هبت فيه العاصفة الكبرى ، وأمطرت السماء قطع الخبز!

وانتفض السيد، وظنها تسخر به ، وقال :

ـ قطع الخبز يا امرأة . . . ! تهذبى فى ردودك أيتها المرأة ، وأجيبى على سؤالى : فى أى يوم وقع ماتقولين؟

وعادت المرأة فأجابت مؤكدة :

ـ كان ذلك يوم المعركة الكبرى يامولاى ، عندما انقضت جيوش الأعداء على المدينة ، وصعد زوجى فوق السطح ، وأخذ يكافح ويحارب طوال الليل حتى تم له النصر!

وصرخ السيد وقد نفد صبره :

ـ أمجنونة أنت يا امرأة !؟ أين كانت تلك المعركة التى تتحدثين عنها!؟ كفى هراء وقصى الحقيقة ، وإلا قطعت لسانك . قولى فى سرعة : متى حمل زوجك الكنز إلى المدينة؟

وأجابت المرأة وهى ترتعش فى رعب :

ـ لا أجرؤ على القول .

وصرخ السيد :

ـ أسرعى قبل أن أقطع لسانك .

وبكت المرأة وهى تقول :

ـ ذهبنا إلى المدينة يوم جاءك الشيطان ليطالبك بسداد الدين الذى كنت قد استدنته منه ، ومررنا أمام قصرك حين كانت صيحاتك تتوالى وسوط الشيطان ينهال عليك . لاشك أنك تذكر ذلك اليوم ياسيدى ، فقد كنا هناك . أليس كذلك يازوجى !؟

واستشاط السيد غضبا وغيظا ، واقتنع بأنها امرأة مجنونة ، وقال :

ـ أيتها المجنونة . . . لقد أضعت وقتى سدى ، فليحملك الشيطان وينهل عليك بالسوط على هذا الهراء التافه .

ولسع السيد المرأة بالسوط ، وانطلق يعدو بجواده !

ويقول أهل المدينة : إنه لم تمض أيام حتى كان الفلاح قد اختفى ، ثم ظهر من جديد فى الطرف الآخر من البلاد ، حيث اشترى مزرعة لنفسه ، عاش فيها مع زوجته سعيدا إلى ماشاء الله !

أسطورة إيطالية

الطـائر الصّـدّاح

معظم الأسـاطير الشعبية تـراث مشترك بين الأمم القـديمة، تـأخذهـا أمة عـن أمة فتحـور فيها وتبدل، وتلبسهـا طابعـا يتفق مـع ما ألفتـه من أسـاليب حيـاتها العاديـة وبنظرة واحـدة إلى أساطير الشاهنامة الفارسيـة وألف ليلة وليلة، تكشف عن صلتها الوثيقة بـأساطير كثير من دول الغرب التى كانـت لها صلات بالحضـارات الشرقية، واستطـاعت أن تأخـذ منها وتحور ما أخـذته، وتلبسـه من الأثواب ما يتفق مع طبيعتها ومألوف حياتها.

و«الطـائر الصداح» واحـدة من هـذه الأسـاطير التى تنتمـى دون شـك إلى أسـاطير الشرق انتماء أصيلا

لم يكن يشغل بال الإمبراطور سوى شىء واحد: هو الطائر الصداح!

ولم يعرف أحد سر اهتمام الإمبراطور بذلك الطائر العجيب، ولا سر العلاقة بين عدم العثور عليه وانهيار برج المعبد الكبير الذى طالما حاول الإمبراطور تشييده عبثا!

والحق، إن المعبد كان تحفة رائعة الجمال، فخما غايـة الفخامة، تحلى جدرانه أحجار كريمـة من الـذهب والياقـوت، وتتدلى مـن أسقفه عناقيـد من الجواهـر والحلى، جند الإمبراطور لصنعهـا أمهر رجـال الصناعة والفـن فى البلاد، فجـاء آية فى الإبـداع لم تر البلاد لها مثيلا.

وكان الشعب كله قد عرف أن الإمبراطور كلما أطل إلى المعبد العظيم، ملأته الحسرة لعجزه عن تشييد البرج الـذى يجب أن يقوم على مدخل المعبد، والذى كـان كلما أقامه انهار!

وأذاع الإمبراطور فى البـلاد كلها أنه سينعم بلقـب النبيل على الفنان الـذى يستطيع تشييد البرج دون أن ينهار. وفى الوقـت نفسه أمر الإمبراطور بإقامـة الصلوات فى جميع المعابد توسلا إلى الله أن يهديه إلى الفنان الذى يستطيع إقامة البرج الكبير.

وانقضت ليـال ثلاث فى إقامة الصلـوات، وفى الليلة الرابعـة، رأى الإمبراطور فيما

يرى النائم ، أن البرج لن يقوم إلا إذا أمكن إحضار « الطائر الصداح الأكبر» من الضفة الأخرى ، وأقيم له عش فى أعلى البرج .

وفى الصباح ، جمع الإمبراطور أبناءه الثلاثة ، وقص عليهم رؤياه . وبدأ الأبناء يتناقشون فيمن يكون أول من يشد الرحال منهم إلى الضفة الأخرى لمحاولة جلب الطائر الصداح .

وأوقف الإمبراطور المناقشة حين احتدمت ، وأمر ابنه الأكبر أن يقوم بهذه المهمة . . . فإذا مافشل فعلى من يصغره أن يحاول إتمامها . على أن تكون ولاية العهد لمن يستطيع الحصول على الطائر العزيز . . !

وشد الابن الأكبر رحاله ، واتخذ طريقه إلى حدود المملكة . وعندما بلغ ضفة النهر الكبير، كان الليل قد أقبل ، ووجد نفسه داخل روضة صغيرة رائعة الجمال ، فجلس على الأرض ، وأوقد نارا ، وأخذ يطهو طعاما لعشائه .

وإنه لفى ذلك ، إذا بثعلب عجوز يظهر أمامه ، ويتوسل إليه أن يعطيه كسرة من الخبز، وكوبا من النبيذ ، وأن يسمح له بأن يستدفئ إلى جوار النار!

وبدلا من أن يستجيب ابن الإمبراطور إليه ، مد يده إلى عصا ضخمة ، وانهال بها على ظهر الثعلب العجوز. ولم يكد يفعل ، حتى رفع الثعلب يده مشيرا إشارة غامضة . . . وإذا بالفتى يتحول فى لحظة إلى تمثال من حجر !

* * *

طالت غيبة الابن الأكبر حتى يئس الإمبراطور من عودته . واستسلم آخر الأمر إلى رجاء ابنه الثانى أن يذهب فيجرب حظه . وانطلق الفتى فى الطريق نفسه الذى سلكه أخوه من قبل . . وفى الروضة الصغيرة نفسها على جانب النهر، وإلى جوار تمثال أخيه الحجرى ، لقى الفتى مصيره بعد أن رفض بدوره الإصغاء إلى توسلات الثعلب العجوز!

ولم يكن من اليسير إقناع الملك بعد ذلك بالسماح لابنه الأصغر بالذهاب إلى الرحلة الغامضة التى اختفى بسببها شقيقاه . . . إلا أن الفتى الصغير أبى أن يستسلم لتوسلات أبيه ، وقال له ذات يوم :

ـ لقد انقضى زمن طويل ، ولم يعد هناك أمل فى عودة شقيقىّ ، وسواء كانا قد وفقا أم لايزالان يبحثان عن الطائر العزيز، فقد أصبح لزاما على أن أذهب لأداء المهمة التى

أرادتها السماء. وربما استطعت فى محاولتى أن أعرف مصير شقيقىَّ العزيزين!

وظل الإمبراطور مصرا على الرفض.

وعاد الفتى، مرة أخرى، يتوسل إلى أبيه فى إلحاح قائلا:

ـ أبى... دعنى أجرب حظى، فعسى أن أدخل على نفسك السرور بتحقيق رغبتك... وإلا فلن أعيش فى القصر بعد اليوم لحظة واحدة أواجه المذلة والمهانة من الجميع!

وأجاب الإمبراطور:

ـ إن شقيقيك لم يجلبا لى الطائر العجيب. وربما كانا قد لقيا مصرعهما ثمنا لمحاولتهما. وإنك لترى يابنى أن السن قد تقدمت بى، وإذا ما انطلقت فى الرحلة نفسها أنت الآخر، فمن الذى يساعدنى فى القيام بأعباء الحكم الذى ناء به كاهلى؟ ومن الذى يتولى العرش إذا فارقت هذه الحياة؟ فابق حيث أنت ياولدى... فما عاد هناك من سبيل آخر أمامنا.

ولكن الفتى استمر فى توسله قائلا:

ـ أنت والدى ومولاى. وإنك لتعرف أنى لا أستطيع مخالفة أوامرك قيد أنملة. وإذا كنت أجرؤ اليوم على تكرار الرجاء، فذلك أن أملى كبير فى تحقيق الأمنية التى سيجلب تحقيقها لنفسك سلاما وأمنا يامولاى!

ولم يجد الأب بدا من الاستجابة لولده. وامتطى الابن جوادا من خيرة جياد أبيه، وانطلق فى الطريق الذى انطلق فيه أخواه من قبل، وقد حمل معه عصا، وكثيرا من الزاد.

ومضت شهور...

ولم يكن الابن الأصغر هو الذى عاد بعد هذه الشهور، بل كان شقيقاه الآخران هما العائدين... عادا حاملين الطائر الصداح الأكبر، ومعهما جارية زرية جعلا منها خادمة لحظيرة الخنازير.

والحق، إن الطائر الصداح كان أعجب مافى هذا العالم... كان لريشه ألف لون، تشع منها أضواء رائعة كأنها مرآة تعكس ضوء الشمس.

ومنذ أقيم للطائر الصـداح عشه فوق قمة البرج، لم يعد ينهار قـط. غير أن كل من رأى الطائر، كان يعجب غاية العجب لوجومه وسكونه، وإصراره على الصمت، وعدم الشدو والغنـاء! حتى الإمبراطـور نفسه.. استبـدت به الحسرة والحزن لصمـت الطائر العجيب الذى كان كل أمله أن يملأ بلاده غناء وشدوا.

ومع ذلك فقد استمرت أفراح الشعب قائمة، وأسدل الجميع فى خضم الفرحة ستار النسيان على الابن الأصغر الذى اختفى منذ أن انطلـق باحثا عن الطائر العجيب... كلهم نسوه ماعدا الوالد الحزين الـذى أمضه فقدان ولده، وأضنى فؤاده ألا يراه مشتركا فى الأفراح التى عمت البلاد.

* * *

ومرت الأيام...

وفوجئ الإمبراطور، ذات يوم، بخادمة حظيرة الخنازير، تركع أمامه وتقول:

ــ المجد لمولاى... لقـد جئت أرفـع إليك أجمل بشرى فقـد عاد الطـائر يغرد مـن جديد، وبدأ يشدو فيملأ أجواء المعبد الكبير!

ونهض الإمبراطور من مكانه فى فرح وسألها:

ـ وكيف عاد إلى تغريده يافتاة؟!

وأجابت الجارية:

ـ لقـد اقترب راع شاب من المعبـد هذا الصباح. ولم يكد يـدلف من البـاب حتى انطلـق الطائر يشـدو ويصدح بكـل قواه، حتـى لتكاد حنجـرته تنشـق لقوة الشـدو والغناء. لقـد كان الفرح يملأ قلـب الطائر العزيـز... وإنه لفرح ظل واضحـا طوال الفترة التى قضاها الفتـى فى المعبد، فلما غادر المكان وابتعد، كف الطـائر عن الغناء، وعاد إلى الصمت والسكون!

وهتف الإمبراطور:

ـ إلى بهذا الراعى على الفور.

وانحنت الجارية، وقالت فى همس:

ـ إن ذلك مستحيل يامولاى. فإن الفتى على مايبدو غريب عن البلاد، وليس هناك من يستطيع أن يعرف مكانه. ولقد سمعت أن ولـديك قد أطلقا خلفه من يقبض عليه أو يقتله!

وصرخ الإمبراطور :

ـ اخرسى . . . كيف تتحدثين بهذا عـن ابنىّ؟ وكيف تجرئين على اتهامهما بمثل هذا الجرم الفظيع؟!

وغضب الإمبراطور غضبا شـديدا ، وطرد الخادمة من القاعـة ، ولم يلبث أن ساورت رأسه أفكار غريبة ، فأخذ يبث عيونه سرا ، وأرسل من يبحث عن الراعى الصغير.

ونجح رجال الملك فى العثور على الفتى وهو يدخل المعبد ذات يوم ، وقبضوا عليه . غير أنهم ماكادوا يمسكـون به ، حتى انقض عليهـم رجال أشداء ، يحاولون قتلـه حتى لايذهب حيا إلى الإمبراطور!

إلا أن النصر كان حليف رجال الملك ، الذين حملوا الراعى الصغير حملا إلى القصر، ودخلوا به إلى قاعة العرش .

وخفق قلب الإمبراطور الشيخ للفتى الراعـى . ولم يدر سر ذلك الشعور الذى غمر كيانه .

وسأله الإمبراطور :

ـ ما قصتك يافتى؟ من أين جئت؟ ومن والداك؟ وكيف قدمت إلى هذا البلد؟

وأجاب الفتى الصغير:

ـ إن لى لقصـة طويلة يامـولاى صاحب المجـد . وإن لى لوالدين وأخـوين . إلا أن عرض قصتى كـاملة يستغرق وقتا طويـلا ، ما أظنك اليوم يامـولاى مستعدا لقضائه فى الاستماع إلى . فإذا كنـت تريد يـامولاى أن تسمعها ، فلتأذن لى بـالمثول بين يديـك متى طلع فجر الغد .

فرد الإمبراطور:

ـ ليكن ذلك يافتى . وإنى لفى انتظارك مع صباح اليوم الجديد .

وجاء الصباح . . .

ومع قـدومه كـان الفتى يطلـب المثول بين يـدى الإمبراطور. وحين أذن لـه ، انحنى أمامه فى احترام ، وقدم فروض الطاعة ، فقال الإمبراطور:

ـ حسنا يابنى . والآن : خبرنى عن سر غناء الطائر الصداح عند قدومك إلى المعبد ، ثم عودته إلى الصمت بعد أن غادرته!

وأجاب الفتى :

ـ ستعرف كل ذلك يامولاى . وستعرف معه أشياء أخرى كثيرة . وكل شىء سيجىء فى حينه . . . ولتسمح لى يامولاى أن أقص قصتى منذ البداية !

ووافق الملك . . وبدأ الفتى يقص القصة :

ـ غادرت والدى ذات يوم فى مهمة كنت أعرف أن نجاحى فيها سيفرح والدى فرحة كانت بعيدة المنال عليه . وقضيت أياما كثيرة سائرا فى طريق طويل شاق ، حتى وجدت نفسى فى نهايته داخل روضة جميلة تخترقها طرقات متقاطعة . وقد هبط على الليل ، فقررت أن أقضيه فى الروضة ، وأضرمت نارى ، وأخرجت زادى ، وبدأت أطهو طعامى .

وفجأة ، أبصرت ثعلبا عجوزا يقترب منى ، لم أعرف كيف ولا من أين جاء ! وملئت رهبة حين رأيته . إلا أنى سمعته يحدثنى ، فأنصت إليه فإذا به يقول :

ـ أتسمح لى أيها الفتى الطيب بأن استدفىء إلى جوار نارك؟ إنى أرتعش من البرد . أسنانى تصطك ، وأطرافى تتجمد ، وإن بى لحاجة إلى كسرة من خبزك ، وكوب من نبيذك ، لأشبع جوعى وأطفىء ظمئى . ولكنى أتوسل إليك ألا تمد يدك إلى عصاك فتضربنى وتؤذينى . . . فآكل مطمئنا ، وأستدفىء آمنا !

وقلت للثعلب العجوز :

ـ حسنا تلك نارى اقترب منها ، وذاك طعامى خذ منه ما يشبعك ، وهذا كوبى أشرب منه مايطفئ ظمأك . . . استدفىء وكل واشرب ما طاب لك الدفء والأكل والشراب .

وألقيت بعصاى . . . وجلسنا معا حول النار ، ودار بيننا الحديث حتى بلغت به ماكنت قد رحلت من أجله ، ورجوته أن يهدينى إلى سواء السبيل إذا كان على علم بما أبحث عنه .

وهنا قال لى الثعلب العجوز:

ـ فلتطمئن ياصديقى . . . وغدا عند الفجر ، سأرحل معك . وإنى لأحلّ لك رقبتى إذا عجزت عن الوصول بك إلى حيث تريد .

وطالت جلستنا حول النار ، وتناولنا الطعام معا كأحسن مايكون الصديقان .

وعندما انتهى حديثنا ألقى الثعلب إلى بتحية المساء، ثم اختفى فجأة كأنه الشبح.

وتلفت حولى متطلعا لعلى أتبين الطريق الذى سار فيه، وفكرت طويلا لعلى أدرك كيف أتى إلىّ، ثم كيف اختفى عنى. وظللت على حالى هذه حتى ثقل رأسى، فاستغرقت فى سبات عميق.

ومع اللحظات الأولى من الفجر، عاد الثعلب. وكنت قد استيقظت وجلست أتأمل فى تفكير عميق تماثيل تبدو لرجلين وجوادين وكلبين سلوقيين. وقطع الثعلب على تفكيرى قائلا:

ـ علينا أن نرحل فورا!

ثم لم يلبث أن ضرب الأرض بقدمه ضربات ثلاثا. ولم يكد يفعل، حتى انتفض فاذا هو عملاق ضخم، متين البنيان، رائع القسمات. وسار العملاق إلى جوارى، وأخذ يحدثنى خلال الطريق عن المكان الذى قضيت فيه ليلتى، فقال: إنه جزء من أراضيه، وإن له زوجة وأطفالا. بيد أنه وقع ذات يوم فريسة ساحر حكم عليه أن يعيش فى صورة ثعلب، إلى أن يشفق به إنسان، فيسمح له بالدفء عند ناره، ويعطيه كسرة من خبزه، وكوبا من نبيذه... وكنت أنا هذا الإنسان الذى أشفق عليه، وكان سببا فى إطلاقه من قيده. وكافأنى بأن أقسم على أن يظل فى صحبتى حتى يبلغنى ما أريد.

ومضينا فى سبيلنا طيلة النهار، وشطرا كبيرا من الليل، حتى بلغنا روضة أخرى صغيرة رائعة

وعزمنا على أن نستريح بقية الليل فى هذه الروضة الصغيرة. وعندئذ أخبرنى رفيقى أننا سنذهب فى الصباح إلى مقاطعة تعيش فيها تنانين هائلة. وفى هذا المكان سنجد الشىء الذى نبحث عنه!

وفى الصباح اجتزنا الروضة إلى موطن التنانين. والواقع، لم يكن ثمة أجمل من ذلك المكان الذى نزلنا فيه.. لقد كان يضم قصورا رائعة بالغة الروعة، تحوطها حدائق غناء فيها زهور ونخيل من كل ماعرفته الأرض. وما كان أسعدنا حين وجدنا أن التنانين لم تكن وقتئذ داخل قصورها، ولم يكن هناك سوى حسناء رائعة... كأنها جاءت من السماء!

وهتفت الفتاة حين رأتنا، وأخذت تحذرنا من دخول القصور فى غيبة التنانين،

وخلال صرخاتها كانت الدموع تنساب فى خيوط رقيقة على خديها ، وقد غمرتها الفرحة إذ رأت آخر الأمر رجلين جاءا من الضفة الأخرى حيث كانت تعيش قبل أن تخطفها التنانين!

وسألتها عما جئت أبحث عنه . وما كان أشد فرحتى حين أجابتنى الفتاة بأن ذلك الشيء موجود فعلا . . ولم أهتم بعد ذلك بما قالته من أنه فى قصور أخرى غير بعيدة ، لدى تنانين تمت بصلة قربى للتنانين التى تعيش بينها!

وقالت الفتاة :

ـ انطلقا الآن إلى هناك . وإنى لواثقة من أنكما ستجدان ماتنشدان . على أنى استحلفكما ألا تنسيانى عند عودتكما . فإن الجنون سيصيبنى إذا بقيت يوما آخر فى هذا المكان .

ولم تدعنا الفتاة نذهب إلا بعد أن أقسمت لها بأغلى ما لدى فى الوجود . . . برأس أبى . . . على أن آخذها معى عندما أعود ، وألا أتركها فى أيدى التنانين .

وبلغنا آخر الأمر قصر التنانين ، فترجلت عن جوادى . وفى ساعة مبكرة من الصباح التالى ، دلفت من أحد أبواب القصر ، بعد أن عاد صاحبى بجوادينا وفقا لنصيحة الحسناء . وتقدمت أنا رأسا إلى حظيرة الجياد .

كانت الجياد مستلقية كلها داخل الحظيرة . فاتجهت إلى واحد منها ، وربت على عنقه بيدى ، ودغدغت أذنيه ، ولكزته لكزة خفيفة ، فانتفض واقفا ، فألجمته وقفزت فوق ظهره وأسرعت به نحو إحدى الشرفات حيث كان قفص بداخله الطائر الصداح العجيب الذى جئت باحثا عنه ، فاختطفته وانطلقت هاربا بكل قواى .

وما إن بلغ الفتى الراعى هذا القدر من قصته ، حتى انتفض الإمبراطور فى دهشة ، وحملق فى الفتى صائحا :

ـ إذن . . . أنت الذى أتيت بالطائر الصداح الأكبر؟ أنت ابنى الأصغر . . . لقد ظننت أنك لقيت حتفك!

وأسرع الابن فارتمى على ركبتى والده فى تأثر بالغ وانحنى الأب المشدوه ، فرفع ولده واحتضنه فى قوة ، وأخذ يقبله فى شغف وحنان وعاد الفتى فاستأنف حديثه ، وطلب من أبيه الإمبراطور أن يأمر بإحضار الفتاة خادمة الحظيرة .

وجاءت الفتاة ، ومثلت بين يدى الملك . فقال الابن :

ـ هذه هى الحسناء التى حدثتك عنها يامولاى. وهتف الإمبراطور:

ـ ولكن . . كيف حدث هذا؟! كيف صارت هذه الحسناء جارية تخدم فى حظيرة الخنازير؟!

وأجاب الابن:

ـ سوف تشرح هى الأمر. فلست أعرف مما جرى لها شيئا. أما أنا فبعد أن اختطفت قفص الطائر، أسرعت على ظهر جواد التنانين موليا الأدبار. . . إلا أن بقية الخيول فى الحظيرة ما إن رأتنى مسرعا حتى علا صهيلها، فاجتذبت الضجة أصحاب القصر. . . فرأونى. وفوجئت بمئات التنانين تطير ورائى، فأسرعت فى انطلاقى، وهى خلفى تحاول اللحاق بى، حتى بلغت حدود الإقطاعية حيث كان رفيقى فى انتظارى.

ومد الرفيق يده إلى، وصاح فى صوت كأنه زئير الليث:

ـ قفوا!

وفى لحظة، جمدت التنانين فى أماكنها لاتستطيع حراكا، كأنما سمرت فى الأرض، ومد رفيقى ذراعيه فاحتضننى فى قوة، وأخذ يقبلنى فى شغف. وبدأت التنانين تخاطبنى عن بعد، ووعدتنى أن تمنحنى الجبال والشمس والقمر إذا رددت إليها الطائر الصداح، ولكنى رفضت كل إغراء. فلما عجزت عن إغرائى التمست منى أن أترك لها على الأقل الجواد المسحور. وحدثتنى نفسى بألا أخيب كل آمالها، فأطلقت لها الجواد، ورحلت مع صديقى. . . والطائر الصداح بين يدى، وأنا أخشى أن أطل ورائى إلى حيث التنانين التى لم تستطع حراكا قط. . . حتى اختفينا عن الأنظار!

استمر الفتى فى سرد قصته فقال:

ـ كانت الحسناء تنتظرنا أمام قصر التنانين الأولى. وعندما اقتربنا منها أمسكت بسوطها، ثم طوحته فى الهواء ثلاث مرات، فلم يلبث القصر أن صار تفاحة، حملتها الحسناء، وأسرعت فألقت بنفسها بين ذراعى، فطوقتها ورفعتها على جوادى.

واكتشفت التنانين اختفاء الحسناء، فانطلقت خلفنا فى ثورة عارمة. واهتزت بنا الأرض والتنانين تلاحقنا فى اندفاع صاخب، وتطلق صيحات مفزعة يكاد يتجمد لها الدم فى العروق.

وكانت التنانين أسرع منا، وكادت تلحق بنا، برغم أننا كنا نسابق الريح.

وأطل رفيقى إلى الوراء، فوجد التنانين منا قاب قوسين أو أدنى . . . فتوقف عن المسير، ثم رفع يده فى قوة، وتلا بعض التعاويذ، فإذا التنانين تنقلب فورا إلى صخور!

التقطنا أنفاسنا، ثم تابعنا المسير فى هدوء، حتى بلغنا الروضة الأولى التى التقيت فيها لأول مرة برفيقى العزيز .

وهناك نلنا قسطا من الراحة . . . فقد كانت الروضة قطعة من أرض رفيقى الذى استضافنا وأكرمنا، وأقسم أن يجيبنى إلى أى طلب أريد . . قبل أن أمضى ومعى فتاتى وطائرى .

ووقع بصرى، وأنا أفكر فيما يمكن أن أطلبه، على الصخور المنتصبة على هيئة تماثيل لرجلين، وجوادين وكلبين، فأسرعت قائلا : إن كل ما أرجوه هو أن أعرف حقيقة هذه التماثيل .

ولم يكد رفيقى يسمع ماقلته، حتى أجفل . ثم أخذ يرجونى أن أطلب شيئا آخر. واستثارنى رفضه، فألححت عليه، فقال فى أسف :

ـ سوف تندم إذا أخبرتك بقصتها!

ولكنى أجبته :

ـ إن هذا طلبى الوحيد، فلا تحنث بوعدك . ومضت لحظات قبل أن يجيبنى :

ـ حسنا . . إن هذين الشخصين هما أخواك! فإنهما بدلا من أن يفعلا مافعلت أنت، ويجيبا توسلى وأنا فى أسر السحر . أطلقا خلفى كلبيهما، وضربانى بعصويهما، فاضطررت إلى شل حركتهما وتحويلهما إلى تماثيل!

وهنا اقتربت من رفيقى، وقبلت يده وقلت فى توسل :

ـ بحق عطفك على، وباسم صداقتنا الخالدة . . ألا ما أعدتهما إلى صورتهما الأولى!

وأجابنى رفيقى فى أسف :

ـ عزيز على أن أرفض طلبك . وليكن ماتريد . . . إلا أنى أحذرك منذ الآن، فستندم كثيرا جدا، أكثر مما تظن .

وحرك رفيقى يده حركة غامضة، فإذا الأحجار تتحرك ، وإذا شقيقاى يعودان إلى الحياة!

وعانقت أخـوى فرحا بهما، وكانت فـرحتنا لاتوصف . . إلا أن هذه الفـرحة سرعان ماتحولت إلى شىء آخر، عندما انطلقنا معا فى طريق العودة إلى الوطن.

إن أخوىَّ لم يغفرا لى تـوفيقى فى العثور على الطائر الصداح دونهما ، فظـلا يأتمران بى سرا . . حتى إذا وقفنا إلى جانب من الطريق نستريح قال أخى الأكبر:

ـ إننا حقا لمرهقون ، والجو حار لافح . فهيا بنا إلى تلك البحيرة نرتوى ونسترد نشاطنا وقوتنا .

وتبعـت أخوىَّ على ثقـة فيهما . وانحنى أخـى الأكبر على الماء فشرب ، وتبعه أخـى الثانى ، ثم جاء دورى . .

وانحنيت بركبتى على حافة البحيرة ، كما فعل أخواى من قبل ، وساقاى إلى الخلف ، واقتربت بفمى من الماء لأشرب . وفجأة شعرت بألم شديد فى ساقى ، وحاولت النهوض فعجزت . . واستدرت ببصرى إلى الخلـف ، فإذا بشقيقىَّ يسرعان بعيـدا ، بعد أن قطعا بسيفهما ساقـى . . . وعلى الرغـم من تـوسلاتـى وصرخاتـى ، لم تأخـذهما شفقة بـى ، وتركانى طريحا وواصلا سيرهما وقد أيقنا أننى لن أستطيع اللحاق بهما على الإطلاق .

بقيت ثلاثة أيام أزحف حول البحيرة . وجوادى المسكين إلى جوارى يحاول جهده أن يحمينى مـن هجوم حيوانـات الغاب . وكلما اقترب منـى حيوان يبغى بـى شرا ، رفعنى الجواد بأسنانه ، وأبعدنى عن متناول الحيوان الذى يهاجمنى ويحاول الفتك بى!

وفى صباح اليـوم الرابـع ، لمحت شخصا كفيـف البصر يتلمس طـريقه فى صعـوبة وإرهاق ، فهتفت به أناديه قائلا :

من أنت يامن تسير هناك؟

وأجاب الكفيف قائلا :

ـ تعس ، مشوه ، ذو عاهة . .

واقترب منى الكفيف مهتديا بصوتى ، وأخذنا نتبادل الحديث ، فقص على كيف أن أخوته قد انتزعوا عينيه طمعا فى نصيبه من إرث اقتسموه معا . وقصصت عليه كيف بتر أخواى ساقى من أجل الطائر الصداح!

فقال الكفيف :

ـ إذن فكـل منا يكمـل نقص الآخر: فلى سـاقان ، ولـك عينان . أنـا أحملك وأسير

بك ، وأنت تبصر لى . وإنــى لأعرف عقربا هائلـة تعيش قريبا من هـذا المكان ، تشفى دماؤها جميع الأمراض !

واتفقنا . . . فحملنى وأرشدته ، وسرنا حتى وصلنا إلى مقر العقرب الهائلة . ولم تكن العقـرب فى جحرهـا حين وصلنا ، فـوضعنى الأعمـى خلف البـاب ، وطلب منـى أن أضربها بالسيف حين تـدلف إلى وكرها . أمـا هو فقد اختفى وراء حجـر كبير، وحبسنا أنفاسنا ننتظر المجهول !

ولم يطل بنـا الانتظار، فقـد عادت العقـرب الهائلة إلى وكـرها مغيظـة محنقة ، كـأنها تستشعر غرباء فى الـوكر. وروعنى منظرها ، ولكنى استعدت ثبـاتى فى سرعة ، ورفعت سيفى حتى إذا ما اجتازت الباب ضربتها به ضربـة هائلة ، فصلت رؤوسها الثلاثة عن جسدها الكبير.

وأسرعت فاغترفت من دمـائها التى كانت ماتزال حارة ، ووضعـت ساقى المبتورتين على مكانهما من الـركبتين ، فالتصقتا بهما ، وعادتـا كأنهما لم تبترا قط . ومددت يـدى من جديد فاغترفت كمية كبيرة من الدم ، وغمرت به وجه الكفيف ، فارتد بصيرا !

ثم شكرنـا الله على ما أنعم علينا به مـن البرء ، وتعانقنا ، ثم مضى كـل منا إلى حال سبيله !

لم أشأ أن أسرع بـالعودة إلى قصر أبـى . فقد كنـت قررت أن أدع أمـر الكشف عـن المذنبين إلى الله . وعملت راعيا عنـد بعض القوم ، حتى ساقتنى قـدماى إلى المعبد ذات يوم ، ولم يخيب الله أملى . . . فقدرته أكبر مما يظن الجميع ، وحكمه عادل رحيم !

* * *

عندمـا انتهى الفتى من قصتـه ، انتبه الإمبراطور إلى الفتـاة التى كانت لاتـزال واقفة مشدوهة حائرة ، تستمع فى اهتمام إلى مايقوله الفتى . . . فتحول إليها يسألها عما حدث لها ، فقالت :

ـ بعـد أن بتر الأخوان سـاقى أخيهما الصغير، قـررا اقتسام الغنيمـة . وكنت أنـا من نصيب أحدهما ، والطائر الصداح من نصيب الآخر. وأخذت أبكى بكاء مرا ، وحزنت حزنـا شديدا على الفتى الـذى قطعا ساقيه وتـركاه فى قسوة مطروحـا إلى جوار البحيرة . وظل صاحبـى يضربنى كلما ذكرته بـأخيه ، ثم حاول إغـرائى بعد ذلك بحبه ووعـدنى بالزواج بـى . . . إلا أنى لم أستسلم له قط ، وظللـت أرفض وأقاوم ما وسعنـى الرفض

والمقاومة . . . حتى إذا بلغنا القصر، وأدرك صاحبى أنه لن يستطيع الوصول إلى، ألقى بى فى حظيرة الخنازير فى غلظة . ولم أمانع، فقد كان خيرا لى أن أعيش مع خنازير ترفق بأخوتها، من أن أعيش مع رجل قطع ساقى أخيه حيا!

ونهض الإمبراطور من مكانه . وقال مخاطبا الفتاة :

ـ هل تستطيعين أن تثبتى لى صحة ماتزعمين؟

قالت الفتاة وهى تخرج من جيبها تفاحة :

ـ هذه التفاحة تستطيع أن تثبت للجميع حقيقتى . . إن ولديك ياصاحب الجلالة لايعرفان شيئا عن هذه التفاحة، وإلا لما تركاها لى قط .

وخرجت الفتاة إلى الفضاء، ورفعت بسوطا صغيرا طوحته فى الهواء ثلاث مرات . . فاذا بالمكان قصر شامخ لامثيل له فى جميع أنحاء البلاد!

* * *

ووضح الحق للجميع . وقال الابن الأصغر لأبيه :

ـ أبتاه . . قبل أن تسجد لله شكرا على عودتى سالما، أريد أن نذهب جميعا : أخواى وأنا، لنقف أمام الله محتكمين إليه .

ولم يعترض الإمبراطور، وجىء بالأخوين اللذين جثوا أمام أخيهما يطلبان العفو.

وقال الفتى لأخويه :

ـ إذا غفر الله لكما، فسأغفر أنا أيضا!

واضطر الأخوان إلى الامتثال .

وأمام المعبد الكبير، وعلى أبعاد متساوية . . . وضعت ثلاث سيقان نخل خاوية، وجلس كل من الأخوة الثلاثة داخل إحدى السيقان، وقذف كل منهم إلى أعلى بحجر كبير.

فأما الحجران اللذان ألقاهما الأخوان الكبيران فقد سقطا على رأسيهما وأما الحجر الذى ألقاه الفتى الصغير، فقد سقط بعيدا عنه، ولم يصبه سوء .

وشهد الشعب كله حكم الله . . كما اشترك الجميع فى الولائم والافراح التى أقيمت احتفالا بزواج ولى العهد من حسنائه . . . ثم باعتلائه العرش خلفا لأبيه!

من أساطير الهنود الحمر
دقـات الطبـول

الحياة عند الهنود الحمر، سكـان أمريكا الأصليين، لاتختلف عن حياة كل البدائيين الـذين عرفوا الحرب والصراع مـع أولى خطوات الكفاح للحصول على القـوت ومن هنـا كـانت الشجـاعة أبـرز الصفات المقدسـة عندهم بقدر ما كان الجبـن أرذل هذه الصفات ولا تكاد أسطورة من أساطيرهم تخلو من ذكر هاتين الصفتين . . كما يبدو فى « دقات الطبول» .

لم يكن « رابيزو» واحدا من عامة الشعـب . . . بل كان أكبر أبناء ملك الشرق . ومع ذلـك فقد كـان أجبـن فتيان عصره . . . كـان إذا سمع دقـات الطبـول تدعـو إلى حمل السلاح ، سواء لحرب أو لصيد ، ارتعد قلبه ، واختفى عن الأنظار سريعا !

على أن ذلك الجبـن لم يبد واضحـا فى تصرفاته حين كـان صبيا ، بـل عرف عنـه أنه طيب حيى ، تعلـو وجهه دائما حمرة الخجل البرىء . فلما بلغ مبلغ الشبـاب ، بدا جبنه واضحا غريبا فى قبيلة لم يعرف الجبن سبيله إلى أبنائها قط !

ومع أن الفتـى كان يبـدو كأحد الآلهة ــ بقوامه الفـارع ، ومحياه الـوضىء ، وضميره الطاهر ، وإحسـاسه المرهف ، ورأيه الصائب ، وخلقـه الكريم ـ كـان جبنه يطغى على هذه المواهـب الممتازة كلها . فـإن الهنود الحمر يـؤمنون بـأن الشجاعة هـى أظهر دلائل الرجولة ، وأن القوة والحيلة هما أجدر الأشياء بالاحترام والتقدير .

وبذل الملـك جهدا كبيرا فى إصلاح ولده ، وحـاول بكل وسيلة أن يثير فيـه النخوة ، وأن يجعله شجاعا مقداما ، وكان ينصحه دائما بقوله :

ـ ملـك تعوزه الشجـاعة لايـدوم ملكه . ولـن تكون جـديرا إلا بشـد الحصر ، وحمل الأطواق ، وغسل الثياب فى البحيرة . . يـالخسارتى فيك ! لقد أردتك شجـاعا لايخطىء سهمك قلب العدو ، وتخوض المعـارك ، وتلتذ بمرأى الدماء ، لارعديـدا يفزع من سماع دقات الطبول !

ورغم مابذله الملك فى إصلاح ولده بالترغيب والترهيب آنا ، والزجر واللوم آنا . . فإن الشجاعة لم تعرف طريقها قط إلى قلب الأمير، وظل ــ كما قدر له أن يكون ـ جبانا رعديدا .

وأصبح مرآه يثير احتقار رجال القبيلة . وزاد اشمئزازهم منه ذات يوم ، فاجتمعوا وأجمعوا أمرهم على مطالبة الملك بنفيه خارج البلاد ، حتى لا يكون سبة عار فى تاريخهم الحافل بآيات البطولة والشجاعة .

ولم ير الملك بدا من أن يأخذ برأى رجاله ، فأمر ولده بالابتعاد عن ديار القبيلة ، وأراضيها . . . فلا يعود إليها إلا ومعه الدليل على أنه قد بات أشجع الشجعان!

وانطلق الفتى على حصانه ، وفى قلبه غصة لما لحقه من هوان ، وسار فى طريقه مبتعدا عن دياره وعشيرته . . . ليس حوله من تابع ولا حارس . وقضى الفتى على ظهر حصانه زمنا طويلا ، سائرا على غير هدى ، ذاهلا عما حوله ، إلى أن أخرجه من ذهوله وقع له دوى ، واستدار فأبصر سحابة من الغبار تثيرها حوافر عدد من الجياد تندفع بأقصى سرعتها فى طريقها إليه ، فتوقف عن السير، وغاص قلبه بين جنبيه ، وأخذ يحدق فى ذهول نحو الزوبعة الرهيبة التى خالها توشك أن تنقض عليه .

وتزايد وجيب قلبه كلما اقترب منه هذا الشر المستطير، وسالت على وجهه الذى غاضت منه الدماء ، قطرات من العرق البارد أخذت تزداد كلما مسحها بكم ردائه .

وماهى إلا برهة حتى وجد نفسه محاطا بعشرات الفرسان المسلحين ، تلمع سيوفهم وأسنة رماحهم بوميض خاطف . وعقدت المفاجأة لسانه ، ولم يعرف كيف يواجه الأمر . . . إلا أنه تماسك حتى استطاع أن يحرك لسانه ، وفتح فمه ليتكلم ، وقال فى همس :

ـ ماتبغون منى؟

وأجابه أحد الفرسان :

ـ ومن تكون أنت؟

فأجاب « رابيزو» فى جهد :

ـ أنا « رابيزو» ابن ملك الشرق!

فارتفع صوت آخر ساخرا :

ـ ها . . . ها . . . رابيزو الجبان!

وانفجر الفرسان ضاحكين . . ولكن صوتا رقيقا ناعما وحازما أخرسهم قائلا :

ـ صه . . . ماهذا الفتى بالجبان ، ولكنكم أنتم الجبناء!

فأجاب فارس آخر فى خضوع مشوب بحدة يسيرة :

ـ عفوا أميرتى ، ولكن شهرة صاحب هذا الاسم قد طبقت الآفاق . . . وإن الوليد فى هذه البقاع ليشب ، وصدى هذا الاسم يتردد فى سمعه مثالا للجبن والخور!

فصرخت الأميرة فى حدة :

ـ خسئت . . فما كان لهذا الوجه النبيل ، وهذا القوام الفارع ، وهذا الصدر العريض ، أن تحمل قلبا جبانا . . . إنه حسد الأعداء الذى يسعى إلى ترويج مثل هذه الترهات للنيل من هذا الفتى الشجاع .

وارتفع صوت متزن فقال فى وقار:

ـ أختاه . . . لاتغترى بالمظهر دون المخبر، فقد سمعت عن جبن هذا الأمير من القصص مالا يعد ولا يحصى .

وعادت الأميرة فقالت فى رقة :

ـ ماتقول يا أخى؟ إننى عند رأيى من أنها أكاذيب يروجها حاسد أو حقود . ولو أن ما يقال عن هذا الأمير هو الحق ، لكان أجدر به أن يفر هاربا لدى سماعه وقع حوافر الجياد . . . ألا ترونه كيف ظل رابط الجأش ، فانتظرنا وأخذ يحدثنا فى هدوء؟ أبعد هذا يعوزكم الدليل على شجاعته؟

وأفحم الفرسان ، ولم يحيروا جوابا . . . وانثنوا إلى الفتى يرحبون به بعد هذا الدفاع الحار الذى جابهتهم به أميرتهم « مورا» ابنة ملك الشمال .

واسترد الفتى أنفاسه اللاهثة ، وجرت الدماء فى عروقه ، وانتظمت دقات قلبه المفزوع . . بعد أن تخلص من رهبة الموقف ، وأقبل على الفرسان يبادلهم الحفاوة فى رقته المعهودة وسحره الجذاب ، فتعلقت قلوبهم به ، وأصبح كأنه واحد منهم : يخلصون له الود جميعا . . . وخاصة الأميرة الفاتنة « مورا»!

واستأنف الركب سيره ، حتى بلغ مع الليل عاصمة مملكة الشمال . ودخل الجميع

قصر الملك العظيم ومعهم رابيزو. وتقدمت الأميرة وأخوها ورابيزو إلى قاعة العرش الفسيحة حيث يجلس الملك، وجثت الأميرة أمامه فى خضوع وقالت فى رقة وحياء :

ـ أبى ومولاى. . . لقد جئنا معنا بضيف عزيز هو ابن ملك الشرق، وقد أعجبت بما يمتاز به من جمال الخلقة والخلق. فإذا أردت لى السعادة، فزوجنى منه. وإن لم تفعل، فسوف أكون أتعس الفتيات!

وانحنى الملك العجوز على ابنته فرفعها وضمها إليه، ودار ببصره الضعيف يتفحص الفتى الواقف أمامه، ثم حول نظراته إلى ابنه، الذى سارع إلى تأييد أخته قائلا :

ـ إنه شاب مكتمل المحاسن يامولاى، وإنه لجدير حقا بمصاهرتنا. لقد أمضى معنا فى عودتنا لحظات سعيدة، جعلتنا نؤمن جميعا بأن ملك الشرق قد أخطأ خطأ جسيما، حين انقاد إلى رأى رجال قبيلته، ونفى ولده العزيز رابيزو!

والتقت نظرات الجميع، ولمحت الأميرة فى عينى أبيها علامات الرضا والموافقة. فتحولت إلى « رابيزو» وجذبته من يده، فتقدم هذا وجثا أمام أبيها، معبرا له عن شكره على كرمه، وموافقته.

وأقيمت الاحتفالات فى جميع أنحاء البلاد ابتهاجا بزواج الأميرة الفاتنة « مورا» من الأمير « رابيزو». وتتابعت الأيام. . والعروسان ينتقلان من وليمة إلى وليمة، ومن حفل إلى حفل. . ورابيزو يعيش فى سعادة غامرة، وتزداد سعادته كلما استشعر مدى تعلق الأميرة به، وكلما أحس بالحب الذى يكنه له أبوها الملك، والأمراء، وأهل البلاط، وأبناء الشعب.

والحق إن طباع الأمير وأخلاقه، فى المواقف العادية، كانت على درجة كبيرة من السمو والنبل، مما حببه إلى قلوب القوم، وألهج ألسنتهم بمدحه والثناء على فضائله. . وملأت الغبطة قلب رابيزو، وفاضت به، فشعر برغبة ملحة فى أن يكتب إلى والده، فيخبره بما هو فيه من سعادة لاتوصف.

وذات ليلة صافية ـ والمملكة وأهلها جميعا ينعمون بالهدوء والسعادة ـ دوى نذير الشؤم على حين غرة، وأفزع الناس حارس من حراس الحدود، ينطلق بجواده حتى ليكاد يطير به، مخترقا طرقات المدينة فى جنون جامح إلى قصر الملك، وصوته يدوى بكلمة واحدة ظل يرددها طوال الطريق :

ـ العدو. . . العدو . . . !

ودبت الحركة فى قصر الملك، ودوت طبول الحرب، وأصبحت المدينة كخلية النحل، تموج بالجند والأهالى، وأخذ الجميع أهبتهم للدفاع عن بلادهم ضد العدو المغير.

شخص واحد تجمد فى مكانه رعبا وفزعا . . . إنه « رابيزو» . . الأمير الجبان . لقد تصلبت أطرافه عند سماع دقات الطبول، وارتعدت فرائصه، وخارت قواه، وأحكم الغطاء حول بدنه المرتعش، وغطى رأسه بيديه حتى يحول دون صوت الطبول أن يقرع أذنيه، وتظاهر بالنوم!

وانتفضت « مورا» فزعة من نومها على دوى الطبول يتردد فى أذنيها . . وأخذت تهز زوجها فى خوف وفزع قائلة :

ـ رابيزو. . . رابيزو. . انهض . . رابيزو. إن طبول الحرب تقرع معلنة أن العدو على الأبواب . . رباه! لقد دخل الأعداء المدينة وبدءوا يشعلون فيها النار. . . رابيزو . . . رابيزو.

ووثبت الأميرة من فراشها، واندفعت إلى باب القصر ففتحته، ووقفت أمامه مشدوهة ذاهلة!

كانت المدينة تموج بالنشاط والحركة : يختلط فيها صليل السلاح بوقع حوافر الجياد، ويمتزج دوى الطبول بصيحات الأهالى ووقع أقدامهم. . . كانوا جميعا فى سباق رهيب : الآباء ، والأبناء، والأخوة، وأبناء العم. . . الجنود، الضباط. . . والملك العجوز يقبض بيديه المعروقتين على صولجان كبير، يدق به فى قوة وعنف الطبل الملكى، دقات سريعة متلاحقة تدعو الشعب للجهاد فى سبيل الوطن الغالى.

وعادت « مورا» إلى حجرتها لتتعجل زوجها حتى يكون على رأس الجيش. . . ولشد ما راعها وحز فى نفسها، أن رأته لايزال ملتحفا بغطائه، ويبدو كمن راح فى نوم عميق.

وصرخت « مورا» فى زوجها، وهى تزيح عنه الغطاء :

ـ رابيزو. . . قم يارجل إلى سلاحك فالخطر يوشك أن يدهمنا. . . قم لترأس الجنود فى الخطوط الأولى، ولتكيل للعدو ضربات ساحقة تحطم هجومهم، وتردهم مدحورين!

وتقلب « رابيزو» فى فراشه، والرجفة تهزه من قمة رأسه إلى أخمصى قدميه، والطنين المستمر يكاد يصيبه بالجنون. ولم يتمالك إلا أن يسد أذنيه ويدفن وجهه فى الفراش، وأخذ يصرخ فى زوجته :

ـ أما لهذا الطنين من نهاية؟ بربك يامورا أغلقي هذا الباب، وأحكمي رتاجه . . أنكري وجودي، ولا تخطري أحدا قط عن مكاني . . . يا إلهي! أين أذهب من هذا الدوي؟

وصاحت مورا في دهشة يشوبها الغضب :

ـ ماذا؟! أحقا يفزعك هذا الطنين . . . أحقا تريد أن تختفي عن الأنظار؟!

فأجاب رابيزو في ضعة :

ـ أنا . . . أنا خائف يامورا . . . أنا . . . بربك أغلقي هذا الباب!!

وهزت مورا رأسها في ألم، ولم تلبث أن ومض في ذهنها خاطر لمعت له عيناها، فقالت لزوجها في هدوء :

ـ إنك لست خائفا . . . ، إنك مريض . . . مريض جدا بحيث لاتستطيع حراكا!

وتلقف «رابيزو» كلماتها، وأجاب في سرعة وأسنانه تصطك :

ـ نعم . . . حقًا إني مريض! ألا ترين؟ إن حالتي خطيرة، وأحس أن جسدي مشلول لا أستطيع تحريكه، كما لا أقوى على النهوض!

وعقدت مورا يديها فوق صدرها، وأسندت ظهرها إلى الحائط بعد أن كادت تتهاوى إلى الأرض خزيا من هول العار الذي أدركت أنه يوشك أن يحيط بها، ولم تلبث أن قالت وكأنها تحدث نفسها :

ـ لا . . . لا . . . لن يعرف أحد أن زوج مورا جبان!

واختطفت ثوبا من ثياب زوجها فارتدته، ووضعت على وجهها قناعا كثيفا لايكشف عن شخصها، وتناولت أسلحته، وانطلقت إلى حظيرة الجياد، فامتطت جواده، واندفعت إلى الطريق كالبرق الخاطف . . وقد شهرت رمحها إلى الأمام وانطلقت صيحاتها الحماسية في صوت قوي يردد مع دوي الطبول :

ـ إلى ساحة المجد أيها الأبطال . . . إلى الأمام . . . إلى الأمام .

واخترقت صفوف الأعداء في جرأة منقطعة النظير، وأهوت برمحها على رؤوس الأعداء، واخترقت صدورهم بطعنات قوية تعجز عنها سواعد الأبطال . . . وأثارت جرأتها الحمية في صدور جنودها، فاندفعوا وراءها في صلابة وعزم وهتافاتهم تشق عنان الفضاء :

ـ عاش رابيزو . . . عاش رابيزو!

وهجموا على عدوهم هجمة رجل واحد، فشتتوا شمله، وأحاطوا به، وأعملوا فيه رماحهم وسيوفهم . . . وحمى وطيس المعركة، واشتد القتال، وأيقن الجميع أن الغلبة ستكون لجيش ملك الشمال، بقيادة الفارس الشجاع المغوار رابيزو الذى كانت ضرباته تسحق الأعداء سحقا، وتبعثر أشلاءهم فوق التراب! .

ولم يدر بخلد أحد أن « رابيزو» قعيد الدار، وأنه لايزال يحاول سد أذنيه لكيلا يسمع دقات الطبول . ولم يتمكن أحد قط من كشف سر الأميرة ذات الضربات الساحقة، التى ضاعفت قوتها موجة الغضب التى انتابتها لخيبة أملها فى زوجها . . . الجبان!

وظلت المعركة محتدمة حتى الفجر. . . وقبل أن تشرق الشمس، كان جيش الأعداء قد تمزق شر ممزق، وولى من تبقى من الجند الأدبار. وعادت « مورا» على رأس جيشها تسبقها طبول النصر، وتقابلها هتافات مدوية صاخبة :

ـ عاش « رابيزو» بطل الأبطال . . عاش رابيزو قاهر الأعداء . . . رابيزو أشجع الشجعان!

وكانت مورا ترد تحية الجماهير بكلتا يديها، والقناع والدروع تغطى جسمها كله، فلم يستطع أحد أن يميزها. ودخلت القصر، واتجهت إلى جناحها، وخلعت رداءها، واستلقت على الفراش من فرط الإعياء. . . فى حين كان رابيزو قد نهض من فراشه، وأدرك من الهتافات مافعلته زوجته فى سبيله، فجثا تحت قدميها، وقد ألجم الخجل والعار لسانه فلم ينطق بكلمة .

وأغفت الأميرة إغفاءة قصيرة أراحت جسمها المرهق، وهدأت حواسها الثائرة. ولما استيقظت وأبصرت زوجها إلى جوارها، خاطبته فى هدوء قائلة :

ـ انهض أيها البطل! واخرج إلى الشعب لتتلقى ثناء الجميع على بطولتك. إن أحدا غيرى وغيرك لا يعلم الحقيقة، وليكن صوت ضميرك هو عقابك على ما فعلت .

وأخذت تساعده فى لبس الدروع المضرجة بالدماء، وناولته ماكانت تحمل من أسلحة . وخرج رابيزو ليتقبل تحية الجماهير التى احتشدت خارج القصر. وما إن كشف القناع عن وجهه، وأطل عليهم . . حتى تعالت هتافاتهم فى حماس وإعجاب . وقاسى « البطل» من تأنيب ضميره، فى ساعات، عذابا لم يقاسه طوال حياته . إذ كانت الهتافات تصل إلى مسامعه، فينعكس معناها لديه : فكلما قالوا « البطل» أحس بجبنه

وخوره، وكلما قالوا « الشجاع» تضاءلت نفسه خزيا وعارا . . وما كان أقسى هذا العقاب على نفسه وهو يتقبل ثناء لايستحقه. وكانت تنتابه بين الحين والحين نوبات من الندم، فيهم بمصارحة الناس بحقيقة الأمر، ويرفع يديه لإسكاتهم، ويحنى رأسه ليتدبر ماسيقول. فتظن الجماهير التى غمرتها نشوة النصر أن « البطل» يرد تحيتها برفع يديه ، فيزداد إعجابها به وثناؤها عليه!

واستمرت العقوبة الرهيبة حتى المساء. . وكان رابيزو قد انهار انهيارا تاما تحت وطأة ما عاناه من تأنيب الضمير والإرهاق، فعاد إلى داخل القصر يجر رجليه جرا.

وما إن بلغ الفراش ، حتى ارتمى عليه فى إعياء وابتدرته مورا قائلة :

ـ والآن . . . يازوجى العزيز . . . لعل هذه العقوبة، تبعد عنك شبح الجبن إلى الأبد.

* * *

ولم يمض من الليل إلا القليل، حتى عاد حارس الحدود ينذر بعودة الأعداء مرة أخرى فى جحافل من الجند والعتاد تغطى وجه الأرض، عازمين على أن ينتقموا لهزيمة الليلة الماضية أبشع انتقام. وعاد الملك العجوز يقرع بيديه المعروقتين الطبل الكبير، وعادت المدينة إلى ضجيجها الرهيب. . .

وهزت مورا زوجها وقالت :

ـ انهض يا « رابيزو» فقد عاد العدو إلى المدينة، وإنى أريدك فى الطليعة. إلا أن رابيزو لم يكن هناك. . . كان جسدا متداعيا يرتجف من الخوف، ويحملق فى ذهول إلى لا شىء!

وهتفت الأميرة صارخة :

ـ يالفجيعتى فيك أيها النذل! انهض واختبئ فإنك لاتجيد سوى مهام الخدم. أما الحرب فقد خلقت للأبطال الشجعان، ولست منهم يارابيزو.

ونهضت « مورا»، وارتدت من جديد ثياب زوجها الرعديد، وانتضت أسلحته، ومضت إلى ساحة القتال، وقد اشتعلت فى صدرها جذوة وهاجة من الجرأة والكبرياء، أذكتها صورة زوجها الجبان، وما قد ينالها من احتقار الناس له ولها لو علموا حقيقة أمره.

ولم تكد تتقدم خطوات عبر باب القصر، حتى فوجئت بهجوم مباغت، إذ انقض عليها أربعة من جنود الأعداء، كانوا قد تسلقوا الأسوار، وربضوا فوقها انتظارا لخروج «البطل» الذى أذاقهم مرارة الهزيمة بالأمس، وقرروا أن يأخذوه على غرة قبل وصوله إلى الميدان فيقضوا عليه، ومن ثم يتمكنون من القضاء على جيشه.

وبالرغم من المفاجأة، فإن مورا سرعان ما استجمعت قواها، وسددت من رمحها طعنة خاطفة إلى صدر أول المهاجين فسقط مجندلا فى بحر من دمائه. وانتهزت لحظة الذهول التى انتابت الجنود الثلاثة لمصرع قائدهم، وانثنت إلى قوسها وسهامها، فأطلقت وابلا منها عليهم، فوقعوا صرعى، ثم ندت عنهم حشرجات الموت.

وانطلقت مورا إلى الميدان... وكما حدث بالأمس، كانت فى ثياب «رابيزو» تصول وتجول وتجندل الأبطال وتمزق الصفوف، واندفع الجنود وراءها يقاتلون فى عنف، ويحاربون فى ضراوة، ويهتفون هتافات النصر، ويرددون خلف بطلهم:

ـ إلى النصر... إلى الأمام!

وتصادف أن كان الأمير شقيق مورا يحارب فى مكان قريب منها، وسكت أسماعه نبرات صوت رابيزو المرتعش المتكلف، وأحس أن هذه النبرات ليست نبرات صوت رجل على الإطلاق، وانتابته دوامة من الشك والحيرة، وكاد يتوقف عن القتال، وهو يتأمل البطل المحارب، وأخذ يسائل نفسه.

ـ إن هذا الصوت أقرب إلى صوت أختى مورا... أمن المعقول أن تحجب وجهها الفاتن وراء هذا القناع الصارم؟ أمن المعقول أن تقبض يدها الناعمة على هذا الرمح الضخم، وتنزل بالأعداء هذه الطعنات الفتاكة؟... ياحيرتى! لابد أن أجلو عن نفسى هذا الشك الذى يكاد يعصف بى.

وأسرع الأمير صوب الفارس المقنع، وأتى بحركة من رمحه بدت غير مقصودة محاولا بها نزع القناع عن وجهه.. إلا أن الفارس ألهمته سرعة خاطره فتصدى لرمح الأمير برمحه متراجعا إلى الوراء بسرعة، واصطدم الرمحان صدمة قوية مفاجئة أطارت رمح الفارس المقنع من يده، وسقط على فخذه فأصابه بجرح طفيف.

ـ يا إلهى! معذرة «يارابيزو»... فقد جمح جوادى... هل أصابك ضرر؟!

فأومأ الفارس برأسه أن لا شىء، واندفع كلاهما إلى غمرة المعمعة.. والأمير يحدث نفسه:

ـ حسنا . . يكفى هذا الجرح لأستدل به .

وحمى وطيس القتال . . ورابيزو يصول ويجول ، ويستحث جنده فيندفعون وراءه فى حماسة وقوة . . فلم تكد تلوح تباشير الفجر، حتى كانت فلول العدو تفر من الميدان ، تاركة وراءها أكداسا من العتاد ، وألوف القتلى والجرحى .

وأسرعت مورا إلى القصر وفى خاطرها ما دار بينها وبين أخيها ، وأدركت على الفور نية أخيها ، واعتزامه كشف الأمر بوساطة هذا الجرح الذى أصابها . . . فما إن دخلت غرفتها ، وأغلقت الباب ، حتى أمسكت بطرف رمحها ، وهتفت فى رابيزو:

ـ أسرع الآن ، واكشف عن فخذك الأيسر . فلابد أن أصيبك فيه بجرح نافذ .

وألجم الرعب لسان الزوج ، وازداد عليه لمرأى الدماء على فخذ زوجته ، وكاد يلتف فى أغطيته ، لولا أن آلمه مرأى زوجته الحبيبة المصابة ، فتمالك نفسه ، وثارت فيه النخوة ، وأسرع محاولا الخروج لطلب النجدة وإعلان الحقيقة للناس . ولكن مورا فهمت مراده ، فمنعته فى حزم ، وطلبت إليه أن يتمدد على الفراش ، وكشفت فخذه ، وغرزت فيه سن الرمح بسرعة خاطفة ثم جذبته من لحمه ، ثم ألقت الرمح على الأرض ، ومضت تجفف الدماء التى اندفعت من الجرح فلوثت الفراش .

وعندما أقبلت الجماهير لتحية البطل ، وعلمت أنه أصيب فى المعركة ، اندفعت خلال أبواب القصر إلى حجرته ، وأبت إلا أن تحيى البطل وهو على فراشه . . وتناقلت الألسنة الخبر، وتحول الجرح الطفيف على ألسنة القوم إلى جرح بالغ الخطورة ، ولم يعد من الممكن أن يتخلف أحد عن زيارة الأمير. .

وكان أخو مورا أول القادمين . . . ولشد ما أنبه ضميره لثورة الشك التى انتابته فى الميدان ، فتسبب فى جرح البطل العزيز. . ولم يستطع أن يعلن أنه السبب فى جرح الفارس المغوار خوفا من نقمة الجميع !

أما مورا ، فلم يبد عليها طوال اليوم أنها تعانى ألما فى ساقها ، وصبرت وتحملت مالايمكن أن يحتمله بشر، ولم تبدر منها بادرة طوال وقوفها عند رأس زوجها تنبئ عن أنها تقاسى ألما لايطاق .

ولم يكد يهبط الليل ، وينصرف آخر الزوار، حتى سقطت على الأرض من فرط الإعياء . وأسرع إليها « رابيزو» والأسى يمزق أحشاءه، وقال فى أسف :

ـــ ياالجبنى ! وياحقارتى ! أنا تافه حقير. . . إننى لا أستحق حتى شرف تقبيل

قدميك ياموراً . . أواه أيتها الآلهة! أما من قوة تشفينى من داء الجبن الذى جعلنى محتقرا من نفسى ومن الجميع؟ أما من علاج لهذا الخوف حتى أصبح جديرا بزوجتى الحبيبة؟!

وانكفأ على وجهه ، وانخرط فى بكاء مرير!

وارتسمت بسمة على شفتى « مورا» . وهتفت به تشجعه على التغلب على ضعف نفسه بالثقة والإيمان .

وقال رابيزو :

ـ أجل . . . سأكون أشد شجاعة من الليث . ومنذ اليوم سأتذكر، كلما خانتنى الشجاعة ، مافعلته زوجتى . ويكفى هذا لأسترد ثقتى بنفسى ، وأستعيد جرأتى!

* * *

ودوى صوت الطبل من جديد ، يمزق هدوء الليل ، وينذر بعودة جحافل العدو . . .

ونسى « رابيزو» ماقاله منذ لحظات ، واختنق الصوت فى حلقه ، وشحب لونه شحوبا شديدا ، وانتابته رعدة قاسية!

وانتصبت مورا على مرفقيها ، وأخذت تنصت إلى دقات الطبول . . . والألم يحز فى نفسها . لقد كان الأمر هذه المرة خطيرا جدا . . . فالجند مندفعون إلى الحرب بلا روح ، يفتقدون بطلهم الجريح وفى قلوبهم حسرة . أما العدو، فإن ملكهم قد ثارت ثائرته لهزائمه المتوالية ، وصمم هذه الليلة أن يكون انتقامه فظيعا شنيعا ، فبرز بكل من يصلح للقتال فى مملكته ، وجند جيشا لجبا لايدرك البصر آخره .

وتطلعت « مورا» إلى «رابيزو» ، فإذا وجهه يحكى صفرة الموت ، وبدنه يرتجف حتى ليكاد يسقط على الأرض . وتنهدت مورا فى يأس ، وجمدت الكلمات على شفتيها . . فى حين أخذت دقات الطبول تدوى ، ويشتد هزيمها عن المرتين السابقتين .

ولم تطق « مورا» صبرا ، وحاولت النهوض من مرقدها ، وهتفت فى حماسة :

ـ لابد أن أذهب . . . نعم . . . سأذهب . لن أدع العدو يحتل بلادنا!

وجاهدت عبثا أن تنتصب على قدميها ، فقد كانت ركبتاها تخونانها فى كل محاولة ، فترتمى يائسة على فراشها . وانهمرت دموع الغضب على خديها ، وحدجت رابيزو

بنظرات كأنها هى شواظ من نار علها تثير فيه النخوة، وتململت فى فراشها فى غيظ مكبوت، وهمست فى يأس :

ـ آه . . . ما العمل يارباه؟ لقد خارت قواى!

وتملكتها ثورة الغضب، وأحست بالدماء تغلى فى شرايينها . . فانتفضت واقفة، وانقضت على «رابيزو» فى حقد وحنق، وطلبت إليه فى حزم أن يلبس دروعه، فامتثل لأمرها فى الحال. . . ورمت إليه بالأسلحة، وقادته إلى حظيرة الجياد، وأرغمته على أن يمتطى صهوة حصانها الأشهب القوى الجموح، وضربت الجواد على مؤخرته، فانطلق به كالريح . . . واستنفدت المحاولة قواها، فانهارت على الأرض وهى تهمس لنفسها :

ـ لعل هذا وداعنا الأخير!

وراحت فى غيبوبة طويلة . . .

* * *

وانطلق الجواد الأشهب يسابق الريح إلى الميدان . . . ورابيزو الجبان متشبث بعنقه يحاول أن يثبت فوق ظهره، وأن يكبح جماحه . . . وقد شحب وجهه، وزاغ بصره من هول مايعانيه من هلع .

وارتفعت أصوات الجند فى قوة عارمة حين رأوا فارسهم المقدام، يشق طريقه كالبرق، وينقض على الأعداء، وسرت فيهم موجة من الحماسة الطاغية، فاندفعوا وراء قائدهم . . وقد تلاشى من قلوبهم الشعور بالخوف من قوة العدو، وحل محله شعور الثقة والاطمئنان، والاستخفاف بجند الأعداء مهما يكن عددهم وعتادهم .

وارتفعت هتافاتهم تحيى الأمير:

ـ رابيزو. . . رابيزو . . . جاء البطل . . النصر لنا . . . إلى الأمام . . إلى الأمام!

واندفع الجواد إلى قلب خطوط الأعداء . . . والأمير ذاهل لايدرى ماذا يفعل! فالرمح يهتز فى يده المرتجفة، وصليل السيوف ودوى الطبول يطغيان على حواسه، وأحس قلبه يهوى إلى ركبتيه .

ووجد نفسه بغتة أمام ملك الأعداء بعد أن اخترق به الجواد الصفوف فى تهور أذهل الجنود وشل تفكيرهم . . وانتبه الملك إلى « رابيزو»، واستدار إليه، وانقض عليه برمحه فى هجمة خاطفة صائحا من وراء قناعه :

ـ أهو أنت البطل؟ خذها إذن منى!

وكادت طعنة الرمح تصيب مقتلا من « رابيزو» لولا أن الجواد الأشهب، المدرب على أساليب القتال، حاد جانبا براكبه، واندفع فى وثبة مفاجئة إلى الأمام. . فإذا رمح رابيزو المشرع فى صدر الملك مخترقا دروعه. وسقط الملك من فوق حصانه إلى الأرض يتخبط فى دمائه، ولم يلبث أن انتفض وهمد جسده إلى الأبد!

وأخذ رابيزو يعالج جذب الرمح من قلب الملك الصريع . . . وقد سيطرت على حواسه مشاعر متعددة، ولم يشعر بنفسه وهو يرفع الرمح المخضب بالدماء فى يده، ويجذب عنان جواده ليقف على قائميه، ثم وهو يشرع رمحه ويندفع بجواده كالسهم. . صائحا فى صوت كالرعد صيحات حماسية ملتهبة، مستنهضا عزائم جنوده، قائلا:

ـ إلى الأمام أيها الأبطال. . . إلى الأمام. . . والنصر لنا!

وفعلت صيحاته فعل السحر فى نفوس الجنود، فدوى الميدان بصيحاتهم، وتزلزلت من هولها قلوب الأعداء، الذين كان لمصرع ملكهم أسوأ الأثر فيهم، فتقاعست عزائمهم عن القتال بالرغم من صيحات قادتهم لاستنهاض همتهم.

وبكى أخو « مورا» أسفا وندما حين تذكر أنه ألصق تهمة الجبن ببطل شجاع كزوج أخته. . . ولكى يكفر عن سوء ظنه، حمل على صفوف الأعداء حملة صادقة إلى جانب رابيزو. وأخذ يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال. . . والرؤوس تتساقط حول الفارسين كحبات المطر، وتتكوم تحت حوافر فرسيهما. وكان أخو مورا يصيح مع كل ضربة فى وحشية:

ـ اقرع ياطبل. . . اقرع فى قوة وسرعة، ليطغى صوتك على صوت ندمى!

ولاح الفجر، وخيم الهدوء على ساحة المعركة. . . إلا من أهازيج جنود ملك الشمال الشيخ، وانتشائهم بخمر النصر المسكرة. . . وإلا من أصوات قادة الأعداء وهم يقسمون يمين الولاء للملك الشيخ، ويطلبون منه العفو. وقال الملك وهو يشير إلى «رابيزو» ، الذى وقف شامخا رغم ثيابه الممزقة ودرعه التى تحطمت من كثرة الضربات، والدماء تنزف من جراحه:

ـ لاتطلبوا العفو منى. . . بل اطلبوه من هذا البطل!

وانثنى إلى رابيزو قائلا فى حنان وفخر:

ـ يابنى . . . إنا مدينون لك بحياتنا، وحريتنا. فمر بما تشاء!

وأطل رابيزو، فأبصر مورا تقترب متحاملة على نفسها، وقد أذهلتها أنباء ما فعله زوجها العزيز فأسرع إليها وضمها إلى صدره، وقال مخاطبا الملك:

ـ مولاى . . . ما كنت فى الحقيقة جديرا بهذا الشرف الرفيع. ولست أنا الذى أنقذ المملكة . . . إن « مورا» الحبيبة، هى التى جعلت منى، أنا رابيزو الجبان، بطلا مغورا!

وحاولت « مورا» أن تسكته . . إلا أنه اندفع فروى القصة للجميع . . .

وجثت زوجته أمامه فى فرحة طاغية، وقالت والسعادة تلمع فى عينيها ، وتطفر منها دموع الابتهاج:

ـ ما أسعدنى بك أيها الحبيب . . إنك الآن أشجع إنسان على ظهر الأرض.

ونهض الملك الشيخ، فضم إلى صدره مورا ورابيزو، وقال:

ـ صدقت يامورا . . . فإن رفع الرمح على عدو فى ميدان القتال، لأهون كثيرا من إعلان الحقائق فى بسالة ونبل.

وارتفعت صيحات الشعب تهتف فى تقديس:

ـ رابيزو . . . رابيزو!

وأدرك رابيزو أن الشعب سيقدس شجاعته إلى الأبد!

من أساطير زنوج أمريكا
الإرث

الزنوج فى أمريكا لهم أساطيرهم التى تحمل ألوانا من الذكاء يحاولون بها التغلب على عقبات كثيرا ما تواجههم خلال حياة كل يوم.

وتفيض أساطير الزنوج بأخبار الجن والسحرة والمشعوذين بصورة جعلت الذين كتبوا عنهم من البيض يقولون: إن أساطيرهم تكشف عن سذاجة فيهم تفوق البيض والحمر والصفر، وإن الأسود يكاد يقضى حياته حدثا بما فى الحداثة من طيش وارتجال وميل إلى الحبور...

إلا أن أسطورة «الإرث» تكشف حقيقة الزنوج، وتكشف كذلك عدوان البيض على إخوانهم السود

لم يكن يخشى اقتراب الموت، إلا أنه عندما أحس بدنو أجله، امتلأ رعبا وشقاء... ذلك أنه أشفق على ولده الصغير «ماردیا» من الأطماع والأحقاد.

إن الثروة التى سيتركها لابنه الصغير ليست كبيرة، ولكنها، مع ذلك، كافية لأن تسيل لعاب الكثيرين ممن يحيطون بالطفل الصغير. ولم ير بدا من أن يعهد إلى صديق أمين بولده وثروته، ولم يكن هناك من يستطيع أن يثق به بين أصدقائه سوى «راهارا».

وربت «راهارا» على كتف صديقه المريض الذى كادت الكلمات تموت على شفتيه، وقال:

ـ كن مطمئنا ياصديقى... فثروتك بين يدى ستبقى كما كانت لديك. وإنى لأعاهدك أن أكرس كل جهدى فى سبيل زيادتها، وعندما يبلغ ولدك رشده، أسلمها إليه أضعاف ماتسلمتها منك... نم هانئا ياصديقى. ولتكن مطمئنا على قيامى بواجبى نحو ولدك خير قيام!

وتمتم الرجل المحتضر بعبارات متقطعة شكر فيها صديقه، وأمسك بكفه فضغط عليها اعترافا بجميله.

وانطلق « راهارا» إلى الخارج ليعد نعش صديقه العزيز . . .

وأشار المحتضر إلى امرأتـه التعسة التى جلست تبكـى فوق رأسه ، فأدنـت أذنها من شفتيه ، فقال هامسا :

ـ إننـى أحس كـأننى أخطـأت فى ثقتى بـراهارا . وإنـى لأخشى أن تخونـه الذاكـرة فيخطئ فى حساب الأمـوال التى أخلفها لولـدى . . . فكونى على حذر، وخـذى هذه التميمـة فعلقيها فى عنـق مارديـا ، فإن فيهـا قسائم مفصلـة بالأمـوال جميعها . وإنـى سأموت عندئذ مطمئنا مستريح البال .

ولم يكد الرجل ينتهى من كلماته ، حتى انتفض وأسلم الروح .

* * *

تسلم « راهارا» ثروة «مـارديا» ، وأخذ يستغلها طوال سنوات عديـدة ، ويزيد فيها ، حتى أصبحت أضعاف ماتركها الرجل .

وشب « مارديا» خـلال هذه السنوات ، وقارب سن الرشـد ، وأخذ يفكر فيما سيئول إليه حـاله عند بلوغـه هذه السن . وكـان مايشغل بـاله ويخيفه هو وأمـه أن « راهارا» لم يحدثهما قط عن الموعد الـذى سيرد فيه الوديعة إلى صاحبها . . . كل مـاكان يفعله ، أنه يرسل إليهـما إيرادا ضئيلا لم يكفهما فى يوم من الأيام!

ومرت السنون . . . وجلست أم « مارديا» تحدثه ذات يوم :

ـ لقد تجاوزت سـن الرشد يامارديا ، وكـان لابد أن تتسلم ثروتك مـن « راهارا» منذ عام ونصف عام . ولقـد صبرت طويلا أملا فى أن يرد راهارا أمـوالك إليك . . . إلا أنه يبدو أن كثرة المال قد أطمعته فيه ، ولعله خدع والدك بصداقته المزيفة . . فاذكر ياولدى التميمة المعلقة فى عنقـك ، واذهب الآن إلى وليك ، واطلب منه أن يعيد إليـك ما خلفه لك أبوك .

وذهب مارديا إلى راهارا وقال له :

ـ لقـد بلغت سن الـرشد منـذ أكثر من عـام ونصف عام يـاسيدى ، فمتـى ترد إلى الأموال التى عهد بها أبى إليك ، لتسلمها لى متى بلغت رشدى؟

وأجاب « راهارا» وهو يتصنع الدهشة :

ـ أموالك . . أبوك . لست أفهم ماذا تعنى!

قل لى ماذا تريد ؟ !

وأجاب الفتى :

ـ إننى أسألك : متى ستسلمنى ثروتى التى عهد بها أبى إليك؟

وهتف راهارا :

ـ تقـول إن أباك عهـد إلى بثروة لك! إن المرحـوم والدك لم يستودعنـى شيئا ممـا تقول . . . بل لقد أورثنى ثروته قبل أن يموت ، مقابل أن أنفق عليك حتى تبلغ رشدك ، وقد أنفقت عليك أكثر مما ورثت من أبيك . . . لقد كان حقا رجلا بارعا!

وصرخ الفتى فى اضطراب :

ـ أتجسر على ادعاء ملكية الثروة التى تركها لى أبـى؟ أتنكر أنك أخذتها أمانة مقدسة لتعيدها إلى عند بلوغى سن الرشد؟

وأجاب راهارا وهو يتظاهر بنفاد الصبر:

ـ ما هذا الذى تقول ياولدى؟ من علمك هذه الأكاذيب؟ أقسم برأس أبيك أنه لولا صداقتى له و إعزازى لذكراه ، لطردتك شر طردة ، وألقيت بك فى عرض الطريق!

وصاح الفتى فى غيظ :

ـ أتجرؤ على تكذيب هذه التميمة أيضا؟!

وشحب لون راهارا ، وقال فى صوت مرتعش :

ـ تميمة ! أى تميمة تعنى؟

وأجاب الفتى : أراك قد تغيرت ، واعتراك الشحوب . . إنى أعنى هذه التميمة التى تحوى قائمة مفصلة بأموال والدى التى أودعها لـديك ، وهى تثبت بصورة قاطعة حقى فى الميراث .

وبرغـم الاضطراب الذى بدا على راهـارا . . . فقد تمالك نفسه سريعـا ، وأجاب فى ازدراء :

ـ ما أسخف دعابتك! إن هذه التميمة لاتحوى شيئا مما تقول .

فأخرج مارديا التميمة المعلقة حول عنقه ، وفضها . ولم يكد يفعل حتى انقض عليه راهارا ، واختطف الورقة التى كانت بداخلها ، وفى مثل لمح البصر ألقى بها فى النار!

وبهت مارديا ، واستشاط غضبا ، وتسمرت قدماه فى الأرض ، فى حين أخذ « راهارا» يضحك ساخرا ، ثم قال :

ـ انظر . . . هذه هى التميمية المعجزة ! لقد ألقيتها فى النار لأنى لا أومن بالمعجزات !

وبكى مارديا فى غيظ ، وقال من خلال الدموع :

ـ سأذهب إلى القاضى أيها اللص ، وسأحتكم إلى عدالة الملك ، وأعرض قضيتى على الجميع .

وقهقه راهارا فى سخرية ، ودفع بالفتى ، قائلا :

ـ اذهب ، اذهب إلى إبليس أيضا . فلم يعد لديك ما تثبت به ادعاءاتك الباطلة !

وانطلق مارديا فى جميع طرقات القرية ، يقص قصة الخيانة التى ارتكبها راهارا ، ويصفه بالسرقة واللصوصية . . . ولكن الخائن الحقير عرف كيف يرد عليه ، ويحتفظ بهدوء غريب . فاضطر الفتى إلى التراجع ، وعاد إلى بيته مكتئبا حزينا ذاهلا !

وبكت أمه من الغيظ ، وقالت :

ـ ليرحمك الله يازوجى المسكين . لقد داخلك الشك فى ذلك الخائن قبل أن تموت . . . ليتك ما عهدت إليه بشىء قط !

وقال « مارديا » لأمه فى حزن :

ـ ومع ذلك فقد أخطأت أنا أيضا . . كان يجب أن أتمالك شعورى عندما أدركت بوادر خيانته . كان ينبغى أن أخفى التميمة ولا أمكنه منها . . . لقد أضعت حقى بيدى ، وسأضطر إلى التقدم بشكواى بغير قرينة . ومع ذلك ، فلن يمنعنى ذلك من الذهاب إلى القاضى ، ولعله يكون ذا خلق طيب جدير بمنصبه ، فيمكننى من الحصول على حقى .

وتلقى القاضى شكوى مارديا فى برود ، فلم تكن ثمة قرينة تثبت دعواه على الرجل . ومع ذلك أرسل إلى « راهارا » يستدعيه ، ثم عرض عليه شكوى مارديا ، وقال له متسائلا :

ـ بماذا ترد على تهمة اختلاس الإرث المسوبة إليك ؟

وأجاب راهارا متصنعا عدم المبالاة :

ـ إنها لتهمة باطلة ياسيدى . والكل يعرفون صدقى ونزاهتى ، ولطالما برهنت أعمالى على ذلك ، فعندما حدث الفيضان الماضى . . .

وقاطعه القاضى بحدة :

ـ لاتخرج عن الموضوع ، وأجب على قدر السؤال : ماهو ردك على دعوى مارديا؟

وأجاب راهارا فى ثبات :

ـ إن هذا الشاب يزعم أننى اغتصبت منه أموال أبيه . وهذه تهمة باطلة ، ومع هذا فأنا لا أبغضه ، فله أن يزعم ما يشاء . وأنا لا أريد الانتقام منه ، فليسحب دعواه حتى لا أطالبه بتعويض عن الإساءة التى ألحقها بشرفى!

فقال القاضى غاضبا :

ـ أريد جوابا واحدا ، بنعم أو بلا . . . هل تسلمت من والد مارديا أموالا بصفة أمانة تردها لابنه عندما يبلغ مبلغ الرجال؟

أجاب راهارا :

ـ نعم تسلمت أموالا أورثها لى والد مارديا مقابل خدمات أديتها له فى حياته ، ولزوجه وابنه بعد وفاته!

ومضت فترة من الصمت ، كان القاضى خلالها يفكر فى الأمر. لقد دافع مارديا عن قضيته دفاعا حارا قويا . ونفى « راهارا» عن نفسه التهمة فى حكمة واعتدال . . . فأيهما الصادق ياترى؟ كيف لى أن أحل هذا اللغز؟

وأرسل القاضى فاستدعى إليه بعض الزهاد ، وأصدر إليهم أوامر سرية أمرهم أن ينفذوها . وعندما انتهى من إصدار أوامره ، أمر الخصمين بالاقتراب قائلا لهما :

ـ اذهب أيها الشاب وعد ومعك أمك ، وأنت ياراهارا امض فاحضر امرأتك ، سأفرض عليكما أمرا تعاونكما فيه المرأتان!

وأشار القاضى إلى صندوق كبير جاء به أحد الزهاد ثم قال :

ـ إن من يستطيع منكما أن يطوف حول القرية حاملا هذا الصندوق ، سيكون هو الوارث الحقيقى . فالضمير النقى يكسب المرء قوة!

وانصرف مارديا وراهارا ، ولم يلبثا أن عادا ومعهما المرأتان . . فكرر القاضى أمامهما أمره ، ثم انثنى إلى مارديا قائلا :

ـ فلتبدأ أنت وأمك بالطواف لأنك المدعى!

ونهض الفتى وأمسك بالصندوق ، فأحس أن أحد طرفيه أثقل من الآخر، فرفع الطرف الثقيل ، وترك لأمه الطرف الخفيف ، وغادرا دار القاضى ليطوفا بالقرية!

وتحمل « مارديا» ثقل الصندوق ، فى حين أخذت أمه تنوء تحته وتتعثر بين كل خطوة

وأخرى ، حتى كاد الصندوق أن يسقط على الأرض ويتهشم!

وشعرت المرأة بإعياء شديد ، فتوقفت فى مكانها وأنزلت حملها ، ثم تهالكت إلى جواره ، وانخرطت فى البكاء .

وعانق ماردیا أمه فى حنان ، وأخذ يخفف عنها ، وقلبه يكاد ينفطر من الألم ، قائلا :

ـ تشجعى يا أماه ، فإن الشجاعة هى السبيل الآن لإثبات حقنا . . . آه لو لم يتلف هذا الخئون محتويات التميمة ، لما كنا فى حاجة إلى تحمل هذا العناء . سامحينى يا أماه لما سببت لك من شقاء ، وتشجعى فإن علينا أن نمضى حتى النهاية .

وعاد الاثنان فحملا الصندوق الثقيل ، وانطلقا يطوفان فى الطرقات ، حتى أتما الطواف حول القرية ، وانتهيا إلى بيت القاضى ، وهما يلهثان من الجهد . . وأمرهما القاضى أن يضعا الصندوق ، ودعاهما للجلوس على يمينه قائلا :

ـ اجلسا هنا . . . ولتنهض أنت يا راهارا لتحمل الصندوق أنت وامرأتك .

ورفع راهارا أحد طرفى الصندوق ، وأشار إلى امرأته بأن ترفع الطرف الثانى . . ثم اندفع خارجا فى خطوات سريعة .

ولم يقطعا من الطريق إلا مسافة ضئيلة ، وبدأ خطو المرأة يتباطأ ، وركبتاها تنوءان تحت وطأة الثقل ، وتخبطت فى سيرها ، ثم وقعت على الأرض تئن وتبكى .

وصرخ فيها راهارا يؤنبها ، وقد نفد صبره :

ـ هيا انهضى أيتها اللعينة . . . يجب أن ننتهى سريعا من هذا الأمر السخيف الذى فرضه علينا هذا القاضى المأفون . . . انهضى . . . هيا !

وأجابت المرأة وهى تلهث :

ـ ما أظن أننا سنستطيع الطواف حول القرية . إن خاتمة هذا الأمر لتثير فى الرعب والتشاؤم . ألم يكن من الأفضل أن ترد للفتى ماله فتكفينا هذه الشرور كلها؟!

فنهرها راهارا فى غلظة وخشونة قائلا :

ـ إنك لبلهاء حقا! أتريديننى أن أضيع تلك الثروة التى لايوجد على أحقيته فيها أى دليل؟! ما كنت أظن أنك غبية إلى هذا الحد . . . انهضى يا امرأة ، فالوقت يمر سريعا ، وأريد أن نفرغ من هذه المهزلة !

واستجمعت المرأة قواها ، وجاهدت حتى استوت على قدميها ، وسارت خلف زوجها ، والوهن يدب فى عظامها . . . ومضيا على تلك الحال حتى بلغا دار القاضى ،

فأفلتـت أصابعها طـرف الصندوق، وزحفت إلى يســار القاضى، واستقـرت مكانها، وتبعها زوجها.

وسأل القاضى مارديا:

ـ أما زلـت مصرا على دعواك، وعلى اتهامـك هذا الـرجل بـاختلاس إرث أبيـك، وإحراق الوثيقة التى تثبت صدق دعواك؟

فنهض مارديا، وأجاب القاضى فى ثبات:

ـ أجـل ياسيـدى، وسأظل مـاحييت مصرا على ذلك... فـراهارا كـاذب خئون، ولص حقيرا!

واندفع راهارا واقفا، وقد علت وجهه سمات السخرية، ورد على إهانة الفتى قائلا:

ـ إن فضيلتى لتمنعنـى مـن مبادلـة هـذا الفتى المخـادع الخبيـث، تلك الشتـائم والمهاترات التى ينطلق بها لسانه، وإنى...

ولم يمهله القاضى ليكمل كلامه.. وأشار إليه بيده، وقال:

ـ.. كفـى... أمـازلـت أنت أيضـا مصرا على ادعـائك أنـك الـوارث لأمـوال صديقك؟

فأجاب راهارا متصنعا النبل والأدب:

ـ إنها الحقيقة ياسيدى، وأقسم عليها بشرفى!

ورفع القاضى يده فى وقار قائلا:

ـ حسنا.. سنصدر حكمنا إذن. وأشار إلى أحد الزهاد أن يفتح الصندوق.

وما إن فتح الـزاهد الصندوق حتى اندفع منـه زاهدان كانا راقدين بـداخله، ورويا للقاضى كل كلمـة سمعاها بين مارديا وأمه، وراهارا وامرأتـه. وارتسمت معالم البهجة على وجهى مارديا وأمـه... فى حين قالت امرأة راهارا لزوجها، وقـد تضاءل فى ثيابه، واعتراه الخزى والعار:

ـ أما نصحتك بأن الآلهة لا تغفل عينها، وأن الحق لابد منتصرا!

ومنـذ ذلك اليـوم، اختفـى راهارا مـن القـرية إلى الأبـد... ثـم ترددت فى بيـوتها شائعات تقول إنه شوهد يتسول فى قرية بعيدة جدا من قرى الجنوب!

أسطورة إسبانية
الساحر وابنته

لم يساهم الإسبان فى الأسطورة الدينية بقدر ما ساهموا فى نسج الحكايات والأساطير الشعبية. ولاريب أن للسيادة العربية فى إسبانيا التى استمرت من سنة ٧١٠ حتى سنة ١٤٩٢، أثرا كبيرا فى الحكايات الشعبية التى نسجها خيال الإنسان، وتأثروا فيها بأساطير ألف ليلة وليلة

وأسطورة « الساحر وابنته» واحدة من هذه الأساطير التى يرددها سكان « استرامادورا» و«قطالونيا» وفيها عظة بالغة فيما يعانيه المقامر من عذاب معنوى إلى أن يتمكن من محو خطيئته.

حدث هذا فى قرطبة . . . فعندما تبدأ شمس النهار فى الاختفاء وراء الأفق الغربى، مرسلة أشعة ضعيفة خافتة لا تكاد تبين، كان هناك عملاق ضخم غريب، فى عباءة رمادية، ينحدر فى الطريق إلى الفندق، وكأنه يعرف الطريق كواحد من أهل تلك المدينة!

وعجب « دون لويس» ـ أكبر مقامر عرفته إسبانيا ـ حين فوجئ بذلك الغريب المجهول، القادم من حيث لايدرى أحد، يتجه صوبه، ثم يشاركه مائدته من غير دعوة أو استئذان، وكأنهما صديقان حميمان! وازداد عجبه عندما أخرج ذلك الغريب من بين طيات ملابسه أوراق اللعب، وثروة هائلة من الذهب والفضة واللازورد!

وأسال الذهب لعاب « دون لويس» إلا أنه قال للغريب: أنا لا ألعب إلا بورق يقدمه الفندق. ولم يعترض الرجل، وأعاد أوراقه إلى جيبه فى هدوء، واستعد للمباراة .

وكانت مباراة من جانب واحد : القادم الغريب يربح دائما، والمقامر الشهير يخسر باستمرار. . . وتشعل الخسارة المستمرة رغبته فى الثأر، وإصراره عليه. . . فيمنى بالخسارة دائما، وأمواله تتهاوى قطعة قطعة لتنضم إلى رصيد الرجل القادم من حيث لايدرى أحد .

واستغرق اللعب الليل كله. ومع انبلاج الصبح كان « دون لويس» قد خسر كل

شيء: أمـواله، وسيفـه، وحصانه. . . ولم يعـد لديـه مايقامـر به، ومـع هذا، صرخ بالغريب عندما رآه ينفض يديه استعدادا للقيام:

ـ أيها الغريب. . . إنني لم أنهزم بعد، ولاتزال لدى «روحى» أقامر بها!

وعادت المباراة. . . وخسر دون لويس!

ونهض الرجل مـن مكانه مودعـا. وأفاق المقامر الشهير إلى نفسـه حين رأى صاحبه يبرح المكان، فجثا أمامه هاتفا:

ـ أيها السيد الغريب. . أنا لا أملك أن أمنعـك، ولا أملك أن أطالبك برد شيء مما ربحت. . . كل شيء أصبـح ملكك: مالى، وسيفى، وحصاني. . . ولكنـى أتوسل إليك أن ترد لى روحى . . . روحى فقط أيها السيد الغريب!

وجذب الغريب طرف ردائه، وهز رأسه قائلا:

ـ إن «مركيز الشمـس» لايرد أبدا شيئا أصبح من حقه. . . ومـع ذلك فسوف أعيد لك روحك عندما تبلى هذا الحذاء . . . !

ثم ألقى إلى الفتى بحذاء غريب الشكل مصنوعا من الحديد، ثم اختفى فجأة كأنما ابتلعته الأرض.

قضى «دون لويس» أيـاما، لم يذق خلالها طعم الراحـة ولا الاستقرار. واضطربت حياته، واسـودت الدنيا فى عينيه. . . حتى غـدا لا يدرك من أمر نفسـه شيئا. وكيف يحس طعم الحياة أو يـدرك معناها، وهو يعيش على الأرض، شبحا بـلا ظل، وجسدا بلا روح!

إذن . . . فإلى هذا الحذاء الحديدى الملعون.

ووضـع «دون لويـس» الحذاء فى قدميـه، وانطلق سـائرا على غير هدى إلى حيـث لايدرى، وكـل همه أن يفنى الحذاء ليصـل إلى المكان الـذى يجد فيه مـركيز الشمـس، فيسترد منه الروح التى سلبها بالرغم منه.

وظل الفتى سائرا على قدميه سيرا لم يسره أحد من قبل ـ من قرطبة إلى برشلونه، ومن مرسية إلى سنتياجو ـ والحذاء الحديدى لايتـأثر بطول السير، والمركيز المجهول لايظهر له أثر. . . والأمل بين هذا وذاك ضائع منهار، لايبدو منه إلا سراب خادع!

وبلغ الفتـى، ذات مساء، بلدة صغيرة مجهـولة، ورأى أناسـا مجتمعين فى صخب

وضجيج أمـام فندق صغير. . . يكادون ، فى ثـورتهم ، أن يحطموا كـل شىء . واقترب الفتى من صـاحب الفندق ، يستفسره الأمر . فعلـم منه أن أحد النزلاء قـد مات فجأة وهو مدين له بأجر ثمانية أيام. ولـو أن الأمر وقف عند هذا الحد لكان هينا . . . ولكن الرجل كان مدينـا أيضا لعدد كبير من التجار، وعندما علموا بمـوته ، وفدوا إلى الفندق يطالبون صاحبـه بديونهم ، ويتهمونه بإخفـاء متاع الميت ، برغم أنه أخـرج أمامهم كل ماخلفه الرجل من ملابس ، لاتساوى أكثر من ثلاثة ريالات . . . ولاشىء آخر !

وأخذ صاحب الفندق يبكى ويصيح :

ـ أيها الناس. . . لست غنيا حتى أدفع ماعلى الرجل من ديون ، ولست مسئولا عن موته حتـى أدفع نفقات دفنه! ماذا أفعل بجثتـه يارب؟ هل أتركها للـدائنين يمزقونها ، ويأخذ كل منهم قطعة فتهيم روحه حائرة لاتستقر فى مكان؟! ماذا أفعل . . . ما الذى أستطيع أن أفعله . . ؟!

وأخرج « دون لويس» كيس نقوده فى صمت ، وقدمه لصاحب الفندق قائلا :

ـ خـذ . . . سدد ديون الميـت ، ومايتبقى أنفق منـه على جنازته ، حتـى يرقد هـانئا مطمئنا ، وتستقر روحه فلا تتشرد ولا تهيم!

ومد الرجل يده وتناول الكيس فى لهفة ، وتمتم بعبارات العرفان قائلا :

ــ ليبـاركـك الله يـاسيــدى . . . وكـن على يقين أن الله لايضيـع أجـر المحسنين ، وسيجزيك على عملك خير الجزاء .

واستأنـف « دون لويـس» سيره من جديـد ، ولم تمض ساعة أو بعـض ساعـة حتى فوجـئ بأن إحدى نعليـه قد تآكلت . . . وارتـاح لذلك راحـة كبيرة ، واندفع مـواصلا سيره . فلما جن عليه الليل ، سمع وقع حوافر جواد آت من خلفه فى سرعة ـ فأبصر فإذا فارس يمتطى جوادا أسود ، وملتف بعباءة طويلة سوداء . واقترب الفارس منه ، وترجل عن جواده وحياه فى صوت عميق كأنه آت من عالم آخر، وقال له :

ـ أنا أيها الفتى روح الميت الذى سددت عنه دينـه ونفقات جنازته ، وأطلقت بذلك روحه من عقـال الأسر، وأصبح لزاما على أن أكـافئك على الصنيع الذى قـدمت . . . فلتستمر فى سيرك حتـى تصل إلى النهر، واجلس هنـاك ساكنا على الضفـة تحت شجرة الصفصاف ، فإن طيورا ثلاثة ستهبط هنـاك ، ثم تخلع ريشها وتتحول إلى ثلاث فتيات رائعات الجمال ، ينزلـن إلى النهر للاستحمام . . . عندمـا يحدث هذا ، أسرع بالاستيلاء على ريش إحداهن ولا ترده إليها إلا إذا منحتك ماتريد!

واختفى الفارس فى غمرة الظلام ، ومضى « دون لويس » إلى النهر لينفذ نصيحته ، واستلقى تحت شجرة الصفصاف ، وراح فى سبات عميق .

* * *

واستيقظ من نومه على أشعة الشمس الذهبية تدغدغ عينيه ، وتلفت حوله فى سكون ، فأبصر أمامه ثلاثة طيور بيض تخلع عنها ريشها وتنقلب إلى حسناوات رائعات الجمال . . . رحن يتسابقن إلى الماء ، ويرتمين بين أحضانه . . .

وتسلل الفتى فى خفة ، واختطف أقرب الأردية إليه ، فانتبهت الفتيات ، وأسرعن إلى الضفة ، وارتدت اثنتان منهن ريشهما ، وتحولتا إلى طائرين رفرفا بأجنحتهما فى فزع ، وطارا بعيدا فى الجو ، وهما ينظران إلى شقيقتهما الصغرى التى حاولت أن تستتر من الغريب ، وأخذت تتوسل إليه أن يرد لها ريشها ، وهو يأبى . . . ولم تنتظر الفتاتان ، فانطلقتا فى السماء .

وأخذت الفتاة الصغيرة تستدر عطف الفتى ، قائلة : إنها بدون هذا الرداء لاتستطيع العودة إلى قصر أبيها . ولكن « دون لويس » لم يعر توسلاتها اهتماما ، وقال لها :

ـ لن أعيد إليك الريش إلا إذا أخبرتنى أين أجد « مركيز الشمس » !

فشهقت الفتاة فزعا ، وقالت :

ـ لن تستطيع أن تجده . وأنا لا أستطيع أن أشى بمكانه لمخلوق !

فهز الفتى كتفيه وقال :

ـ إذن لن أعيد إليك الرداء .

وعادت الفتاة إلى توسلاتها ، وانهمرت على خديها العبرات . . إلا أن الفتى لم يلن قلبه ، فقد كان حريصا على ألا تضيع منه فرصة استرداد روحه الشاردة .

وقالت الفتاة بعد لأى :

ـ إن « مركيز الشمس » أبى ، وهو ساحر قوى يعرف كل شىء . وقد أقسمنا على ألا نخونه أو نشى بمكانه .

فقال « دون لويس » :

ـ لن تحنثى فى يمينك ياصغيرتى . . . يكفى أن تطيرى قريبة منى على مهل ، فى

طريقك إلى قصره، دون أن تخبريني عن مكانه، وسأتبعك بمفردى . . . وهكذا أعرف أنا المكان، وتبرين أنت بقسمك!

واقتنعت الفتاة، وقبلت رأى الفتى . . . ومد إليها الفتى يده بريشها فتناولته وارتدته، وحلقت فى السماء، وراحت تطير فى بطء . . . وهو يتبعها سائرا على الأرض، وظلا على هذه الحال يوما كاملا، إلى أن بلغا قصرا شاهقا، يحوطه سور ضخم قائم على سفح جبل كبير. . . ورفرف الطائر بجناحيه ليدله على مكان الباب، ثم اختفى.

وظل الفتى سائرا حتى بلغ مدخل القصر. . . فولجه، واندفع إلى القاعة الكبرى التى تتوسط المكان، ووقف فى وسطها حائرا لايدرى ماذا يفعل!

ودوى فى سمع الفتى الذى تسمر فى مكانه، صوت كالرعد يسأله فى غضب:

ـ كيف بلغت هذا المكان أيها الدخيل؟!

واستدار الفتى فى بطء ورهبة إلى مصدر الصوت، فرأى المركيز جالسا على عرش ضخم من ذهب. . . تأمله طويلا، ثم أجاب:

ـ لقد سرت فى طريقى مستعملا الحذاء الحديدى الذى أعطيتنى إياه. ولما تآكل وجدتنى قد بلغت هذا المكان . . . فدخلته، وهكذا وجدتك. وإنى أطلب إليك أن تفى بوعدك وترد لى روحى .

فأجابه الساحر: سأردها إليك غدا. أما اليوم، فاسترح من عناء السير الطويل.

وفى الصباح عاد « دون لويس» يطالب بروحه، فماطله المركيز قائلا:

ـ لن أعطيك روحك قبل أن تهدم هذا الجبل الذى يحجب النور عن قصرى!

وخرج الفتى من القصر، وأطل أمامه إلى الجبل فى يأس . . . إن ألف عملاق لايمكنهم أن يهدموه فى أقل من ألف عام! ليس أمامه إذن إلا أن يعود من حيث جاء.

وارتمى الفتى على الأرض فى يأس مرير. . . وفجأة أحس بلسعة نملة على ساقه. . وعندما مد أصابعه ليسحقها، سمعها تقول:

ـ لاتقتلنى يادون لويس . . . إننى « بلانكفلور». ابنة مركيز الشمس التى قادتك إلى هذا المكان. . . سأساعدك مرة أخرى فلا تيأس. وما عليك إلا أن تنام حتى الصباح!

واطمأن « دون لـويس » فنـام . ولما أصبح الصبـاح ، واستيقظ مـن نومـه . . أطل أمامه فلم يجد للجبل أثرا . . . كان قد اختفى وكأن لم يكن!

وانطلق الفتى إلى داخل القصر، حيث جلس المركيز، وقال له :

ـ ها أنت ترى أننى قد نفذت أوامرك ، وأزلت الجبل من مكانه . . فنفذ الآن وعدك ، وامنحنى روحى . . .

ولكن المركيز قال له :

ـ لا أعرف كيف استطعت أن تقوم بهذا العمل ، ولكنى مع ذلك لن أعطيك روحك حتى تبذر الحبوب التى تملأ هذا الكيس كلها ، وتأتينى بثمارها لآكلها ساعة الإفطار!!

فهتف الفتى فى سخط :

ـ ولكنـك قلت لى إنك سترد روحى إذا أزلـت هذا الجبل . . . ولقـد فعلت ، فلماذا لاترد لى روحى على الفور؟

وهز الساحر كتفيه كأن لم يسمع شيئا . وخـرج الفتى يائسا مرة أخرى . وكان يحمل كيـس البذور فـوق كتفيه ويعجـب : كيف يتسنـى لـه أن يبذر تلـك البذور كلهـا فى الحقل ، ويسقيها ، ويجعلها تنبت ، وتورق ، وتثمر . . . ثم يقطف ثمارها ويأتيه بها قبل موعد الإفطار ؟!

وألقى الفتـى بالكيس على الأرض ، وارتمى فوقـه بيدب حظه السيـىء . . . وفجأة ، سمع طائرا يغرد ويناديه باسمه :

ـ يادون لويس . . إننى « بلانكفلور» التى ساعدتك مرتين ، سأمد لك يد المساعدة للمرة الثالثة ، وليس عليك إلا أن تهدأ وتنام!

وعندما استيقـظ دون لويس ، قبيل موعـد الإفطار، وجد نفسه غـارقا فى حقل ملئ بالأشجـار المثمرة ، تتدلى مـن فروعها جميع أنـواع الفاكهة ، مـن خوخ وبرتقـال وعنب ورمان . وأخـذ الفتى فى فـرح غامـر يقطف الثمار، وانطلـق بها إلى المركيز ووضعهـا بين يديه ، وصاح :

ـ الآن . . أعطنى روحى .

فتناول الساحر تفاحة قضمها فى لذة ، وقال :

ـ غدا . . . بعد أن تحضر لى خاتمى الذهبى الذى سقط منى فى قاع النهر!

وانفجر « دون لويس» صائحا صاخبا . . . ولكن المركيز أصر على ألا يعطيه روحه إلا بعد أن ينفذ مايريد واندفع الفتى إلى الخارج حتى بلغ ضفة النهر، وأطل إلى قاعه العميق، ثم انكفأ باكيا منتحبا . . .

ولمح الفتى على وجه الماء سمكة فضية صغيرة تقترب منه، وسمعها تقول :

ـ لاتبك يادون لويس . . . إن « بلانكفلور» لن تتركك . ولكنك لن تنام هذه المرة، بل عليك أن تلتقطنى الآن، وتقطعنى إربا إربا، وتلقى بدمى فى النهر . فإذا ما أزبد الماء، مد يدك تجد الخاتم فوق الزبد، وليس عليك بعد ذلك إلا أن تبحث عن أجزائى الممزقة من جديد، وتلصق بعضها ببعض . . . واحذر أن تنسى منى قطعة واحدة ولو كانت صغيرة!

ونفذ الفتى ماطلبته « بلانكفلور»، فمزقها أربعين قطعة، تدفق الدم منها إلى الماء فأرغى وأزبد . . . ومد الفتى يده إلى الزبد، فإذا الخاتم بين أصابعه! فأخذه، ثم جمع أجزاء السمكة فأعادها إلى حالتها الأولى. وعندما انتهى من الصاق آخر جزء، هتفت به آسفة :

ـ لقد نسيت جزءا من خنصر يدى اليسرى، وسأعيش دائما بخنصر قصير.

واندفعت السمكة، واختفت فى الماء.

وانطلق الفتى إلى القصر، ووقف أمام مركيز الشمس وفى يده الخاتم، وقال له :

ـ لن أعطيك الخاتم قبل أن تسلمنى روحى . . . الآن .

فقال المركيز:

ـ سأردها الآن، وقد أعددت لك جوادا من أحسن جيادى ليحملك إلى بلدتك . . . اذهب إلى فناء القصر، تجده هناك مسرجا على أتم الاستعداد .

وفرح « دون لويس»، وسلمه الخاتم، وأسرع إلى الفناء ليشهد الجواد . . وبينما هو فى طريقه إليه، اقترب منه فأر أشهب، وهتف فيه :

ـ إن « بلانكفلور» تتوسل إليك ألا تصدقه . . . إنه يريد أن يغدر بك . فالجواد ليس سوى المركيز نفسه، يريد أن يحملك حتى تطمئن إليه، ثم يلقى بك إلى الأرض، ويطأك بحوافره . . . ولكنك ستنتصر عليه إذا أخذت المهماز والسوط المعلقين على الحائط . وعليك أن تستعملهما فى قسوة بالغة، حتى يصرخ طالبا منك الرحمة والغفران .

وشكر الفتى الفأر الأشهب الذى لم يكن سوى «بلانكفلور» نفسها. ومد يده إلى الحائط فانتزع المهماز والسوط، وأمسك بعنان الجواد، ووثب فوق ظهره. وانطلق الجواد فى سرعة هائلة، وراح يقفز قفزات جبارة فيرتفع إلى السماء فجأة ثم يهبط إلى الأرض هبوطا مروعا. . . إلا أن «دون لويس» أمسك بالعنان جيدا، وراح يضرب الجواد بالسوط فى قسوة، ويلكزه فى جنبيه فى غلظة صرخ لها مستعطفا:

ـ كفى، كفى أيها الفتى . . . إننى «مركيز الشمس».

فأهوى الشاب بالسوط على وجهه فى قسوة وقال:

ـ رد لى روحى الآن أيها الخائن، وإلا قضيت عليك.

فأجاب المركيز فى ذلة وتوسل:

ـ ستكون روحك لك. . . أطلق سراحى.

وترجل الفتى، وانتفض الجواد فصار بشرا سويا . . . هو مركيز الشمس نفسه، وأخذ بيد الفتى إلى غرفة مظلمة قد اكتظت بزجاجات احتفظ فيها الساحر بأرواح ضحاياه، وتناول زجاجة منها سلمها للفتى فارتدت إليه روحه.

وغمرت الفرحة قلب دون لويس، وبدا كمن يهفو إلى من يشاركه فرحته، وأخذ يجول فى الحديقة باحثا عن «بلانكفلور» التى صنعت له هذا النجاح كله.

ولما يئس من العثور عليها، استلقى إلى جوار شجرة ورد، وقطف منها وردة . . . وما كاد يفعل حتى سمعها تهمس إليه:

ـ عمن تبحث بين الأخوات الثلاث يا «دون لويس»؟

ـ إننى أبحث عمن مدت لى يد العون منذ أول يوم.

فقالت له الوردة:

ـ اصغ إلى إذن . . . إن الغيرة تمزق قلبى شقيقتىَّ. فعليك أن تتجنب فتاتك، وتتحاشى إثارة الريبة فى نفس المركيز بأن تختار واحدة منا دون أن ترانا!

فقال دون لويس:

ـ وكيف أستطيع اختيار من أحب؟!

فأجابته الوردة:

ـ تذكر أن «بلانكفلور» فقدت عقلة من خنصرها بسبب خطئك.

وانطلق الفتى من فوره إلى المركيز، وبادره بقوله :

ـ أنا عائد فورا إلى بلدى ، ولكننى أشعر بحاجتى إلى رفيق فى سفرى . . فهلا زوجتنى إحدى بناتك ، فتكون رفيقتى فى العودة؟ !

وارتاب المركيز، وأجابه فى شك :

ـ أية واحدة منهن تريد؟

قال الدون :

ـ أنا لا أعرفهن ، ولا أستطيع أن أميز بينهن . ولا مانع لدى، تجنبا لإثارة الغيرة بينهن ، أن تقف بناتك وراء ستار، ويخرجن من فتحاته أيديهن ، فأمسك أنا بيد من أختارها عروسا لى دون أن أرى وجه واحدة منهن .

ووجده الساحر حلا موفقا . . . فأمر بناته الثلاث بالوقوف من وراء ستار، وأن يخرجن أيديهن من فتحاته . وسرعان ماميز « دون لويس» يد عروسه ذات الخنصر القصير.

وثارت الشقيقتان ، وانطلقتا إلى أبيهما تقصان عليه كيف ساعدت « بلانكفلور» ذلك الفتى الذى سرق رداءها الريشى فوق الشاطئ ، وكيف خرجت على طاعة أبيها وخانته .

وكانت « بلانكفلور» تقف غير بعيد ، فسمعت وشاية أختيها ، وعرفت أنه لم يعد أمامها من سبيل إلا الهرب فى سرعة مع الفتى الذى اختاره قلبها ، وانطلقت الفتاة إلى دون لويس صائحة :

ـ أسرع الآن قبل أن ينزل بنا أبى عقابه ونقمته . . . اذهب إلى الأسطبل ، وامتط الحصان الأبيض المربوط هناك ، وعندما تمرق به من الباب مد يدك لتلتقطنى فسأكون فى انتظارك هناك .

وفى الأسطبل ، وجد دون لويس الحصان الأبيض هزيلا لايكاد يقدر على العدو، فأشفق عليه ، واختار جوادا آخر تبدو عليه معالم القوة ، وانطلق به إلى باب القصر. فعندما رأته بلانكفلور صرخت قائلة :

ــ لماذا اخترت هذا الجواد الأسود أيها التعس؟ ألم أنصحك بأن تختار الحصان الأبيض؟ إنه مسحور يجرى أسرع من الضوء . ومع هذا ليس أمامنا مفر الآن، لأن

الوقت قـد فات . . هيا بنا ، فلا تزال أمـامنا بضع ساعات لكى نهرب . . . لقـد تركت أحد أرديتى المسحورة فى حجرتى ، وسيتولى الإجابة عنى إذا نادانى أبى .

وامتطت « بـلانكفلور» الجواد وراء « دون لـويس» ، وقد أمسكـت فى يدهـا اليمنى صندوقا مملوءا ذهبا وجواهر، وباليد الأخرى رداءها الريشى الأبيض .

وسمع الساحـر صوت انطلاق الحصان ، ولم يتبـادر إلى ذهنه قط أن ابنته فـرت مع الفتى . ولكى يقطع الشك باليقين ، ذهب إلى حجرة ابنتـه ونادى عليها ، فأجابته بأنها موجودة ، فهدأ باله ، وعاد إلى مكانه .

إلا أن غيرة الشقيقتين أثارت شكهما فى الأمـر، فأخذتـا تناديـان على أختهما بصوت مرتفع . وكان الرداء يجيب عليهما فى كل مرة . . إلا أنه عجز عن فتح الباب عندما طلبتا منـه فتحه ، وتـأكـد لهما أن أختهما غير موجـودة . وذهبـت إحـداهما فأحضرت بعـض المفاتيـح عالجت بها الباب حتـى انفتح . . فانـدفعت الشقيقتان إلى الـداخل فوجـدتا الحجرة خالية إلا من الرداء الذى كان يجيب .

وجن جنون الساحر، وأسرع إلى الأسطبل ، حيث امتطى الفرس الأبيض ، وانطلق به خلف العاشقين الهاربين .

وانتبهت « بلانكفلـور» إلى صوت الجواد الأبيض من خلفهما ، وأطلت فـإذا عاصفة من الغبار تظهر غير بعيد فصرخت فى خاطبها .

ـ أسرع يادون لويس . . إن أبى يكاد يلحق بنا .

ولكز الفتـى الحصان بمهمازه . . إلا أن السـاحر كان قـد أصبح على بعـد خطوات منهما ، ومدت « بـلانكفلور» يدهـا إلى شعرها ، فـانتزعـت مشطا وألقته بسرعـة وراءها قائلة : كن جبلا !

وصـار المشـط جبـلا عـاليـا يفصل بينهما وبين السـاحـر، واستمـر العـاشقـان فى اندفاعهما . . ولكن الساحر كان قد اجتاز الجبل فى لحظات ، وأوشك أن يلحق بهما من جديد .

والتفتت الفتاة إلى الخلف ، وألقت بمنديلها وهى تقول :

ـ كن ضبابا ، واسترنا عن أعين أبى !

وانتشرت غمامة كبيرة مـن السحب فصلت بين الساحـر والعاشقين ، ولكن الـرياح

سرعان مـابددتها، وانكشف الهاربـان للساحر الـذى استشاط غضبـا وثورة، فانـدفع بالجواد فكان منهما على بعد خطوات . . .

وتعثر الجواد الأسـود بالهاربين، ووقـع على الأرض، ولم يجدا من الـوقت مـا يكفيهما لإنهاضه على قوائمه المرتعشـة المنهوكة، فتمتمت الفتاة ببضع كلمات، فـإذا الحصان قد تحول إلى شجرة جوز، وإذا بهما يتحولان إلى ثمرتين تتدليان إلى جوار باقى الثمر. . ومر الساحر بالشجرة فلـم يعرفها، وفوجئ باختفاء ابنته وصـاحبها، ومضى يذرع المكان، ويتطلع فى كل الأنحاء . . . إلى أن أدرك أنه فقد أثـرهما تماما. ولما يئس من العثور على أى أثر لهما، كر عائدًا أدراجه .

وتريـث الفتى والفتاة حتـى اطمأنا إلى ابتعـاد الساحر تمامـا، فدخلا فى كـوخ قائم بجانـب الطريـق أخذا قسطا مـن الراحـة بعد هذا الجهـد الشاق . . . وعنـدما استردا أنفاسهما قاما فاستأنفا رحلتهما الشاقة إلى قرطبة .

وانتبه الساحـر العائد إلى وقع حوافـر حصانه الأسود تظهـر مرة ثانية، فـاستدار فى سرعة إلى الطريق الذى أقبل منه، واندفـع متتبعا صدى الصوت، وفى لحظات كان قد قطع المسـافة الفـاصلة بينهـم، وأصبح منهما على بعـد خطوات . . وكـان اقترابه منهما مفاجأة لم تتمكن الفتاة معها من استخدام سحرها . . فبكت . وإذا بدموعها تتحول إلى نهر أخذ يتسـع ويتسع، ويـرغى ويزبـد، ففصل بينهما وبين السـاحر، الـذى ارتد إلى الخلف مذعورا مسرعا قبل أن يغرقه الطوفان!

وغضب الساحر عندما وجد ابنته تكاد تغرقه، فصرخ فيها :

ـ لقد أفلت منى يا لعينة . . إلا أن القوة التى منحتك إياها ستصبح منذ الآن خواء، وستعودين منذ هذه اللحظة امرأة عادية كغيرك من النساء . أما الرجل الذى فضلته على أبيك، فسوف ينساك فى أول عناق لأول شخص يلقاه!

وهتفت « بلانكفلور» فى خاطبها دون لويس :

ـ دون لويس . . دون لويس . . هل ستنسانـى كما تنبأ أبى برغم أنى تبعتك بعد أن تخليت عن أبى، وشقيقتىَّ، وسحرى، وقواى؟!

وكان جواب الفتى قبلة طويلة ساخنة على شفتيها أغنتها عن الكلام .

واستأنفا السير. . .

اقترب الحبيبان من قرطبة، وعجز الجواد عن مـواصلة السير، فاضطر «دون لويس» أن يأخـذ فتاتـه إلى حديقة زيتـون صغيرة، وطلب منهـا أن تستريح ريثما يبحـث عن

حصان آخر يستبدله بالحصان المنهك الذى عجز عن مواصلة السير إلى قرطبة .

وانطلق الفتى فى طريقه ، وخلفه الحصان الأسـود ، حتى بلغ المدينة . ولم يكد يتجه إلى فندق صغير يؤجر الخيل ، حتى فوجئ بعجوز تحتضنه وتعانقه ، وهى تهتف فى فرح :

ـ دون لويس . . دون لويس . .

وكانت العجوز هـى مربيته القديمة ، وكان لابد أن يقبلهـا ويعانقها . . . وفى تلك اللحظة تحققت نبوءة الساحر ، ففقد « دون لويس» ذاكرته ، وانسدل عليها ستار كثيف من النسيان ، فصل بين حاضره وماضيه ، وقطع كل صلة تربط بينهما . . . فما عاد يذكر شيئا على الإطلاق عن مخطوبته وحبيبته « بلانكفلور» !

* * *

واستقبلت المدينة من جديد « دون لويس» . . . أكبر مقامر فى أسبانيا . وعاد هو إلى حياتـه السابقة بعد أن ورث ثـروة ضخمة تركها لـه عمه خلال غيبته ، وعـاش كما كان يعيش من قبل . . عيشة الشاب الثرى المغامر، الغارق حتى أذنيه فى القمار المجنون !

وذات يوم . . . دخـل « دون لويس» اسطبـل الخيول فى قصره الكبير، واصطـدمت قدمه بصندوق صغير فى إحدى الزوايا ، وتأمل الصندوق طويلا ، فإذا برأسه يدور.

لقد تذكر أنـه كان قد ألقى بهذا الصندوق الصغير فى زاوية الأسطبـل يوم وصوله إلى قـرطبة ومعـه حصانـه المتعب المنهـوك . . . ولكن ، مـاذا يضم الصنـدوق؟ ! هذا مـالم يستطع تذكره أبدا !

وانحنى دون لـويس ، والتقط الصندوق . . . وعنـدما فتحه ، ارتفـع فى الجو نسيج رائع من الريش الأبيض . . ريش خفيف ناعم مثل الحرير.

حاول أن يتذكر أين رأى هذا الريش ، فأصيب بدوار شديد ، وانتابته إغماءة ، لم يكد ينهض منها حتى استعادت ذاكرته صورة « بلانكفلور» !

وكاد الأسـى يقتله ، وانطلق يصرخ فى كل مكـان ، ويصيح مرددا اسمهـا فى نشيج مؤلم :

ـ بلانكفلور. . . بلانكفلور. . . أين أنـت أيتها الحبيبة الغالية؟ لتنصب على رأسى لعنات هذا العالم كله . . . كيف نسيتك يا بلانكفلور؟

وهرعت إليه مربيته العجوز، ولكنها لم تستطع أن تفهم شيئا . . إنه يعدو هنا وهناك ويصيح فى ثورة ، ويبدو هائجا كالمجنون !

وأقبل المساء، وهدأ « دون لويس» قليلا. وستطاعت العجوز أن تستدرجه حتى فهمت كل شيء، فهدأت من روعه قائلة:

ـ اهدأ يادون لويس، فستجد فتاتك الحلوة الطيبة.. لاتغضب لأنك عانقت عجوزا مثلى، فإن هذه العجوز هى التى سترد إليك فتاتك!

وسكت الفتى... واستطردت العجوز قائلة:

ـ أعطنى الآن ريالين لأشترى بهما شموعا للقديس أنطونيو، واذهب أنت إلى القصر القديم القابع فى طريق الملائكة، واسأل هناك عن الأم ماريبوزا... إنها امرأة من الغجر سكنت ذلك المكان منذ بضعة شهور، وقدمت حتى الآن ستا وثلاثين معجزة للأهالى... فلعلها تفيدك، ولعلها ـ ببركة القديس أنطونيو ـ تقدم لك المعجزة السابعة والثلاثين!

وعاود الأمل دون لويس، فانطلق إلى طريق الملائكة، يسأل فى لهفة عن الأم ماريبوزا. وقادوه إلى حجرة صغيرة ضيقة ذات نافذة واحدة لا يكاد يرى فيها شيئا عندما ولج بابها الصغير.

وفوجئ « دون لويس» بصوت يسأله:

ـ عم تبحث أيها الشاب؟

فأجاب وهو يفرك عينيه محاولا أن يخترق حجب الظلمة:

ـ أبحث عن فتاة فقدتها.

قال الصوت: هل ترغب كثيرا فى رؤيتها؟!

أجاب « الدون»: إنى أهب حياتى كلها من أجلها.

قال الصوت: ولماذا إذن تخليت عنها؟!

فأجاب الدون: إن لعنات أبيها حلت علينا فأفقدتنى الذاكرة، فنسيتها!

وفوجئ « دون لويس» بالأم ماريبوزا تعانقه فى لهفة ووجد.. وكانت هى حبيبته «بلانكفلور» نفسها!

وحمل الفتى مخطوبته ـ ابنة مركيز الشمس ـ طوال الطريق إلى قصره. أما هى فما شعرت بالأسف قط على حياتها القديمة. وأما رداؤها الريشى الأبيض، فقد صار بعد ذلك غطاء لسرير أول أبنائها من دون لويس!

الفهرس

رقم الإيداع ٧٢١٠ / ٩٨
الترقيم الدولى 5 - 0463 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧٠ (٠٢)
بيروت ص ب. ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)